

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أ.د. جعفر عبد السلام

الأميين العام لرابطة الجامعات الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ الذي أرسله ربه رحمة

للعالمين.. وبعد،،

تشغل قضايا المرأة في وقتنا الحاضر، المجتمعات والدول.. والرجال والنساء على حد سواء، وشهد عصرنا الحاضر قيام الكثير من المنظمات والهيئات التي تهتم بهذه القضايا وتبذل جهداً كبيراً في تناولها، ليست بالدراسة فحسب؛ بل بإعداد التشريعات والقوانين التي تعالج العديد من جوانبها.

وتنطلق هذه الهيئات والمنظمات من فكرة رئيسة هي: أن المرأة ظلمت كثيراً، وأن المجتمعات الذكورية قد انفردت بوضع النظم والقوانين التي تنظم وضع المرأة في المجتمع، كذلك تنطلق هذه الأعمال من فلسفة رئيسة ترى أن المرأة مظلومة سواء على المستوى النظري أو على المستوى العملي؛ لذا يجب العمل على تغيير وضع المرأة؛ بل وتغيير الفلسفات التي تسود مجتمعات ودول العالم الثالث، وبالذات المجتمعات الإسلامية، حيث تدعى الحركات النسائية والكثير من الشخصيات أن المرأة في بلاد الإسلام تعامل معاملة سيئة على كافة المستويات، وأن التشريعات الإسلامية تنطوي على الإجحاف بحقوق المرأة ووضعها في مرتبة أقل من الرجل، سواء في الحقوق المالية "الميراث" أو في الحقوق العامة، حيث تجعل شهادتها بنصف شهادة الرجل، وتجعل للرجل قوامة عليها.. فوليها أيّاً كان هو الذي يربّيها ويزوجها، إلى غير ذلك من المفاهيم التي سادت في الغرب عن الإسلام؛ لذا عندما تأتي باحثة منصفة ترى جنسها بوضوح في مراجع الإسلام الأساسية من قرآن كريم، وسنة شريفة، وتراث إسلامي، وتوضح بجلاء الكثير من الحقائق والفلسفات وحكم التشريعات الإسلامية وعللها، وتفرق بين العادة والقاعدة، وتجلي الأفكار والمبادئ بوضوح وموضوعية؛ فإن رابطة الجامعات الإسلامية يسرها أن تفسح المجال لمثل هذه

الكتابات المهمة وتقدمها ليس للجامعات الإسلامية فحسب؛ بل لكافة المجتمعات الإنسانية، والغربية على وجه الخصوص..

لقد عكفت الأستاذة الفاضلة خديجة النراوي الكاتبة الإسلامية والحائزة على جائزة الدولة التشجيعية في الدراسات الإسلامية، على دراسة هذه القضايا، لتخرج لنا هذا المؤلف النافع الذي نأمل أن يترجم إلى مختلف اللغات الحية، إذ تتعرض بموضوعية لوضع المرأة المسلمة ودورها في النهضة الحضارية.. فتحدث في الباب الأول عن دور الإسلام في تفجير الطاقات الكامنة في المرأة ودفعها للارتقاء الروحي، من خلال عدة فصول تناولت: شريعة الإسلام بين الجحود والإنصاف، والمرأة وفعاليتها في الحياة، وسبق الشريعة إلى تحقيق المساواة العادلة بين الرجل والمرأة. وفي الباب الثاني تحدثت الكاتبة عن حريات وحقوق حضارية تنبأ بها المرأة المسلمة علي مدار عصورها، في عدة فصول، تضمنت: حريات المرأة وحقوقها في مرحلة الطفولة، وفي مرحلة الشباب، وحريتها وحقها كزوجة وأم، وحريتها وحقوقها على مستوى الدولة. وفي الباب الثالث الذي جاء تحت عنوان: قضايا وهمية تحجب الحقائق الإيمانية، تناولت الحديث عن القضايا المثارة حول أهلية المرأة، وقضايا تتعلق بإيجابية المرأة في الحياة، وقضايا أخرى تتعلق بالحياة الزوجية.

أما الباب الرابع والأخير فقد خصصته الكاتبة للحديث عن الدور المرتقب للمرأة في إحياء الثقافة الإسلامية، من خلال ثمانية فصول تناولت: دور المرأة في السعي نحو المعرفة المتكاملة، ودورها في إثراء الفكر الإسلامي، ودورها في تربية الأبناء، ومساهمتها الفعالة في الحياة الاجتماعية، ودورها في النقد الإيجابي البناء، ودفع عجلة التنمية، والمشاركة في الحياة السياسية، والدفاع عن الوطن.

وإننا إذ نقدم هذا الكتاب، وهو الإصدار الخامس، من سلسلة مركز دراسات الأسرة برابطة الجامعات الإسلامية، نسأل الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وينفع به الباحثين في كل مكان..

وبالله تعالى التوفيق

مقدمة:

نرى اليوم في عالمنا المعاصر دعوات كثيرة، تطلق على نفسها أنها تهدف إلى تحرير المرأة، وفي اعتقادي أنها تؤدي في النهاية إلى عبودية المرأة، لأهوائها وشهواتها وقيود وظيفتها ورؤسائها. على عكس نظرية الإسلام التي تهدف بحق إلى تحرير المرأة من ضعف نفسها وسيئات أعمالها، وتحريرها من ضغوط الصراع في شعب كثيرة انطلاقاً من قول الحق عز وجل: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (الزمر: ٢٩)؛ لأن تناسي المرأة لوظائفها الجوهرية في الحياة، يجعلها تسلم نفسها لشركاء كثيرين، كل منهم يتنازعها لتحقيق أهدافه. أما إذا سلمت المرأة قيادها لخالقها، فإن ذلك التسليم يحميها من عواصف مدمرة، لا تؤدي بها إلى مهالك دنيوية فقط، بل قد تحرمها نهائياً من السعادة الأبدية.

ومن هنا فمنهج الإسلام يحرص كل الحرص، على انتشال المرأة من التردّي في أغوار سحيقة، نتيجة البعد عن التمسك بالفضيلة، والاعتصام بمجلد الله المتين، ومنهاجه القويم. كما أنه يوقظ فيها طاقاتها الكامنة من الحب والرحمة والعطاء؛ فتندفع بفاعلية في بناء مجتمعاتها على أسس قويمة من الحق والعدل، وكل معاني الإنسانية النبيلة، وهذا ما تميزت به دعوة الإسلام؛ فهي لا تضع قيوداً على حركة المرأة في الحياة، طالما أن تلك الحركة مبعثها ومنتهاها مرضاة الله، ومحاطة بسياج منيع من الأحكام الشرعية، يصونها من التردّي في مزالق دنيوية، أو حرمانها من الفوز بالنعيم في الحياة الأخروية.

كما يتميز المنهج الإسلامي بالأصالة الدينية التي تتفق مع التطورات العصرية؛ حيث يؤكد على أهمية دور المرأة في الحياة، وضرورة مشاركتها الإيجابية، ليكون لها دور بناء يتفق مع مكانتها. وفي نفس الوقت فإن تلك المشاركة الإيجابية يجب ألا تجعلها تغفل عن حقيقتها كامرأة يفيض قلبها بالرحمة؛ لأنها خلقت للعطاء الذي يتمثل في أسمى صوره في دور الأمومة للمرأة؛ فهي رحم الأمة، وهي ينبوع الحب والإيثار والعواطف السامية، ويوم أن تنسى المرأة تلك المعاني النورانية، فإنها تدفع بنفسها في خضم المادية، فتشقى، وتشقى معها البشرية كلها.

إن سبب الاتهام الذي يوجه للإسلام من الإجحاف بحقوق المرأة ومكانتها ينبع من الجهل بحقيقة الشريعة الغراء؛ حيث اختلطت الأحكام الشرعية المتعلقة بالمرأة في تاريخنا الإسلامي مع الكثير من العادات والأعراف، وهذه العادات تتغلب على الأحكام الشرعية -عند كثير من الناس- التي تصبح شكلية أحياناً، إثر ذلك تبدلت المفاهيم واختلطت

الأفكار وضاعت حقوق وفرضت واجبات جديدة، وأصبح الحكم على الإسلام من واقع العادات والتقاليد وليس من واقع حقيقة ذلك الدين القيم.

بزوغ حرية المرأة مع فجر الإسلام:

لم يأت الإسلام لكي يحرر المرأة فقط، بل إنه قد جاء ليحرر الإنسانية جمعاء، من عبودية الأهواء والشهوات، وصراع الأطماع والجهالات. وأرسل رسوله ليحرر العقول مما ران عليها من جهل المعتقدات، ويزيل غشاوة كادت تعمى معها الأبصار، فتهوى الأقدام إلى مدارك خطرة، من انحلال الشعوب وضلالها. وأول من ذاق حلاوة الإيمان وشعرت بعظمة الإسلام وآزرته بكل ما تملك من مال وكيان؛ امرأة عظيمة لها مكانتها السامية وتقديرها الصائب في الحكم على الأمور؛ لأنها كانت سيدة أعمال من الدرجة الأولى ولا ينقصها الجاه والمال؛ ولكنها كانت مشوقة إلى ارتواء الروح والوجدان ومبادئ ترتقي بعقل الإنسان؛ إنها السيدة خديجة رضي الله عنها، أول من أعلنت بالتطبيق الواقعي أن الإسلام يحقق المساواة بين المرأة والرجل^(١).

فكيف يمكن الفصل بين الذكر والأنثى، وقد خلقهما الله معاً، ليقوما بمهمة واحدة، هدفها إعمار الكون، ونشر الحب والحق بين الناس، لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله، والإخلاص في أداء الأمانة، والقيام بالواجب المنوط به على خير وجه.. ولأجل القيام بتلك المهمة، وتحقيق مراد الله من خلق الإنسان أصلاً على وجه الأرض، كان لابد من "التخصص وتقسيم العمل"، فالمرأة لها دور لا يمكن للرجل أن يقوم به، ولها الحق أن تفخر بتشريف الله لها، أن خصها بتلك المهمة الجليلة في خلق الأجيال. وللرجل دور لا يمكن للمرأة أن تقوم به، نتيجة الخصائص البيولوجية لكل منهما. وبين ذلك أمور مشتبهات، يمكن لكل من الرجل والمرأة القيام بها، حسب قدرات كل منهما الجسدية والمعنوية، والقوانين التشريعية التي تحكم كلاهما.

ومن أجل تحقيق ميزان دقيق للحياة: من الله علينا بشريعة الإسلام، لتوقظ الناس من ظلمات الجهل والاستبداد، إلى أجراس أنوار الحرية العذبة، ونسماتها الفواحة، وتحدد لهم في خطوط عريضة، كيف يبنون حياتهم على أسس متينة وقواعد راسخة، لا تنهار مع تيارات الحياة الاجتماعية المتجددة. وحرصت شريعة الإسلام أن تكون الحرية دعامة

(١) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى: خديجة بنت خويلد المثل الأعلى لنساء العالمين، إبراهيم محمد حسن الجمل - دار الفضيلة.

أساسي، من تلك الدعائم المتينة، التي يجب أن يبنى عليها المجتمع الإسلامي. ولذلك فقد وجهت عناية خاصة لتحرير المرأة، من كل أنواع القيود التي كانت تكبلها؛ لأن المرأة هي صانعة الأجيال المسلمة القادمة، فلا بد أن تكون حرة، لخلق جيل حر واع كريم، يعرف كيف يتحمل تبعات الرسالة المحمدية، ويسبح في الأرض حاملاً أسمى المعاني، التي تتوق إليها البشرية، فيخرجها من ظلمات النفوس ومعانقها، إلى نور الحق الذي يحقق لتلك النفوس أمنها وسكينتها واطمئنانها.

ويجب علينا أن نعي جيداً: الأهمية الخاصة التي أعطاها الإسلام للمرأة، ولا نغفلها حقاً فيه حياة الأمة الإسلامية وتقدمها ورفقها، فهي والرجل الركنان الأساسيان لبناء الأسرة، ولن تصلح أسرة أحد ركنيها صحيح والآخر معتل، فلا بد أن يكون الركنان يتمتعان بكل القوى المادية والمعنوية حتى يتخلصا من علل الجهل والأمراض الاجتماعية، وبذلك يمكن للأسرة أن تسير في خضم التيارات المادية المتجددة، بخطوات ثابتة على درب الإيمان والتوحيد، لا تتنازعها الأهواء ومغريات العصر، أو تجرفها عن الصراط المستقيم. وليعلم الجميع: أن الإسلام أعز المرأة ورفعها مكانة عالية، لم تكن لتحلم بها على مر العصور والأجيال، وأن التعلل ببعض النصوص على إهدار تلك المكانة، هو إجحاف بالشرعية، وإهدار للجهد الذي بذله رسولنا الحبيب ﷺ لرقى المرأة، ونهضتها من كبوتها، لتساهم في بناء المجتمع الإسلامي وتنميته، على أن يكون أول مظاهر تلك المساهمة: هو بناء الأسرة المسلمة القوية، التي تستطيع المشاركة في الحياة بفاعلية. وإني كأمراة مسلمة تذوقت أسمى معاني الحرية في ظل الشريعة الإسلامية، وتنعمت بمصادر القوة والعزة الإيمانية؛ فإنني أوجه هذا النداء لجميع النساء:

- إذا أردتن الحرية الحقيقية: فعليكن بالإسلام.
 - وإذا أردتن الرقي إلى مدارج الحق والخير والجمال: فعليكن بالإسلام.
 - وإذا أردتن مساواة تقوم على موازين الحق جل شأنه: فعليكن بالإسلام.
 - وإذا أردتن ترشيد خطواتكن في الحياة، بحيث تحققن أعلى كفاءة ممكنة وأقصى تقدم يمكن أن تصل إليه البشرية: فعليكن بالإسلام.
 - وإذا أردتن تحصناً من غدرات النفوس وهجماتنا: فعليكن بالإسلام.
 - وإذا أردتن خيري الدنيا والآخرة: فعليكن بالإسلام.
- وهذا ما سوف تثبته بالمنهاج العملي من خلال رحلة بحثنا هذا بمشيئة الله تعالى.

منهاج البحث:

- يعتبر هذا البحث في معظمه استقراء لأحاديث النبي ﷺ حيث هي التطبيق القولي والفعلي لدستور القرآن العظيم، وهي المنهاج التشريعي لأمة المؤمنين، وهي الترجمان العملي لمراد الحق من الخلق؛ ولذلك فإن استقراء تلك الأحاديث يبرهن بالدليل العملي المستند إلى مصدري التشريع العظيمين: (القرآن والسنة) كيف أن المرأة عاشت أزهى عصورها في ظل الإسلام، وكيف أنها تحررت من كل قيود العبودية والاستبداد، وكيف أنها حققت أمثل أنواع المساواة، واستطاعت أن تشارك الرجل في بناء الأمة ومواجهة كل التحديات، وثبتت بجدارة قدرة المبادئ الإيمانية على تشكيل النفوس الإنسانية بما يجعلها قادرة على إقامة المجتمعات الحضارية بكل ما تحمله تلك الكلمة من معان، لا فرق في ذلك بين رجل وامرأة.

- اعتمدنا في بحثنا هذا على ذكر الأحاديث الصحيحة أو الحسنة الإسناد بقدر الإمكان، وذلك حتى تكون كلماتنا قائمة على أسس راسخة من الثقة ودعائم متينة من الموضوعية، تكفل إقامة بنيان راسخ؛ ليتمكن من بعدنا من متابعة الجهود وملاحقة الأفكار، بما يعلو به البنيان ويجعله يبهر العقول والأبصار.

ونحن إذ نقوم بهذا يدفعنا الإحساس الإيماني بأمانة الكلمة ومسئوليتها، ودرءاً للجدال حول صحة الأحاديث ومنعاً للتراخ حول ما تناولناه من موضوعات؛ فهدف كل مؤمن غيور على دينه هو السعي إلى إظهار الحقيقة بدون اندفاع أو حماس يؤدي إلى اختلاف الأمة؛ فنحن جميعاً وظيفتنا رآب الصدع ولم الشمل وتوحيد الكلمة؛ لأن إلهنا واحد ونبينا واحد، ودستورنا واحد، والحقيقة جليلة ناصعة لا تحتاج إلى افتعال لإظهارها.

- كانت مهمتنا في هذا البحث هي إظهار دور الإسلام في تفجير الطاقات الكامنة في المرأة ودفعها إلى الارتقاء الروحي، وذلك عن طريق ما يحمله من مبادئ وتشريعات تحقق للمرأة كل الطموحات، وكيف نأمل أن تعيد المرأة عصرها الذهبي، وتساهم بدورها في كل المجالات؛ لتبعد عن إسلامها كل الشبهات.. والحق يقال أن مهمتنا لم تكن يسيرة؛ لأن الحقوق والحريات التي أعطاها الإسلام للمرأة كانت فوق كل التوقعات، وفوق المألوف من العادات والتشريعات في ذلك الزمان.. ولذلك كانت محاولة انتقائنا من ذلك الخضم الهائل ما يفيد بحثنا في مجال الحدودية التي نعيشها من الصعوبة بمكان؛ فكان حالي كمن عثر على كثر ثمين تتنوع فيه الجواهر والأصداف والآلي؛ فوقف متحيراً أيها يختار وأيها يدع؛

ولذلك فأنا أعتز بقصوري وعجزي أمام تلك المبادئ المبهرة والعظمة المتسامية لقوانين الشريعة المتكاملة.

- قسمت البحث إلى أربعة أبواب يشتمل كل باب منها على عدة فصول؛ وذلك في محاولة لاستقصاء الغاية وشمول المضمون.
وتتمثل تلك الأبواب فيما يلي:

الباب الأول: دور الإسلام في تفجير الطاقات الكامنة في المرأة ودفعها للارتقاء الروحي.
الباب الثاني: حريات و حقوق حضارية تنبهي بها المرأة المسلمة علي مدار عصورها.

الباب الثالث: قضايا وهمية تحجب الحقائق الإيمانية.

الباب الرابع: الدور المرتقب للمرأة في إحياء الثقافة الإسلامية.

هذا وأدعو الله أن يتقبل صالح أعمالنا. فإن كنت قد أصبت فبفضل الله ونعمته، وإن كنت قد قصرت فمن نفسي. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباب الأول

**دور الإسلام في تفجير الطاقات الكامنة في المرأة
ودفعها للارتقاء الروحي**

الفصل الأول

شريعة الإسلام بين الجحود والإنصاف

الفصل الثاني

المرأة وفعاليتها في الحياة نبعاً من مبادئ الشريعة

الفصل الثالث

**سبق الشريعة في تحقيق المساواة العادلة
بين الرجل والمرأة**

الفصل الأول

شريعة الإسلام بين الجحود والإنصاف

أعجب لكل من يتناول على الإسلام ويتهمه بأنه سبب انحطاط المرأة وتخلفها، ومن واقع اعترازي بتلك الشريعة الخالدة أعرض على هؤلاء نماذج مقتطفة من دور الإسلام في تفجير الطاقات الكامنة في المرأة بما تعجز عنه نساء العصر الحديث (المسلمات منهن وغير المسلمين) لأن أيًا منهن لا تغترف من ينابيع الإيمان العذبة بما يشحذ عزيمتها ويصقل إرادتها وباعترازي هذا بعقيدتي، أرد كيد الأدعياء في نحورهم، وأوجه تلك الكلمات لدعاة تحرير المرأة تحت دعاوى الحضارة الحديثة:

- أقول لهم: كم من نساء العصر الحديث، وفي خضم الحضارة الغربية الحديثة، استطاعت أن تحيي حضارة بأكملها من العدم، بدون أى مورد من موارد الثروة الاقتصادية، مثل السيدة هاجر.. فقد تركها الخليل إبراهيم في صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء، وبدون أى معين غير اليقين بالله، وتعاليم الدين الخفيف، ومعها طفل رضيع لا حول له ولا قوة. بل على العكس يشكل في عنقها أمانة خطيرة، يستثير فيها كل معاني الأمومة السامية، وهو على وشك الهلاك من العطش، فالتجته إلى الله بكل تضرعاتها، مع سعيها الجاد (بين الصفا والمروة) موقنة أن الله لن يضيعهما أبداً؛ لأنه وعد عباده المؤمنين بذلك، ووعدده الحق، ففجر لهما الماء، وأوكل إليها مهمة تنشئة نبي، وعمران مكة، وإنه لأمر جد خطير، لا تقدر عليه العصابة من الرجال في عصرنا الحاضر^(١).

- وأقول لهم: من من نساء العصر الحديث، تستطيع أن تقوم بما قامت به السيدة خديجة رضي الله عنها من حماية أمة محمد، وهي في محتتها في شعاب مكة، وحماية الدعوة في مهدها بماها ونفسها وروحها. تلك السيدة التي ندين لها بالفضل العظيم، في مشاركة الرسول ﷺ أولى تبعات الوحي، وما صحبه من زلزلة نفسية، فوقفت تسانده، وتشد أزره، وتثبت فؤاده، بكلمات حكيمة تدل على عمق علمها، وسعة خبرتها، ودعمت ذلك عملياً، بالذهاب إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، لتجمع البرهان النظري مع العملي. ولولا

(١) المرأة في الإسلام حرية أم عبودية: خديجة النبراوي. دار سوزلر للنشر.

مكانتها الاقتصادية في مكة، وعظمة يقينها وإخلاصها، لنجحت خطة الكفار في القضاء على الإسلام، بالحصار الاقتصادي^(١).

- كم من النساء مثل هذا النموذج التحريري سمية بنت خياط [٧ق هـ / ٦٥١م] زوج ياسر، وأم عمار، طليعة شهداء الإسلام وأمته، الأحياء عند ربهم يرزقون.

- وكم من النساء مثل السيدة عائشة أم المؤمنين [٩ق هـ - ٥٨هـ / ٦١٣ - ٦٧٨ م] رضي الله عنها، راوية السنة النبوية.. والفقيهة والمفتية في الدين.. والمشيرة علي رسول الله ﷺ وعلي الأمة.. والمشاركة في الشأن العام، سياسة واجتماعاً.. سلماً وحرماً؛ فالسيدة عائشة ظلت تنقل بدقة متناهية آثار السنة النبوية، لمدة نصف قرن بعد وفاة الرسول ﷺ ودونت (٢، ٢١٠) حديثاً، وكانت تمتلك موهبة غير عادية، لاستنباط الأحكام الشرعية من تلك الأحاديث.. ويقال: إن أحد أرباع أحكام الشريعة الإسلامية، يعتمد على ما روى عنها. وكانت بمقدرتها العلمية وتفقهها في الدين، موضع ثقة الجميع. وعبد الله بن عباس الذي كان من أكثر أصحاب الرسول غزارة في العلم، ويلقب "بمجر الأمة" قد تتلمذ على يديها، بالإضافة إلى آخرين من الصحابة والتابعين. ويقول أبو موسى الأشعري: "ما أشكل علينا - أصحاب رسول الله ﷺ - حديث قط، فسألنا عائشة، إلا وجدنا عندها منه علماً"^(٢).

- وكم من النساء مثل السيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق [٢٧ق هـ - ٧٣هـ / ٥٩٧ - ٦٩٢م] الأنتى التي تشارك في صناعة الأحداث الكبرى والمحورية في تاريخ الدعوة والدولة الإسلامية.. والتي ترعى منزل زوجها الزبير بن العوام [٢٨ق هـ - ٣٦هـ / ٥٩٦ - ٦٥٦م].. وفرس جهاده.. وتزرع حقله.. وتقاتل معه في الغزوات.. وتحافظ علي مشاعره وغيرته الشديدة!.. وتترين بالحشمة التي لا تكشف ولا تشف ولا تصف.. وتربي ولدها عبد الله بن الزبير [١- ٥٧٣ / ٦٢٢ - ٦٩٢م] علي بطولة الفداء والاستشهاد.. وتسهم معه، بالشورى في أحداث ثورته الكبرى.. وتبصدي لطفيان الحجاج بن يوسف الثقفي [٤٠ - ٩٥هـ / ٦٦٠ - ٧١٤م] علي النحو الذي غدا مضرب الأمثال في تاريخ الأبطال والبطولات.

(١) خديجة بنت خويلد المثل الأعلى لنساء العالمين. مرجع سابق.

(٢) صحيح الترمذى، أبواب المناقب. فضل عائشة (رضي الله عنها) ٢٥٧/١٣.

- وكم من النساء مثل السيدة نسيبة بنت كعب الأنصارية - أم عمارة - [١٣هـ / ٦٣٤م] المشاركة في تأسيس الدولة.. وفي بيعة الرضوان - بيعة القتال - تحت الشجرة، عام الحديبية [٦هـ / ٦٢٨م].. والتي نهضت في ساحات المعارك القتالية بما قصر عنه كثير من الرجال!

- وكم من النساء مثل السيدة أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية [٣٠هـ / ٦٥٠م] خطيبة النساء، التي تهرأ أعواد المنابر.. ووافدة النساء إلى رسول الله ﷺ للمطالبة بحقوق من خلفها من نساء المؤمنين (١).

- وكم من النساء مثل الشاعرة الخنساء التي لم تستطع أن تتحمل صدمة مقتل أخويها، أيام الجاهلية وهي في عمر الشباب، زودها الإسلام بالقدره على التضحية والفداء بأبنائها في سبيل الإسلام. لقد حملت أبنائها الأربعة وهم في ريعان الشباب، على المشاركة في حرب القادسية، حيث استشهدوا بعد خوضهم معاركها الضارية. وقد تلقت نبأ استشهادهم بما يليق بعظمة الرسالة التي تؤمن بها، فقالت: "الحمد لله الذي شرفني بقتلهم" (٢). وهي في سن أحوج ما تكون فيه إلى عون أبنائها.. وأقول لهم: كم من نساء العصر الحديث أنجن رجالاً عظماء، برعوا في فنون الفروسية والفلك والطب والرياضيات، والفقه وأصول الدين، وباعوا أنفسهم لله، وأخذوا يجوبون الأرض إعلاءً لرأية الحق، وتحرير البشرية مما تكابده من عبودية الأهواء والأطماع، ونشراً لتعاليم ومبادئ سامية، وعلماً يقينياً خالياً من الشرك والبدع، وتحرير العقول من أسر الجهالة والضلالة. والوقوف تجاه القضايا العالمية، موقفاً عادلاً، مبنياً على أسس متينة من العدالة والحرية والمساواة. حين خرج الإمام البخاري لطلب العلم، في الرابعة عشرة من عمره كان قد اكتسب كفاءة تعليمية، مكنته من التزود بمزيد من العلم والمعرفة، عن كبار العلماء في عصره، وذلك بفضل التوجيه والتعليم، الذي تلقاه في مستقبل عمره على أيدي والدته وشقيقته. ويذكر أن الإمام ابن الجوزي تلقى تعليمه الابتدائي على يدي عمته.

- إلى آخر نماذج النخبة والصفوة التي تربت في مدرسة النبوة، والتي زاد عددهن عن ألف امرأة، أطلق التحرير الإسلامي طاقتهن وملكاتهن في أقل من ربع قرن، هو عمر البعثة النبوية.. وعشر سنوات هي عمر دولة الرسول ﷺ في المدينة المنورة (٣).

(١) تحرير المرأة في عصر الرسالة. عبد الحليم أبو شقة. دار القلم للنشر والتوزيع - الكويت.

(٢) الزركلي. الأعلام. ط: ٤ (بيروت ١٩٧٩) ٨٦/٢.

(٣) تحرير المرأة في عصر الرسالة. مرجع سابق.

هؤلاء هن النساء المسلمات حقاً، اللاتي يفخرن بانتمائهن للإسلام ويفخر الإسلام بانتمائهن إليه. وعلى أيديهن تربت أجيال، عرفت معنى النبل والتضحية والإيثار، والجهاد دفاعاً عن الأرض والشرف والكرامة. أجيال رفعت راية الإسلام عالية خفاقة، على أكبر أمة وأعظم حضارة شهدتها التاريخ. أجيال لقنت البشرية أجمل المعاني، وأخذت بيدها إلى مدارج الروح والنور والحق، أجيال أرست معالم الحضارة الحقيقية.

- ولن نكون بعيدين عن الحقيقة إذا قلنا إن ما تتمتع به المرأة من حرية في العالم أجمع تدين بفضل الإسلام؛ حيث امتدت أنواره لتخرج أوروبا من عصور الظلام بفضل مبادئه العظيمة عن طريق جامعات قرطبة وصقلية وكريت. وكانت المرأة في أوروبا وقتها تتمنى من أعماق قلبها أن تحصل على ما حصلت عليه المرأة المسلمة من حقوق وحريات تسبق عصرها (١). إنني كلما أطلع على جانب من عطمة النساء المسلمات، وجهادهن في مناصرة دعوة الإسلام، بالقلب والروح والعقل والمال والأبناء، وكل غال ونفيس، أشعر بعظمة ذلك الدين القيم في تربية النفوس، على أروع المبادئ وأسمى القيم، وأقول بيني وبين نفسي: "يا ليتني كنت معهن فأفوز فوزاً عظيماً، أو يا ليتني أحذو حذوهن فأنال نصيباً من رفعتهم وحریتهم، التي تشرب لها الأعناق، وتطمح إليها النفوس".

- ولكي نتعرف على مزيد من عظمة الإسلام في تحرير المرأة والارتقاء بها نحاول أن نلقي نظرة سريعة على مكانة المرأة قبل الإسلام؛ لنعرف فضل هذا الدين على البشرية جمعاء.

مكانة المرأة قبل ظهور الإسلام:

لا يخفى على أى إنسان منصف يتحرى الحقيقة، تلك المكانة الهابطة التي كانت تحتلها المرأة قبل ظهور الإسلام، والمعاملة المهينة التي عوملت بها، حتى صارت عرفاً سائداً، وقدرراً مقدوراً على النساء، يرزحن تحت وطأته، ويكاد يزهدن أنفسهن، ويذهب بالبقية الباقية من كرامتهن. وقد كتب الباحثون في ذلك الكثير، ولمن أراد التوسع عليه الرجوع إليهم في هذا الشأن (٢). ولكننا سنكتفي بلمحة سريعة، تعييناً في توضيح مرادنا، من الدور العظيم

(١) شمس الإسلام تسطع على الغرب. زغريد هونقة. ط دار الشروق.

(٢) المرأة المسلمة بين حقيقة الشريعة وزيف الأباطيل. د. هاشم السعيد شريف. دار المعرفة الجامعية. المرأة في التصور الإسلامى. عبد المتعال محمد الجبرى. مكتبة وهبة. المرأة المصرية بين الماضى والحاضر. أحمد طه محمد. مطبعة دار التأليف. المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية. (وحيد الدين خان) المفكر الهندي الكبير. دار الصحوة للنشر.

الذي قام به الإسلام، في تحرير المرأة من قيود الذل والهوان التي كبلتها، وأخذ بيدها نحو مدارج العزة والكرامة، لتحل المكانة اللائقة بها في بناء المجتمع الإسلامي، وتحقيق رقيه وتقدمه. وإذا كان بعض الكتاب الحاقدين على الإسلام، يتهمون به بأنه انتقص مكانة المرأة، فإن هذا ولا شك يدل: إما على جهلهم العميق بشريعة الإسلام؛ وإما حقدهم الدفين على ذلك الدين القيم، الذي حرر البشرية جمعاء، وأثار بصيرتها بتعاليم ومبادئ، ما كان يخطر ببالها أن تمارسها حقيقة واقعة، إبان الفتوحات الإسلامية، حتى صارت واقعاً حياً ينبض في نسيج الشعوب، فيحولها طاقة دافعة نحو التنمية، واكتشاف أسرار الله في الكون.

فإذا كان سبب اتهامهم للإسلام هو الجهل، فنحن سنحاول بعون الله توضيح ما جهلوه، تكملة لمسيرة من سبقونا على درب الإيمان، لإرساء معالم الحق. أما إذا كان سبب اتهامهم هو الحقد، فهذا ما لا حيلة لنا فيه؛ لأنه قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفى صدورهم أكبر، ولن يرضوا عنا حتى نتبع ملتهم، ونسقط معهم في هاوية الشقاء، نتيجة البعد عن جنب الله، وعن منهج رسوله الحبيب، الذي أرسله رحمة للعالمين، يهديهم إلى الصراط المستقيم، إلى منهاج الله القويم.

فلنلق نظرة على حال المرأة قبل ظهور الإسلام، لنعرف فضل الله العظيم علينا؛ لأنه بضدها تتبين الأشياء. ولنعرف كيف جاهد سيدنا محمد ﷺ، ليعلى شأن الإنسانية عامة، والمرأة خاصة. تقول دائرة المعارف البريطانية^(١): كان وضع المرأة في "أثينا" قد تدهور، لدرجة أنها أصبحت بمثابة أمة تلد الأولاد لسيدها. وكان يتم حجز الزوجات داخل بيوتهن، ولم يكن يحصلن على قدر من التعليم، كما لم تكن هن أية حقوق، ولم يكن أزواجهن يعتبروهن أفضل من أثاث البيت. وتمضى دائرة المعارف البريطانية تقول: كان الوضع القانوني للمرأة في روما القديمة، هو وضع الحكومية الكاملة للرجل، فكانت خاضعة أولاً لسلطة أبيها أو أخيها، ثم لسلطة زوجها الذي كان يتمتع بسلطات الأبوة عليها، وكان القانون يعتبر المرأة معتوهة. ولم تبادر المسيحية إلى اتخاذ أية خطوة لتحسين أوضاع المرأة. فعلى كل المستويات وحتى في مجال الواجبات الدينية، عوملت المرأة على أساس أنها كائن أدنى. ويقول بولس الرسول في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس: "لهذا ينبغي للمرأة أن يكون لها سلطان على رأسها من أجل الملائكة"^(٢).

(١) دائرة المعارف البريطانية ١٩/٩٠٩.

(٢) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس. الإصحاح ١١، الفقرة ١٠.

وكذلك تبنت المسيحية معتقداً خاطئاً يقول: إن المرأة مسئولة عن إخراج آدم من الجنة. وكما تقول دائرة المعارف البريطانية: "الديانة المسيحية تنظر إلى المرأة كمُغوية، ومسئولة عن خروج آدم من الجنة، وكائن بشري من الدرجة الثانية".

أما في شريعة اليهود: تعتبر المرأة في منزلة الخادم عند بعض فرق اليهود، وتحرم الأنثى من الميراث، سواء كانت أمّاً أو زوجة، إذا ما كان للميت ذكور. وهذا موجود في الإصحاح ٢١ من سفر التكوين.

وقوانين الأحوال الشخصية للإسرائيليين تقول: إذا توفي الزوج ولا ذكور له، تصح أرملته زوجة لشقيق زوجها، أو لأخيه من أبيه، ولا تحل لغيره إلا إذا تبرأ منها، ورفض الزواج بها.

وفي القانون الصيني: كانت القاعدة أن النساء لا قيمة لهن، ويجب أن يعطين أحقر الأعمال.

وفي القوانين الهندية: لا يحق للمرأة في أية مرحلة من مراحل حياتها، أن تجرى أي أمر وفق مشيئتها ورغبتها، وأن المرأة في مراحل طفولتها تتبع والدها، وفي مراحل شبابه تتبع زوجها، فإذا مات الزوج تبعت أولادها. وفي عقيدة سانتى: يجب على كل زوجة يموت زوجها أن يحرق جسدها على مقربة من جسد زوجها المحروق، ومن لم تفعل أذله الشعب إذلالاً، يجعل الموت أهون وأكثر راحة لها من الحياة.

وكتب الفيلسوف الإنجليزي (هيربرت سبنسر) في كتابه علم الاجتماع: إن الرجال كانوا يبيعون الزوجات في إنجلترا فيما بين القرن الخامس والقرن الحادي عشر الميلادي. لقد وضعت محاكم الكنيسة قانوناً، يعطى الزوج الحق في أن يعطى زوجته لرجل آخر لمدة محددة، بأجر أو بغير أجر. وظل هذا القانون مطبقاً حتى ألغى. ولم يكن للمرأة في أوروبا حتى فترة قريبة حق الحضور أمام القضاء، أو حق إبرام العقود، ولا تملك البيع أو الهبة، بغير مشاركة زوجها في العقد بموافقة مكتوبة (١).

إذا كان هذا هو حال المرأة قبل ظهور الإسلام، فكيف يتهمون الإسلام بأنه أزرى بمكانة المرأة؟! سبحانك ما هذا إلا بهتان عظيم. إنه لم يُطرح للمرأة شيء من الحقوق - في غير المجال الإسلامي - إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، بعد أن توسعت النهضة الصناعية في أوروبا، فأوجدت - مع توسعها - أسلوباً جديداً للحياة، اضطر المرأة إلى أن

(١) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية. وحيد الدين خان. دار الصحوة للنشر.

تخرج للعمل في المصانع والشركات والمعامل. فكانت الحاجة إلى عملها أعظم ضاغط على الرجل، جعلتها تفتح فيها بالمطالب، وتقاضيه بما أسمته "حقوقاً للمرأة".

هذا في الوقت الذي كانت تتمتع فيه المرأة المسلمة بالتكريم الإلهي: حيث كان لها مهر يدفعه الزوج، بعكس الأوروبية التي كانت تدفع لزوجها (الدوطة). وكانت المسلمة تملك وترث وتتصرف في مالها، وتبرز في غزوات الإسلام، وفي معترك المعرفة: تبدو محدثة وناقدة وشاعرة. وهذا لا يتأتى إلا في إطار كبير من الحرية، نعمت به المرأة لأول مرة في وجودها مع بزوغ فجر الإسلام (١).

ولكن عندما فرطنا في معتقداتنا، وغابت عنا شمس الشريعة الإسلامية، التي أنارت حياتنا، تعرضنا للغزو الاستعماري الغربي، الذي لم يقتصر على تحطيم المجتمعات الإسلامية سياسياً واقتصادياً، بل اتجه إلى عمليات التمزيق الفكري والاجتماعي، ومن بينها: إظهار سمو النظم الغربية، والانبهار بالحضارة الحديثة والمفاهيم الزائفة، فنسب المستعمر إلى الغرب "احترام المرأة"، وإلى الإسلام "احتقار المرأة" وتضييع حقوقها.

إنصاف الإسلام من أهل الحقيقة في الغرب:

إذا كان هناك من انساق وراء تلك الأكاذيب، حتى من أهل الإسلام أنفسهم، فإن للحقيقة رجالاً، مهمتهم تقصى الحقائق، بُعداً عن الزيف وأهواء النفس، والله قادر على نصرة دينه، وإظهار شمس الشريعة واضحة جليلة، حتى أنه سخر أقلاماً غربية، أنصفت الحق بعيداً عن التعصب الممقوت:

— تقول "لورا فيشيفا غليري" في كتابها "دفاع عن الإسلام": "إذا كانت المرأة قد بلغت من وجهة النظر الاجتماعية في أوروبا مكانة رفيعة، فإن مركزها — شرعياً على الأقل — كان حتى سنوات قليلة جداً، ولا يزال في بعض البلدان، أقل استقلالاً من المرأة المسلمة، في العالم الإسلامي" (٢).

— وقال فولتير في (مقالة القرآن) في معجم الفلسفة: "لقد نسبنا إلى القرآن كثيراً من السخافات، وهو في الحقيقة خال منها. إن مؤلفينا الذين كثروا كثرة الانكشارية، يجدون من السهل أن يجعلوا نساءنا من حزبهم، بواسطة إقناعهم أن محمداً اعتبرهن حيوانات ذات

(١) المرأة في التصور الإسلامي — عبد المتعال محمد الجبري — مكتبة وهبة ص ١٣٨.

(٢) فيشيفا غليري "دفاع عن الإسلام" ص ١٠٦.

ذكاء، وأنهن في نظر الشريعة بمثابة الأرقاء، لا يملكن شيئاً من دنياهن، ولا نصيب لهن في آخرهن.. وبديهي أن هذا الكلام باطل، ومع ذلك فقد كان الناس يصدقونه".

– وقالت جريدة "المونيتور الفرنسية": كما نقلته مجلة الأزهر في المجلد الحادي عشر ٣١٥: "وقد أوجد الإسلام إصلاحاً عظيماً، في حالة المرأة في الهيئة الاجتماعية. ومما يجب التنويه به: أن الحقوق الشرعية التي منحها الإسلام للمرأة، تفوق كثيراً الحقوق الممنوحة للمرأة الفرنسية" (١).

– وفيما يلي فقرات متفرقة من كتاب "حضارة العرب" لغوستاف لوبون: "ومبادئ المواريث التي نص عليها القرآن، على جانب عظيم من العدل والإنصاف، ويمكن للقارئ أن يدرك ذلك من الآيات التي أنقلها منه، وأن أشير فيها بدرجة الكفاية إلى أحكامها العامة، ويظهر من مقابلي بينها وبين الحقوق الفرنسية والإنجليزية، أن الشريعة الإسلامية منحت الزوجات اللاتي يُزعم أن المسلمين لا يعاشروهن بالمعروف، حقوقاً في المواريث لا نجد مثلها في قوانيننا".

"وإذا أردنا أن نعلم درجة تأثير القرآن في أمر النساء، وجب علينا أن ننظر إليهن أيام ازدهار حضارة العرب، فقد ظهر مما قصه المؤرخون أنه كان لهن من الشأن، ما اتفق لأخواتهن حديثاً في أوروبا، وذلك حين انتشار فروسية عرب الأندلس وظرفهم".

"وقد ذكرنا – في فصل سابق – أن الأوروبيين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسية، وما اقتضته من احترام المرأة. فالإسلام – إذن – لا النصرانية، هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه، وذلك خلافاً للاعتقاد الشائع.. فإذا نظرت إلى أمراء النصارى الإقطاعيين، في القرون الوسطى، رأيتم لم يحملوا شيئاً من الحرمة للنساء".

"ومن الأدلة على أهمية النساء أيام حضارة العرب: كثرة من اشتهر منهن بمعارفهن العلمية والأدبية، فقد ذاع صيت عدد غير قليل منهن، في العصر العباسي في المشرق، والعصر الأموي في أسبانيا".

"ثم نقل عن مؤرخي عبد الرحمن الثالث قولهم: إن ذلك الزمن الذي كان فيه للعلم والأدب شأن عظيم ببلاد الأندلس، كن محبات للدرس في خدورهن، وكانت الكثيرات منهن يتميزن بدمائتهن ومعارفهن".

(١) نقلا عن كتاب المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية. مرجع سابق.

"وهنا نستطيع أن نكرر إذن قولنا: إن الإسلام الذي رفع المرأة كثيراً، بعيد من خفضها، ولم تكن أول من دافع عن هذا الرأي، فقد سبقنا إلى مثله "كوسان دوبرسفال" ثم مسيو "بارتلمى سنت هيلر".

"لم يقتصر فضل الإسلام على رفع شأن المرأة، بل نضيف إلى هذا أنه أول دين فعل ذلك، ويسهل إثبات هذا ببياننا أن جميع الأديان، والأمم التي جاءت قبل العرب، أساءت إلى المرأة".

"فمما تقدم يثبت أن نقصان شأنهن حدث خلافاً للقرآن، لا بسبب القرآن على كل حال". انتهى ما اخترناه من كلام غوستاف لوبون (١).

- مظاهر تكريم الإسلام للمرأة:

إن مظاهر تكريم الإسلام للمرأة سوف نستعرضه بتوسع أكبر في الأبواب القادمة، ونوجزه هنا فيما يلي:

- رفض الإسلام موقف المشركين وتبلد مشاعرهم، وعدم تفهمهم لدور المرأة في الحياة، وكونها أصيلة في نظام الحياة أصالة الذكر، بل هي المستقر له، فهي أشد أصالة لبقاء الأسرة، ولذلك نظر إليها الإسلام على أنها هدية من الله، وقدم القرآن ذكرها على الذكور، قال تعالى: (يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ) (الشورى: ٤٩).
- لقد وضع الإسلام المرأة على بساط الاحترام والتكريم والمودة، بما يهيئ المجتمع نفسياً ليستقبل كل وليدة بمصدر مطمئن ونفس راضية وثقة في عون الله، قال تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ لَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) (الإسراء: ٣١).
- كما كرم الإسلام المرأة وهي في مرحلة الشباب، فمنحها أهلية التعبير عن إرادتها في أخص شئون حياتها، وهو تكوين بيتها واختيار زوجها، قال: " لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن)، قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: " أن تسكت " (٢).

(١) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية. مرجع سابق.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب النكاح (١٤١٩).

- وجعل الإسلام للمرأة كيأنا متفرداً، ومنحها العديد من الحقوق كحرية التملك على قدم المساواة مع الرجل، قال تعالى: (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ) (النساء: ٧).

- واحترم الإسلام هذه الملكية وعززها بمنح المرأة حرية التصرف فيها، قال تعالى: (وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا) (النساء: ٤).

- وساوى القرآن بينها وبين الرجل أمام القانون في الحقوق والواجبات؛ كحق إبرام العقود وتحمل الالتزامات، وحق الدفاع عن حقوقها أمام القضاء (١). فقال تعالى: (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ) (البقرة: ٢٢٨).

إن حقوق المرأة التي منحها لها الإسلام سواء على مستوى الأسرة أو مستوى الدولة، يجعل المرأة المسلمة تزهر بها على قريناتها في العالم أجمع. وعلى مدار العصور كلها، وهذا ما سنبينه خلال البحث.

هذا هو الإسلام الذي يتهمونه بعداء المرأة، رغم أن مبادئه الراسخة تعتبر أجراس دقت في أذن التاريخ لحركة تحرر المرأة المسلمة، ومنارات هدى على طريق الحق والكرامة. فمعرفة شريعة الإسلام حق معرفتها، هي خير السبل، لتحقيق المرأة كل ما تصبو إليه من مبادئ نبيلة، وغايات شريفة سامية.

(١) المرأة المسلمة بين حقيقة الشريعة وزيف الأباطيل. د هاشم السعيد شريف. دار المعرفة الجامعية.

الفصل الثاني

المراة وفعاليتها في الحياة نبعاً من مبادئ الشريعة

لقد حرص الإسلام على أن تكون المرأة ذات دور فعال في المجتمع، فجعل لها دوراً مهماً يتناسب مع طاقاتها التي زودها الله بها، والتي تؤدي في النهاية إلى تحقيق مبدأ الاستخلاف في الأرض، فإذا كان بعض فقهاء الإسلام يرون أن ميدان المرأة هو البيت ورعايته وهيئته وإعداد أجيال واعدة ترفع من شأن الإسلام، وأن ميدان الرجل هو السعي في الكون الواسع المليء بالتقلبات والصراعات والمشكلات التي يستطيع مجاهاتها. فليس معنى الأمر باستقرار المرأة في بيتها وترغيبها فيه أنه يحرم عليها أن يكون لها دور فعال في المجتمع يتناسب مع إنسانيتها كإنسان تشرب مبادئ الإيمان، وعليه أن يطبقها واقعا حياً في الحياة؛ لذلك فإن الشريعة فتحت المجال واسعاً لانطلاق المرأة في بناء الأمة بفاعلية وشوق لتعبئة الجهد الإنساني ذكراً كان أو أنثى؛ لتوفير عناصر القوة المطلوبة لأمة الإسلام.

مرونة الإسلام نحو فاعلية المرأة في المجتمع:

إن تلك المرونة تجل عن الوصف والحصص؛ فهي تتوقف على طاقات المرأة، وعلى احتياجات المجتمع؛ حيث دارت الشريعة مع المرأة حسب قدراتها وطاقاتها المعنوية والجسدية، فإن كانت المرأة تميل إلى الاستقرار في المنزل لرعاية زوجها وأبنائها؛ فالشريعة توافقها على ذلك وتعظم لها الدرجات. وإن كانت طاقاتها وميولها كبيرة جداً لدرجة أنها تستطيع الجمع بين مسئولية الأسرة ومسئولية مباشرة الأنشطة الاجتماعية؛ فالشريعة لا تمنعها من ذلك، ودرجاتها الأخروية حسب نياتها في ممارسة تلك الأنشطة، ومدى رغبتها في إعلاء كلمة الحق في كل الميادين التي تسعى إليها، قال تعالى: (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً) (الاسراء: ١٩) وقال تعالى: (وَمَنْ يُرِذْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِذْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ) (آل عمران: ١٤٥)

فهذه عدالة إلهية مطلقة، ومرونة في التشريعات لا ترتقي إليها أية قوانين أخرى. ونعرض لحة سريعة من أقوال الفقهاء في هذا الشأن، يقول د يوسف القرصاوي:

— إن عمل المرأة في بيتها له من الأهمية أكثر من عملها خارجه وإن واجب الأمة أن تعلم المرأة الطرق المثلى في تدبير شئون بيتها ورعاية أسرتها والقيام بواجبات أولادها، وهذا بالطبع لا يمنعها من المشاركة في الحياة الاجتماعية والمساعدة في إدارة الحياة

السياسية في مجتمعها، فلها حق تولي الوظائف العامة وترشيح نفسها، وأن تكون عضوا في المجالس النيابية والتشريعية، وتتقلد منصب الوزارة والمحافظ وغيرها من المناصب التنفيذية والإدارية والسياسية، دون أية قيود أو تمييز بينها وبين الرجال فهناك أكثر من امرأة رشحت نفسها لرئاسة الدولة في مصر، بل وهناك بالفعل نسوة تولين رئاسة الدولة في بعض دول شرق آسيا الإسلامية، كما كان هناك ملكة تدعى أروى تحكم اليمن في ظل الإسلام، وكانت شجرة الدر تحكم مصر إلى غير ذلك بشرط ألا يعطل ذلك عملها الأساس الذي هيأها الله له وهو الأمومة^(١).

ويقول د علي وافي: إن الإسلام يسمح للمرأة بتولي الوظائف العامة دون الولايات العامة، ويحفظ لها بشخصيتها المدنية كاملة وبأهليتها في تحمل الالتزامات وعقد جميع العقود من بيع وشراء وهبة وخلافه، فشخصية المرأة منفصلة ومتميزة عن شخصية الرجل. سواء أكان هذا الرجل أبا أو أخا أو زوجا فللمرأة أن تكسب من عملها سواء أكان عملا تجاريا أو وظيفة عامة، يقول الله سبحانه وتعالى: (لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) (النساء: ٣٢).

إذا كان الإسلام قد منح المرأة كل حقوقها، فإن واجبها أن تحسن استخدام هذا الحق، وعدم المغالاة فيه. فعليها إذا نزلت إلى ميدان العمل أن تؤدي عملها في حشمة ووقار... إذ عليها أن تستر جميع أجزاء جسمها عدا وجهها وكفيها^(٢). ولقد بينت السنة النبوية كيف حافظ الإسلام على كرامة المرأة وعفتها ونقاها ودفعها إلى الارتقاء الروحي فأمر بالآلأ نجدهن في العمل، أو أن نأمرهن بأعمال لا يستطعن أن يعملنها حفاظا على كرامتهن:

- فعن سهيل بن مالك عن أبيه أنه سمع عثمان بن عفان يقول في خطبته: لا تكلفوا الصغير الكسب فإنه متى كلفتموه الكسب سرق، ولا تكلفوا الأمة غير ذات الصنعة الكسب، فإنكم إن كلفتموها الكسب كسبت بفرجها، وعفوا إذا عفكم الله، وعليكم من المطاعم بما طاب منها^(٣).

(١) د. يوسف القرضاوي: من فقه الدولة في الإسلام - دار الشروق.

(٢) حقوق الإنسان في الإسلام. للدكتور علي عبد الواحد وافي. دار المعارف - مصر.

(٣) حديث حسن الإسناد - أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب الجمع (١٨٣٨).

وعلى هؤلاء الذين يروجون الأباطيل ضد الإسلام متخذين من حقوق المرأة مركزاً لهجومهم أن ينظروا إلى طبيعة كل منهما أولاً. وليعلموا ثانياً أن المرأة والرجل شيء واحد لا يفصل، ولكل منهما دوره في الحياة والواجب عليه أن يحسن القيام به؛ فالرجل بطبيعته لا يمكنه أن يحمل ويلد ويربي الأولاد؛ لأن ذلك من شأن النساء وحدهن. وكذا المرأة لا نطلب منها ما هو فوق طاقتها وإلا نكون قد ظلمناها ونحن نظن أننا نحسن بها صنعا.

وسوف نعرض بتفصيل أكبر المجالات الواسعة التي فتحتها الإسلام لتقوم المرأة بدور فعال في المجتمع في الباب الرابع.

مجالات مشاركة المرأة في المجتمع:

ولقد وضحت لنا السنة النبوية ما يمكن أن تقوم به المرأة من مشاركة فعالة في المجتمع سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، ولقد تحدث الهدي القرآني عن دائرتين من دوائر المشاركة والاشتراك والارتقاء بين الذكور والإناث:

الأولى: هي دائرة الأسرة، التي هي اللبنة الأولى في بناء الأمة، والخلية التي يبدأ بها المجتمع الإنساني، وعن علاقة المشاركة والاشتراك والارتقاء في هذه الدائرة تحدث القرآن الكريم عن الميثاق الغليظ والفطري الذي يربط بين الزوجين (وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) (النساء: ٢١).. وكيف أن الزوجة هي السكن والسكينة لزوجها، القائمة علاقتها به على المودة والرحمة (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الروم: ٢١). وعن أن كل واحد هو لباس للآخر (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لِهِنَّ) (البقرة: ١٨٧).

وعن قيام الأسرة على المجتمع الشورى، الذي يرتفق فيه أعضاؤه كل واحد على الآخر (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بَوْلَدهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلَدهَا وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (البقرة: ٢٣٣).

كما تحدث القرآن الكريم عن التماثل بين الزوج والزوجة في الحقوق والواجبات (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (البقرة: ٢٢٨).

ويشهد على أن هذه الآية: إنما تتحدث عن الاشتراك والمشاركة والارتقاء في دائرة الأسرة، سياقها القرآني، فلقد جاءت ضمن سبع عشرة آية تتحدث كلها عن شئون الأسرة وأحكامها من الآية: ٢٢١ حتى الآية: ٢٣٧ تتحدث عن الخطوبة، والنكاح (الزواج)، والمعاشرة والمباشرة، والإيلاء (هجران الزوج لزوجته)، والطلاق والعدة، والمتعة.. إلخ^(١).

والمماثلة التي تتحدث عنها هذه الآية، ليست بين الذكر والأنثى، ذلك أن الفطرة الإلهية قد مايزت بينهما (وَأَيُّسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى) (آل عمران: ٣٦). وإنما هي المماثلة في الحقوق والواجبات بين الزوجين في دائرة المجتمع الأسري، على النحو الذي يجعل هذه الحقوق والواجبات بالاشتراك كلا واحداً.. من هنا كان قول عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، في تفسير هذه المماثلة: إني أحب أن أترين للمرأة (الزوجة) كما أحب أن تتزين لي، لهذه الآية^(٢).

فلاشتراك والمشاركة، والإسهام والمساهمة، والتفاعل والمفاعلة عامة وشاملة في كل ميادين الحياة الأسرية، التي تجعل الرجل لباساً لزوجته والزوجة لباساً لزوجها.. ولذلك كان الأولى والأوجه في تفسير الدرجة التي للرجال على النساء في المشاركات الأسرية هي درجة الإنفاق، التي هي مع الطبيعة المميزة للرجولة جماع المؤهل الفطري للقوامة والقيادة لسفينة الأسرة ومجتمعها.

وعندما تكون المماثلة في المشاركة بالحقوق والواجبات، وليست بين الأنوثة والذكورة، فإنها تحقق مساواة التكامل بين الذكر والأنثى، على النحو الذي لا يطمس التمايز الفطري بين الذكورة والأنوثة، والذي هو سر شوق كل شق إلى الشق الآخر، والسبب الأول في سعادة كل نوع بما يتميز به ويمتاز النوع الثاني.. فهي مماثلة الشقين المتكاملين، لا الندين المتطابقين.

(١) شبهات وإجابات حول مكانة المرأة في الإسلام. د محمد عمارة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سلسلة دراسات إسلامية. العدد ٧٣.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧ / ٢٩٥) ولفظه: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إني لأحب أن أترين للمرأة كما أحب أن تتزين لي؛ لأن الله عز وجل يقول { وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ } وما أحب أن تستطف جميع حق لي عليها؛ لأن الله عز وجل يقول { وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ }.

وأيضاً فإنها ليست المماثلة المادية ولا العددية في الحقوق والواجبات، وإنما مماثلة الاشتراك في النهوض برسالة الاجتماع الأسري، وفق المؤهلات الفطرية، التي تُمايز ما بين الإسهامات، لكن في ذات الإطار.

وتراعي التنوع في إطار ذات التكاليف، وفي درجات ذات الصفات والملكات. وهو تنوع قائم بين النوعين الذكر والأنثى وليس بين كل فرد وآخر من أفراد النوعين^(١).

وعن هذه الحقيقة من حقائق تنوع التكامل و تكامل التنوع بين المرأة والرجل، جاء حديث رسول الله ﷺ الذي تحدث فيه عن الرعاية والقيادة.. والقوامة باعتبارها حقاً وتكليفاً لكل الرجال ولكل النساء، تتفاوت فيها الميادين، وتنوع المسؤوليات، وفق الفطرة والكفاءة التي وهبها الله لكل منهما: فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "كلكم راع وكل من راع مسؤول عن رعيته"، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيته، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته قال: فسمعت هؤلاء من رسول الله ﷺ وأحسب النبي ﷺ قال: والرجل في مال أبيه راع وهو مسؤول عن رعيته؛ فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته^(٢).

وتتضح أسس المشاركة الوجدانية بين الزوجين فيما ورد عن علي بن أبي طالب وزوجته فاطمة الزهراء:

- فعن أبي مريم قال سمعت علي بن أبي طالب يقول: إن فاطمة كانت تدق الدرمك بين حجرين حتى مجلت يداها فقلت لها: اتقي رسول الله ﷺ فسلية خادماً! ففعلت ذلك لليلة أو ليلتين، فلما رجع رسول الله ﷺ إلى بيته أخبر أن فاطمة أتته لحاجة فلما أبطأ عليها رجعت إلى بيتها، فأتانا رسول الله ﷺ وقد دخلنا فراشنا، فلما استأذن علينا تحشحنا لنلبس علينا ثيابنا، فلما سمع ذلك قال: كما أنتما في لحافكما! فدخل علينا حتى جلس عند رؤوسنا وأدخل رجله بيني وبينها فقال: حدثت أن ابنتي أتتني لحاجة لها، ما كانت حاجتك يا بنية - أو: ما كانت حاجتك يا بنتي؟ فاستحييت فاطمة أن تكلمه على تلك

(١) شبهات وإجابات حول مكانة المرأة في الإسلام. د محمد عمارة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سلسلة دراسات إسلامية. العدد ٧٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الخصومات، باب العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه (٢٢٧٨) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:... به، ومسلم في كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش (١٨١٨) بإسناده.

الحال، وأجاب علي عنها بعد ما سألهما مرتين أو ثلاثا فقال: أتتكم يا رسول الله لأهكما كانت مجلت يدها من دق الدرملك فأتتكم تسأل خادما، فقال: "ما يدوم لكمما أحب إليكما أو ما سألتما؟" قالا: "ما يدوم إلينا، قال: فإذا أويتما إلى فراشكما فسيحبا ثلاثا وثلاثين، وكبرا ثلاثا وثلاثين، واحدا أربعا وثلاثين، فذاكم مائة، فهو خير لكمما مما سألتماي"^(١).

- وعن علي بن أعبد قال: قال لي علي: ألا أحدثك عني وعن فاطمة بنت رسول الله ﷺ وكانت من أحب أهله إليه؟ قلت: بلى، قال: إنها جرت بالرحى حتى أثر في يدها واستقت بالقربة حتى أثر في نحرها، وكنت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت القدر حتى دكنت ثيابها وأصابها من ذلك ضرر، فأتى النبي خدام، فقلت: لو أتيت أباك فسألتيه خادما! فأتته فوجدت عنده حدائا فرجعت، فأتاها من الغد فقال: ما كانت حاجتك؟ فسكت، فقلت: أحدثك يا رسول الله ﷺ! جرت بالرحى حتى أثر في يدها، وحملت بالقربة حتى أثرت في نحرها، فلما جاءك الخدم أمرتها أن تأتيك فتستخدمك خادما يقيها حر ما هي فيه! قال: اتقي الله يا فاطمة! وأدي فريضة ربك، واعلمي عمل أهلك، وإن أخذت مضجعك فسبحي ثلاثا وثلاثين، واحمدي ثلاثا وثلاثين، وكبري أربعا وثلاثين؛ فتلك مائة فهي خير لك من خادم. فقالت: رضيت عن الله وعن رسوله، ولم يخدمهما^(٢). ومن هذين الحديثين يتبين لنا أن السيدة فاطمة رضي الله عنها قد ضربت لنساء المؤمنين على مدار الزمان المثل الأعلى في جهاد المرأة في منزلها ومشاركتها الرجل في تحمل أعباء الحياة بنفس راضية مطمئنة تشجيعا من الرسول الأمين ﷺ الذي يرسى أسس المعاملات في أمته على المدى الطويل بدون محاباة لأحد حتى لو كان هذا الأحد هو أعز المخلوقات إلى قلبه. ولقد وضع النبي ﷺ أن الحياة مشاركة بين الرجل والمرأة عندما قسم عمل كل واحد منهما:

- فعن ضمرة بن حبيب قال: قضى على ابنته فاطمة بخدمة البيت، وقضى على علي بما كان خارجا من البيت من الخدمة^(٣).

هذا عن دائرة الاشتراك والمشاركة والارتفاق بين الرجل والمرأة في دائرة الأسرة.

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري (١٢٤/١١) والدرملك: قال العلماء: معناه أهما في البياض درمكة وفي الطيب مسك، والدرملك هو الدقيق الحواري البياض. صحيح مسلم بتعليق محمد فؤاد عبد الباقي ٢٢٤٣/٤، والتحشيش: التحرك للنهوض. (انظر النهاية ٣١٨/١).

(٢) أخرجه أبو داود كتاب الخراج باب في بيان مواضع قسم الخمسة (٢٩٨٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٠ / ٦) بإسناده.

أما الدائرة الثانية: من دوائر الاشتراك والمشاركة بين الرجال والنساء، فهي دائرة الأمة والمجتمع.. أي دائرة المشاركة في العمل الاجتماعي العام.. ولما كان جماع العمل العام في الرؤية الإسلامية مندرجاً تحت فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي تشمل كل تكاليف وأحكام السياسة والمجتمع والاقتصاد والآداب العامة ومنظومة القيم والأخلاق والعادات والأعراف، فلقد شرع القرآن الكريم لمبدأ الاشتراك والمشاركة بين الرجال والنساء في كل هذه الميادين الاجتماعية عندما قال: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (التوبة: ٧١).

إن صورة الأمة الإسلامية والاجتماع - وهي الصورة الأكبر للأسرة المسلمة قد عبر عنها الحديث النبوي الشريف أصدق تعبير: فعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" (١).

ففي هذه الصورة تتفاوت المكونات الأعضاء والطاقات والملكات في الحجم والكفاءة والاحتياجات لكنها تتشارك وتتساند وترتفق جميعاً في النهوض بجميع التكاليف في جميع الميادين، فالمشاركة في العمل العام، أي في النهوض بالفرائض والتكاليف الاجتماعية الكفائية، التي يتوجه فيها الخطاب الإسلامي إلى الأمة أي إلى الرجال والنساء على السواء هي مشاركة عامة، مع تنوع درجات الإسهام في كل ميدان من ميادين هذا العمل العام، وفق المؤهلات والإمكانات الفطرية والمكتسبة للذكور والإناث.. إنها فرائض إلهية، على النساء والرجال، يؤدونها متناصرين (بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) كما هو الحال في دائرة الأسرة، التي هي الصورة المصغرة للمجتمع العام في الأمة الإسلامية.

فكل التكاليف العامة، المؤسسة للفرائض الاجتماعية الكفائية إنما هي في القرآن الكريم موجهة إلى الأمة، وإلى الجماعة المؤمنة، أي إلى النساء والرجال (٢).

دور المرأة في مواجهة الكوارث الاجتماعية:

إذا وقعت كارثة كوباء أو زلزال واقتضى الأمر إسهام الجميع فيه. وجب على المرأة أن تؤدي واجبها في هذا الميدان، وذلك كما قيل في وجوب الجهاد عليها إذا دهم العدو أرض المسلمين، كما خرجت السيدة عائشة وغيرها للمساعدة في غزوة أحد التي هجم

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاوضهم (٢٥٨٥) عن

أبي موسى قال رسول الله ﷺ: ... به.

(٢) تحرير المرأة في عصر الرسالة، مرجع سابق.

فيها الكفار على المدينة، وشارك في خدمة المقاتلين بما يناسبهن من أعمال كما رواه البخاري وغيره، وكذلك تخرج المرأة لمزاولة عمل من الأعمال لا يوجد من يقوم به من الرجال لدعوتهم مثلاً إلى الجهاد، الأمر الذي يترتب عليه خلو الأعمال الأساس ممن يقوم بها، وهنا يكون الدور على المرأة في سد هذا الفراغ^(١).

دور المرأة في المشاركة في العمل العام:

وإذا كان الإيمان بالإسلام هو باب الولوج إلى أمته وجماعته، فلقد ساءت الدعوة الإسلامية الأولى بين النساء والرجال عندما جعلت للمرأة بيعة مستقلة عن بيعة الرجل زوجها أو أبيها أو أخيها أو عمها (وليها).. تدخل بهذه البيعة المستقلة، إلى الإسلام وأمتها، مثلها في ذلك مثل الرجل سواء بسواء (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبئعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنین ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم) (المتحنة: ١٢). بل لقد نصت بيعة رسول الله ﷺ للنساء على فتح أبواب وآفاق إسهامات المرأة في العمل العام بقدر ما يضيف العلم والتعليم والتربية للمرأة من طاقات وإمكانات وملكات تكتسبها من هذه المكونات.. فتح الرسول ﷺ أمام النساء أبواب وآفاق المشاركة في العمل العام عندما جعل بيعتهن فيم استطعن وأطقن؛ فعن أميمة بنت رقيقة أنها قالت: أتيت النبي ﷺ في نسوة من الأنصار نبايعه فقلنا: يا رسول الله نبايعك على أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نأتي ببهتان نفترينه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيك في معروف، قال: "فيما استطعتن وأطقن. قالت: قلنا: الله ورسوله أرحم بنا، هلم نبايعك يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: إني لا أصافح النساء إنما قولي امرأة كقولي لامرأة واحدة، أو مثل قولي لامرأة واحدة"^(٢).

فكل ما تستطيعه المرأة وتطيقه فطرقاً وأنوثتها من العمل العام، بابه مفتوح أمامها، طالما لم يؤد ذلك إلى طمس للفطرة، أو مخالفة لثابت الدين.. وهي في هذه الضوابط، الموضوعية على المشاركة في العمل العام، تستوي مع الرجال الذين لا يجوز أن تطمس مشاركتهم في العمل العام فطرة الذكورة والرجولة، ولا أن تخالف ثوابت الدين (٣).

(١) شبهات وإجابات حول مكانة المرأة في الإسلام. د محمد عمارة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - سلسلة دراسات إسلامية. العدد ٧٣.

(٢) أخرجه النسائي في كتاب البيعة باب بيعة النساء (٤١٨١) عن أميمة بنت رقيقة أنها قالت: أتيت النبي ﷺ في نسوة من الأنصار نبايعه فقلنا: ... به.

(٣) شبهات وإجابات حول مكانة المرأة في الإسلام. د محمد عمارة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - سلسلة دراسات إسلامية. العدد ٧٣.

دور المرأة في المشاركة في العبادات وفعل الخيرات:

وضح النبي ﷺ كيف تفجر المرأة طاقاتها الكامنة في فعل الخيرات مثلها مثل الرجال، حيث دعا نساءه -تحفيزاً لكل النساء- إلى الإنفاق بقدر المستطاع لتحقيق التكافل المطلوب في الأمة: فعن فاطمة عن أسماء أن رسول الله ﷺ قال: "أنفقي ولا تحصي فيحصى الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك" (١)

- وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال لها: "يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة؛ فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان" (٢)

ووضح أنه يجوز للمرأة أن تنفق من مال زوجها دون علمه بشرط ألا يكون في إنفاقها مفسدة للمال: وعنهما رضي الله عنها قالت قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا أطعمت المرأة من بيت زوجها غير مفسدة، كان لها أجرها وله مثله وللخازن مثل ذلك له بما اكتسب ولها بما أنفقت" (٣). ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن النبي ﷺ أعطى المرأة من التمييز والمكانة السامية أن جعل لها إماماً يؤمها في الصلاة إذا لم تتمكن من الصلاة في المسجد الجامع، ونرى ذلك فيما روي عنه ﷺ: فعن عرفجة قال: كان علي بن أبي طالب يأمر الناس بقيام شهر رمضان، ويجعل للرجال إماماً، وللنساء إماماً قال عرفجة: فكنت أنا إمام النساء (٤)

كما ساوى الإسلام في الأجر على فعل الخير بين الرجال والنساء:

- عَنْ أَبِي نَجِيجٍ السُّلَمِيِّ قَالَ: حَاصِرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَصْرِ الطَّائِفِ قَالَ مُعَاذُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ بِقَصْرِ الطَّائِفِ، بِحَصْنِ الطَّائِفِ، كُلُّ ذَلِكَ فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَنْ بَلَغَ بِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَهُ دَرَجَةٌ"... وَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "أَيُّمَا رَجُلٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ رَجُلًا مُسْلِمًا؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَاعِلٌ وَقَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الهبة (٢٥٩١) عن أسماء... به، ومسلم في الزكاة (١٠٢٩)، والإمام أحمد في مسنده ١٦٠/٦، وابن كثير في البداية والنهاية ٤٣/٦.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٧٩/٦، والهيتمي في مجمع الزوائد (٣ / ١٠٥) بإسناده، وقال: رواه كله أحمد وروي البزار بعضه وفيه أبو هلال وفيه بعض كلام وهو ثقة.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة (١٤٤٠) عن عائشة... به، ومسلم كتاب الزكاة (١٠٢٤) بإسناده.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، باب قيام شهر رمضان ٤٩٤ / ٢، وعبد الرزاق في مصنفه ٣ / ١٥٢ (٥١٢٥) وابن أبي شيبة في مصنفه ٣٤ / ٢.

عَظَامُهُ عَظْمًا مِنْ عِظَامِ مُحَرَّرِهِ مِنَ النَّارِ، وَأَيُّمَا امْرَأَةً أَعْتَقَتْ امْرَأَةً مُسْلِمَةً؛ فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ وِقَاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عَظَامِهَا عَظْمًا مِنْ عِظَامِ مُحَرَّرِهَا مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (١).

مشاركة المرأة في إرساء مفهوم الرحمة في الأمة:

إن الرحمة هي نسيج الفكر الإسلامي وعصارتها، وعندما تكون تلك الرحمة من أساسيات التشريع في الأمة الإسلامية، فهذا يعني رقي العقل الإنساني وهو يتعامل مع البشر على اختلاف أجناسهم واختلاف طبائعهم في السلم والحرب مع الأصدقاء ومع الأعداء، وبدون تلك الرحمة تنفك عرى الترابط الاجتماعي، وتجهد البشرية بالعنف والصراعات المريعة للسيطرة على خيرات الشعوب وثرواتها.

والرحمة تعني الرفق في كل الأمور، والمرأة هي رحم المجتمع، ونبع الرحمة فيها، وهي التي تستطيع بحنانها وحبها أن ترشد سلوكيات زوجها وأبنائها وأهلها؛ لذلك اهتم الرسول ﷺ باستنهاض ينابيع الرحمة في قلبها؛ لتسعد الأمة وترتقي في ظلها (٢).

ونرى ذلك في الأحاديث التالية: فعن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه" (٣) - وعن عائشة رضي الله عنها ﷺ عن النبي ﷺ قال: "إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يترع من شيء إلا شانه" (٤).

وهكذا وجه الرسول الحديث إلى السيدة عائشة أم المؤمنين؛ ليتعلم منها النساء المؤمنات كيف ينشئن أولادهم على الرحمة؛ حيث تتشكل نفسية الطفل في المراحل الأولى من عمره، فإذا اغترف من ذلك المعين العذب أصبح عنواناً على أمة نبينا هو نبي الرحمة الذي قال: "والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة إلا رحيم"، قلنا: كلنا رحيم يا رسول الله، قال: "ليست الرحمة أن يرحم أحدكم خاصته حتى يرحم العامة ويتوجع للعامة" (٥).

(١) أخرجه أبو داود في العتق، باب أي الرقاب أفضل (٣٩٦٥) وأحمد في مسنده ١ / ٤٨٣، والنسائي في السنن الكبرى (٤٨٧٩) وابن المبارك في الجهاد ١ / ١٦٦.

(٢) موسوعة أصول الفكر السياسي والاجتماعي والاقتصادي من نبع السنة الشريفة وهدي الخلفاء الراشدين. ط دار السلام للطباعة والنشر.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق (٢٥٩٣) عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ... به.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق (٢٥٩٤) عن عائشة زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: ... به.

(٥) أخرجه عبد بن حميد في مسنده (٤٢٤ / ١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ... به.

الفصل الثالث

سبق الشريعة في تحقيق المساواة العادلة بين الرجل والمرأة

لقد حظيت المرأة في ظل الإسلام بالتكريم والإعزاز وإعلاء الشأن وتقرير الحقوق، وهو ما لم تحظ به المرأة في ظل أي من الحضارات السابقة أو الحضارة الحديثة، فقد ساوت الشريعة بينها وبين الرجل في شئون المسؤولية والجزاء، وفي الحقوق المدنية والقانونية والسياسية والثقافية وفي كل شئون الحياة، فلها حق التملك وحق إدارة ممتلكاتها ولها أن تشارك في إدارة شئون الدولة؛ فهي وزيرة وسفيرة وقاضية وتشغل جميع الوظائف كبيرها وصغيرها.

وهكذا نجد أن شريعة الله الخالدة تنظر إلى الرجل والمرأة نظرة واحدة باعتبارهما من سلالة واحدة لا فرق بينهما، إلا أن هذا ذكر وتلك أنثى. خلقهما الله من نفس واحدة وخصص لكل منهما دوره في الحياة، وقد ركب الله سبحانه وتعالى جسم كل منهما بالطريقة المناسبة لأداء الدور المنوط به على خير وجه.

فالإنسان هو أفضل مخلوقات الله، خلقه سبحانه وتعالى لعبادته ولعمارة الأرض، والإنسان ما هو إلا ذكر وأنثى، رجل وامرأة فبهما معًا تقوم الحضارة وبهما معًا تستمر الحياة^(١).

ولقد جاء في ديباجة ميثاق حقوق الإنسان في الإسلام الصادر عن الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي ما يلي:

- إن الإسلام شرع منذ أربعة عشر قرناً حقوق الإنسان في شمول وعمق، وأحاطها بضمانات كافية لحمايتها، وصاغ مجتمعا على أصول ومبادئ تمكن لهذه الحقوق وتدعمها، فحقوق الإنسان كما وردت في الشريعة الإسلامية مدونة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وأنها لا تقبل حذفًا، ولا تعديلًا، ولا نسخًا، ولا تعطيلًا.

- وإن إقرار هذه الحقوق هو المدخل الصحيح لإقامة مجتمع إسلامي حقيقي، مجتمع الناس فيه جميعا على حد سواء، لا امتياز، ولا تمييز بين فرد وفرد على أساس من أصل، أو

(١) موسوعة أصول الفكر السياسي والاجتماعي والاقتصادي من نبع السنة الشريفة وهدى الخلفاء الراشدين.

عنصر، أو جنس، أو لون، أو لغة، أو دين، المساواة فيه أساس التمتع بالحقوق والتكليف بالواجبات مساواة تنبع من وحدة الأصل الإنساني المشترك^(١).

وفي هذا البيان تؤكد الدول الإسلامية جميعاً - أعضاء منظمة المؤتمر الإسلامي - استناداً إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أن الناس جميعاً سواسية أمام الشريعة في القيمة الإنسانية المشتركة باعتبارهم من أصل واحد، وفي المشاركة في الحياة العامة لا فرق بين رجل وامرأة، وفي التكافؤ في الحقوق والواجبات التي قررتها الشريعة للنساء والرجال، وهو ما نراه في الحديث التالي:

- عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد البلب ولا يذكر احتلاماً، قال: "يغتسل، وعن الرجل يرى أنه قد احتلم ولم يجد بللاً"، قال: "لا غسل عليه"، قالت أم سلمة: يا رسول الله هل على المرأة ترى ذلك غسل؟ قال: "نعم إن النساء شقائق الرجال"^(٢).

وقال تعالى: (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ) (آل عمران: ١٩٥).

وتتمثل مجالات المساواة بين الرجل والمرأة في النقاط الآتية:

النقطة الأولى: هي المساواة في الإنسانية.

النقطة الثانية: هي المساواة في التكليف بالأحكام الشرعية قال تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً) (النحل: ٩٧).

النقطة الثالثة: هي المساواة في تحمل المسؤوليات العامة والخاصة.

وقال تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) (التوبة: من الآية ٧١).

هذه هي نقاط المساواة التي أقرها الإسلام بما يعتبر سبقاً حضارياً لهذه الشريعة الغراء.

أما أن تكون هناك مساواة مطلقة فأعتقد أن ذلك مجرد فكر لتدمير الاستقرار الإسلامي لوجود فوارق كثيرة لا يمكن تجاهلها أبداً لأن عالم المرأة يختلف كلياً عن عالم الرجل؛ فهناك فوارق جسمانية وتركيبية: فدماع الرجل أكبر حجماً من دماغ المرأة. والمرأة تبلغ الرشد غالباً قبل الرجل. ضربات قلب المرأة أسرع منها عند الرجل. تهتم المرأة

(١) راجع البيان الصادر عن منظمة المؤتمر الإسلامي عن (ميثاق حقوق الإنسان في الإسلام رقم ١٥/٤/٨٤/

Pol / D الصادر بتاريخ ١٩/٩/١٩٨١.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الطهارة (١١٣) عن عائشة قالت.. به.

بزينتها وجمالها على عكس الرجل. تظهر مشاعر الأمومة مبكرة عند المرأة. المرأة أرق قلباً وأسرع بكاء. ردة فعل المرأة أسرع مرتين من ردة فعل الرجل إزاء الحوادث. المرأة مهياة للحمل، والإرضاع، والحضانه. أما الرجال فمهيئون أكثر للعمل الخارجي. الرجل عملي و المرأة أكثر عاطفية (١).

متى ظهرت مطالبه النساء بالمساواة في الإسلام؟

إن مسألة حقوق المرأة في المجال الحضاري الاسلامي ظاهرة أثارت لأول مرة في التاريخ الاسلامي في زمن النبي ﷺ؛ وذلك حين عبرت بعض المسلمات عن شعورهن بعدم الرضا لما اعتبرنه موقفاً محايياً للرجال، وطالبن بالمساواة في الفعالية في الحياة؛ وهذا ما نراه في الحديث التالي:

- عن أسماء بنت يزيد الأنصارية من بني عبد الأشهل أنها أتت النبي ﷺ وهو بين أصحابه فقالت: بأبي أنت وأمي إني وافدة النساء إليك وأعلم نفسي لك الفداء، أما إنه ما من امرأة كائنة في شرق ولا غرب سمعت بمخرجي هذا- أو لم تسمع - إلا وهي على مثل رأيي: إن الله بعثك بالحق إلى الرجال والنساء، فآمننا بك ويأهلك الذي أرسلك، وإننا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم ومقضى شهواتكم وحاملات أولادكم، وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعبادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وإن الرجل منكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً ومرابطاً حفظنا لكم أموالكم وغزلنا لكم أثوابكم وربينا لكم أولادكم، أفما نشارككم في الأجر يا رسول الله؟ قال: فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه؟ فقالوا: يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا، فالتفت النبي ﷺ إليها ثم قال لها: " أفهمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته تعدل ذلك كله"، قال: فأدبرت المرأة وهي تهمل وتكبر استبشاراً (٢).

(١) شبهات وإجابات حول مكانة المرأة في الإسلام. د محمد عمارة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سلسلة

دراسات إسلامية. العدد ٧٣.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦ / ٤٢١) عن أسماء بنت يزيد الأنصارية من بني عبد الأشهل أنها أتت

النبي ﷺ وهو بين أصحابه فقالت: ... به.

وهكذا فقد أرسى الرسول ﷺ مواصفات المساواة العادلة التي تحقق العزة الإيمانية والاطمئنان النفسي لكل من الذكر والأنثى بما يؤهله للمساهمة الفعالة في الحياة بما يتناسب مع طبيعته والمهمة التي خلق من أجلها، وذلك بعكس الشعارات التي رفعها الرجل الغربي؛ إذ لا يمكن أن يتساوى الجنسين في مسألة الحمل والإرضاع مثلاً و لكن يتساويان في العمل بنفس المعدل اليومي.. فتظلم المرأة بأن تتحمل واجبين في وقت واحد بل وتحاسب على ذلك من مجتمعها بصرامة و يكتفي الرجل بواجب واحد فقط ثم يدعي المساواة.

إن الحديث عن المرأة هو حديث عن الإنسان بكل آماله وآلامه، بكل سعادته أو تعاسته ومن ثم فلا يمكن الفصل بين كل ما هو إنساني بصرف النظر عن الذكورة أو الأنوثة، الرجل أو المرأة من حيث التشابه والتقابل والاتفاق والاختلاف. ومن المعروف لدى علماء التربية وعلماء النفس وعلماء الاجتماع أن رؤية الإنسان لذاته ودوره ورسالته ورؤيته للبيئة المحيطة به، وكذلك رؤيته للكون والحياة تتشكل من خلال مصدرين اثنين هما:

أولاً - العقيدة التي يعتقدها ويدين بها.

ثانياً - الثقافة السائدة في البيئة التي ينشأ فيها الإنسان ويتكون عقله ووجدانه من خلالها.

فتلك هي المؤثرات الأساس في عقلية الإنسان وفكره وتصوره، وبذلك يكون من الطبيعي أن تختلف الرؤى والأفكار والتصورات، وحقوق المرأة جزء من حقوق الإنسان تلك التي دار حولها جدل كبير بين رؤيتين ومنهجين، لا من حيث الاتفاق على أصل الحقوق ولكن من حيث البواعث والدوافع والكم والكيف^(١).

الفرق بين العدالة والمساواة:

إن رؤية الغير لحقوق المرأة لم تفرق بين العدالة وبين المساواة، كما لم تلتفت لعملية الفروق الفردية بين الذكر والأنثى، ولم تهتم بهذا الجانب ولم تضعه أبداً في الاعتبار، وإنما ركزت على مطلق الحقوق ومطلق المساواة، كما أنهم في هذه النظرة لم يلتفتوا إلى أن هناك عوامل أخرى مؤثرة غير الحرية والمساواة، فالحرية والمساواة شرطان لازمان لا كافيان، فتساوي الحقوق شيء وتشابهها شيء آخر، وتساوي حقوق المرأة والرجل من حيث

(١) راجع البيان الصادر عن منظمة المؤتمر الإسلامي عن (ميثاق حقوق الإنسان في الإسلام رقم ١٥/٤/٨٤/

القيمة المادية والمعنوية شيء والتشابه والتماثل شيء آخر، وهذه الجوانب كلها قد أهملت في الطرح الغربي لقضية تحرير المرأة، ولم يكن هذا الإهمال في الحقيقة ناشئاً عن غفلة فلسفية سببتها العجلة، وإنما كان إهمالاً لعوامل أخرى أيضاً مؤثرة تتعلق بالرغبة في استغلال شعار الحرية والمساواة للمرأة.

ومن الأفكار التي تبنتها الحضارة الغربية فكرة المساواة بين الرجل والمرأة. والعالم الغربي يخوض هذه التجربة منذ قرن مضى إلا أنه لقي إخفاقاً تاماً، فلم تتحقق المساواة بين الرجل والمرأة في أي مجال. فهما - بالرغم من تمتعهما بدرجة متساوية في نظر القانون - لم يحظيا بالمساواة العملية في المجتمع.

وكانوا يبررون التباين بين الجنسين في أول الأمر بأنه يعود إلى عوامل بيئية، إلا أن الأبحاث الجديدة في مختلف مجالات الحياة قد أبطلت هذا الافتراض تماماً، وقررت أن هناك فروقاً بيولوجية وعوامل تكوينية وراء هذا التباين بدلاً من أسباب اجتماعية أو تاريخية^(١).

وقد نشرت مجلة نيوزويك (عدد ١٨ مايو ١٩٨١) تقريراً مفصلاً يتضمن نتائج توصل إليها باحثون أمريكيون من الجنسين بعد دراسات شاملة حول التكوين الجسدي لكل من المرأة والرجل. وتؤكد هذه النتائج على قدرة الرجل على مواجهة وحل المشكلات بطريق أفضل، وميل المرأة إلى جانب العاطفة في التفكير، وكون الأولاد الذكور أكثر جرأة لدى ممارسة الألعاب، وتفوق الرجال في الرياضيات، وأن كل هذا يحدث بسبب الفروق البيولوجية وليس بتأثير عوامل البيئة.

ويرى الباحثون أن الرجل يتمتع نسبياً بمواهب أكثر للزعامة. وتحمل الأبحاث المعاصرة على الاعتقاد بأن الطبيعة هي السبب الحقيقي في تحديد الفروق بين الرجل والمرأة خلافاً للفكرة السائدة قديماً بأن التربية هي المسؤولة عن هذه الفروق. وهناك اعتقاد شائع بصورة عامة بأن الرجل أكثر قدرة من المرأة على ممارسة العنف والقتال. ويرى الباحثون أن كلا منهما يحمل هورمونات متباينة تلعب دورها في تحديد هذه الفروق. وقام بعض الباحثين بمقن الأنثى بهورمونات الذكورة (Hormone Testosterone)، مما أدى إلى ظهور خصائص الذكور فيها. كما أدخلت في جنين الأنثى هورمونات الذكورة أثناء فترة الحمل ف لوحظ بعد الولادة عدم رغبتهم في اللعب بالعرائس، وميلهم إلى العدوان كالذكور من

(١) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية، المفكر الهندي الكبير وحيد الدين خان - دار الصحوة للنشر

الأولاد. وقد لاحظ الباحثون أن الهورمونات تقوم بتعديل تكوين المخ. ووجدت فروق بين محي الذكر والأنثى، وذلك بسبب التباين في هورموناتهما. هذه الأبحاث كلها تشير إلى فروق لا جدال فيها بين الجنسين. ويحتم التباين في تكوين كل من المرأة والرجل وجود مجال عمل منفصل لكل منهما، إلا أن المتشبهين بالرأي القائل بالمساواة بين الرجل والمرأة لم يسعهم - بعد - الاعتراف بنتائج هذه الأبحاث العلمية، لدرجة أن عالما غربيا قد تساءل: هل الفروق العضوية بين الرجل والمرأة تحدد إطار عمل منفصل لكل منهما؟ هذا سؤال آخر وأكثر تعقيدا (١).

ونقل رأي الدكتور محمد عمارة عن قضية إمكانية المساواة بين الرجل والمرأة فيما يلي؛ حيث يقول: إننا نلح منذ سنوات طوال - وقبلنا ومعنا الكثيرون من علماء الإسلام ومفكره - على أن هذا الدين الخفيف إنما يمثل ثورة كبرى لتحرير المرأة، لكن الخلاف بيننا وبين الغرب والمتغربين هو حول نموذج هذا التحرير؛ فهم يريدون المرأة نداءً مساوياً للرجل، ونحن - مع الإسلام - نريد لها مساواة الشقين المتكاملين، لا الندين المتماثلين، وذلك لتحرير المرأة، مع بقائها أنثى، ومع بقاء الرجل رجلاً؛ كي يثمر هذا التمايز القطري بقاء النوع الإنساني، ويجدد القبول والرغبة والجاهلية والسعادة بينهما.

ونلح على هذا التشابه والتمايز بين النساء والرجال؛ هو الذي أشار إليه القرآن الكريم عندما قرن المساواة بالتمايز، فقالت آياته الأحكام (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) (البقرة: ٢٢٨) (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى) (آل عمران: ٣٦).

نلح على ذلك المنهاج في التحرير الإسلامي للمرأة. ولقد شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يشهد شاهد من أهلها على صدق هذا المنهاج الإسلامي، فتنشر صحيفة الأهرام تقريراً علمياً عن نتائج دراسة علمية استغرقت أبحاثها عشرين عاماً، وقام بها فريق من علماء النفس في الولايات المتحدة الأمريكية، وإذا بها تكشف عن مصداقية حقائق هذا المنهاج القرآني - في تشابه الرجال والنساء في اثنين وثلاثين صفة، وتميز المرأة عن الرجل والرجل عن المرأة في اثنين وثلاثين صفة؛ ولذلك قدمت خلاصة هذه الدراسة العلمية كما نشرها الأهرام تحت عنوان (اختلاف صفات الرجل عن المرأة لمصلحة كليهما) ونصها:

" في دراسة قام بها علماء النفس في الولايات المتحدة الأمريكية على مدى عشرين عاماً تم حصر عدد الصفات الموجودة في كل من الرجل والمرأة، ووجد أن هناك (٣٢)

صفة مشتركة في كل منهما، وأن (٣٢) صفة أخرى موجودة في الرجل، و(٣٢) صفة أخرى موجودة عند المرأة، بدرجات مختلفة في الشدة، ومن هنا جاءت الفروق بين صفات الرجولة والأنوثة.

وتوصل العلماء من خلال هذه التجارب إلى أن وجود نصف عدد الصفات مشتركة في كل من الرجل والمرأة يعمل على وجود الأسس المشتركة بينهما؛ لتسهيل التفاهم والتعامل مع بعضهما البعض.

أما وجود عدد آخر من الصفات متساوياً بينهما ومختلفاً عند كل منهما في الدرجة والشدة؛ فمعناه تحقيق التكامل بينهما، كما توصلوا إلى أنه كي يعيش كل من الرجل والمرأة في انسجام وتناغم تام، لابد أن يكون لدى كل منهما الصفات السيكولوجية المختلفة، فمثلاً الرجل العصبي الحاد المزاج لا يمكنه أن يتعايش مع امرأة عصبية حادة المزاج، والرجل البخيل عليه ألا يتزوج امرأة بخيلة، والرجل المنطوي الذي لا يحب الناس لا يجوز أن يتزوج من امرأة منطوية ولا تحب الناس.

هكذا كان من نتائج هذه الدراسات الوصول إلى نتيجة مهمة، ألا وهي أن كل إنسان يجب ألا يعيش مع إنسان متماثل معه في الصفات وكل شيء، أي صورة طبق الأصل من صفاته الشخصية، ومن هنا جاءت الصفات المميزة للرجولة متمثلة في قوة العضلات وخشونتها والشهامة، والقوة في الحق، والشجاعة في موضع الشجاعة، والنخوة والاهتمام بمساندة المرأة وحمايتها والدفاع عنها وجلب السعادة لها، كما تتضمن أيضاً صفات الحب والعطاء والحنان والكرم والصدق في المشاعر وفي القول وحسن التصرف.. إلخ.

أما عن صفات الأنوثة؛ فهي تتميز بالدفء والنعومة والحساسية، والحنان والتضحية، والعطاء وحب الخير، والتفاني في خدمة أولادها، والحكمة والحرص على تماسك الأسرة وترابطها وحب المديح والذكاء، وحسن التصرف، وغير ذلك من الصفات.

ولذلك فمن المهم أن يكون لدى كل من الرجل والمرأة دراية كافية بطبيعة الرجل وطبيعة المرأة، وبذلك يسهل على كل منهما التعامل مع الطرف الآخر، وفي ضوء خصائص كل منهما. فعندما يعرف الرجل أن المرأة مخلوق مشحون بالمشاعر والأحاسيس والعواطف؛ فإنه يستطيع أن يتعامل معها على هذا الأساس، وبالمثل إذا عرفت المرأة طبيعة الرجل؛ فإن هذا سيساعدها أيضاً على التعامل معه ^(١).

تلك هي شهادة الدراسة العلمية التي قام بها فريق من علماء النفس في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي استغرق البحث فيها عشرون عاماً، والتي تصدق على صدق المنهاج القرآني في علاقة النساء بالرجال: فالاشتراك والتماثل في العديد من الصفات والتمايز في العديد من الصفات؛ يحقق بينهما المساواة والتمايز في ذات الوقت^(١).

ومرة أخرى لا أخيرة صدق الله العظيم إذ يقول (سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (فصلت: ٥٣)

قوانين الشريعة في تحقيق مساواة الرجل بالمرأة:

إن حقوق المساواة بين الناس التي نادى بها الشريعة الغراء تعتبر صفحة ناصعة في تاريخ البشرية ونورا أضاء ظلماتها حيث قضت على كل أنواع التفرقة بين البشر سواء بسبب اللون أو الجنس أو العقيدة أو النفوذ والسلطان؛ فالكل أمام الشريعة سواء. ولا شك أن حقوق المساواة تحقق للإنسان الكمال الذي ينشده والأمن والسلام. فالإسلام دعا الى المساواة ليأخذ بيد الإنسان في معارج الرقي المعنوي والتقدم المادي؛ لأن عوامل الاضطهاد في إقامة الحدود والحقوق والواجبات المدنية تعرقل حركة الإنسان في الحياة، وتعطل كل طاقات الإبداع الكامنة فيه. ولذلك فإننا نعرض منهاج الإسلام في إرساء قواعد المساواة بين الرجل والمرأة؛ حيث إنه ينفرد بأنه جاء بصورة مثالية للمساواة تتناول النواحي المادية والمعنوية معاً مما يحقق للمجتمعات أعلى صور السلام والترابط الاجتماعي، قال تعالى يعيب على فرعون التفرقة بين أبناء الأمة الواحدة: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدْبِعُ أِبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (القصص: ٤). وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: ١٣) وقال تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (التوبة: ٧١). وهكذا فإن القرآن الكريم يجمع الرجال والنساء في خطاب واحد، بصفات إيمانية دقيقة، يمتدحهم بها، على قدم المساواة بثواب عظيم لهما في دار الخلد. ونعرض مظاهر المساواة بين الرجل والمرأة فيما يلي:

(١) شبهات وإجابات حول مكانة المرأة في الإسلام. د محمد عمارة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سلسلة

أولاً- المساواة في التكاليف الشرعية

ساوى الإسلام بين الرجال والنساء في شئون المسؤولية والجزاء فلا فرق بينهم في العبادات والعمل الصالح يقول الله سبحانه وتعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل: ٩٧). ويقول سبحانه: (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (الأحزاب: ٣٥).

ولقد حدد القرآن وصفاً دقيقاً لعلاقة المساواة المتكاملة بين الرجل والمرأة، ويرى ذلك من يتمعن في قوله تعالى: (... أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ..) (آل عمران: ١٩٥). لقد استخدمت في الآية الكريمة كلمات (بعضكم من بعض) للدلالة على المرأة والرجل، باعتباره وصفاً دقيقاً وشاملاً لوضعية كل من الرجل والمرأة.

هذه هي المساواة بين الرجل والمرأة في الإسلام، مساواة في الشئون الدينية، ناتجة عن المساواة في القيمة الإنسانية المشتركة، فكلهم لآدم لا فرق بين ذكر وأنثى في التكاليف الإلهية والمنح الربانية؛ لأن المساواة في موازين الآخرة تفرض المساواة في موازين الدنيا، وكل منهما مرآة تعكس وتتأثر بالمنهج السائد فيهما (١).

ونعرض مظاهر المساواة من وهي السنة الشريفة فيما يلي:

عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد البلل ولا يذكر احتلاماً قال: "يغتسل"، وعن الرجل يرى أنه قد احتلم ولم يجد بللاً قال: "لا غسل عليه" فقالت أم سليم: المرأة ترى ذلك أعليها غسل؟ قال: نعم؛ إنما النساء شقائق الرجال (٢).
- وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من مؤمن ولا مؤمنة، ولا مسلم ولا مسلمة، يمرض مرضاً إلا حط الله عز وجل بها عنه من خطاياها" (٣).

(١) موسوعة أصول الفكر السياسي والاقتصادي والاجتماعي من نبع السنة الشريفة وهدي الخلفاء الراشدين - خديجة النيراوي. دار السلام القاهرة.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة (٢٣٦) عن عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد البلل ولا يذكر احتلاماً قال:.. به، والترمذي في كتاب الطهارة (١٠٥) بإسناده.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣ / ٣٨٦) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: .. به.

- عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ... به: رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فصلت فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فصلى، فإن أبي نضحت في وجهه الماء (١).

- عن عروة أن عمر بن الخطاب جمع الناس على قيام شهر رمضان الرجال على أبي بن كعب والنساء على سليمان بن أبي حثمة (٢).

- عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: ... به: "رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة وسمعت خشفا أمامي فقلت: "من هذا يا جبريل؟ قال: هذا بلال، ورأيت قصراً أبيض بفنائها جارية فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لعمر بن الخطاب، فأردت أن أدخله فأنظر إليه، فذكرت غيرك" (٣).

ثانياً: المساواة في إقامة الحدود بين الرجل والمرأة

يقصد بالمساواة في إقامة الحدود عدم تميز أى مواطن عن الآخر في تطبيق القانون العام للدولة.. وهذا يعنى القضاء على التفرقة العنصرية بجميع أنواعها، ويعنى الحفاظ على أمن المجتمع وسلامته من دواعى الإرهاب؛ لأنها تكفل حماية الأرواح والأموال والأعراض لكل المواطنين بفرض العقاب على كل من ارتكب جريمة من المواطنين، بصرف النظر عن العقيدة أو المركز الاجتماعى أو الجنس أو اللون (٤).

لقد وضح النبي ﷺ حقيقة المساواة بين العباد وأهم من حيث الدم إذا سفح أو أهرق؛ فإنهم متكافئون، ولا قيمة في ذلك لأي فارق من الفوارق، فالجميع في إقامة الحد سواء الرجل والمرأة.

حد الزنا:

إن وجوب الرجم على الزاني (رجلاً كان أم امرأة) قول عامة أهل العلم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار في مختلف الأعصار ولا نعلم فيه مخالفاً

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢ / ٢٥٠) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ... به.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢ / ٤٩٣) عن هشام بن عروة عن أبيه: ... به.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣ / ٣٧٢) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: ... به.

(٤) يراجع في ذلك: محمد خضر: الإسلام وحقوق الإنسان، ابن تيمية السياسية الشرعية في إصلاح الراعى والرعية، مصطفى الزرقا: المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، عبد الوهاب الشيباني: حقوق الإنسان وحرياته الإنسانية في النظام الإسلامي والنظم المعاصرة، أمير عبد العزيز: نظام الإسلام.

إلا الخوارج فإنهم قالوا: الجلد عقوبة البكر والثيب (١)؛ لقوله تعالى: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) (النور: من الآية ٢).

- عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خذوا عني، خذوا عني؛ قد جعل الله لهن سبيلا: البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم" (٢).

- عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني أنهما قالوا: إن رجلا من الأعراب أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله، فقال "الخصم الآخر وهو أفقه منه: نعم فاقض بيننا بكتاب الله وأذن لي، فقال رسول الله ﷺ: "قل"، قال: إن ابني كان عسيفا على هذا فزني بامرأته، وإني أخبرت أن على ابني الرجم فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني إنما على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لأقضي بينكما بكتاب الله: الوليدة والغنم رد، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، واغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها، قال فغدا عليها فاعترفت فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت (٣). وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان، وإذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان (٤).

حد السرقة:

وكذلك حد السرقة الجميع فيه سواء قال تعالى: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (المائدة: ٣٨). ويفهم من ظاهر الآية أن كل من سرق تقطع يده ولقد وردت النصوص النبوية التي توضح ذلك ومنها:

- عن عائشة أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا من يكلم فيها رسول الله ﷺ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: "أتشفع في حد من حدود الله، ثم قام فاختطب فقال: "أيها الناس

(١) البكر: من لم يحصن من الجنسين، والثيب: من أحصن منهما.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الحدود، باب حد الزنا (١٦٩٠) عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: به.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا (١٦٩٧) عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني أنهما قالوا: به.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٢٣٣ / ٨) عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: ... به.

إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها^(١). وكذلك حكم الردة يتساوى فيه كل من الرجل والمرأة:

— وعن معاذ بن جبل، أن رسول الله ﷺ قال له حين بعثه إلى اليمن: أيما رجل أرتد عن الإسلام فادعه، فإن تاب؛ فأقبل منه، وإن لم يتب؛ فأضرب عنقه، وأيما امرأة ارتدت عن الإسلام؛ فادعها؛ فإن تابت فأقبل منها، وإن أبت فاستبها^(٢).

إن كل عمل صالح، مع ثوابه الديني والأخروي، مقترن بحكم الله للرجل والمرأة على حد سواء إذ هما مادة المجتمع الإنساني، وكلاهما يتعاون في تلقي رسالة الله، وإبلاغها دعوة وسلوكًا في الخافقين.

ثالثاً: المساواة في الحقوق والواجبات المدنية

تتساوى المرأة مع الرجل في الحقوق والواجبات المدنية، فلها حق التصرف في مالها كيفما شاءت، ولها نفس الأجر الذي يناله الرجل من الله وقد وضع الفقهاء ذلك الأمر.

— فقال الأخناف: إن الولاية على الصغيرة إنما كانت لقصر عقلها، وفيما نحن فيه ليس بموجود — يعني البالغة الرشيدة — لأنه قد كمل بالبلوغ؛ بدليل توجه الخطاب فصار الإيجاب عليها كالإيجاب على الغلام، فإن كان صغيراً جاز لقصور العقل وإن كان بالغاً لا يجوز كالتصرف في المال — أي مال البكر البالغة — فإنه لا يجوز للأب التصرف فيه^(٣).

— وقال المالكية: إذا عرف بعد البناء رشد المرأة وصلاح حالها جاز بيعها وشراؤها في مالها كله، وإن كره الزوج إذا لم تحب فإن حابت أو تكفلت أو أعتقت أو تصدقت أو وهبت أو صنعت شيئاً من المعروف كان ذلك في ثلثها.

— وقال الحنابلة: إن المحجور عليه إذا انفك عنه الحجر لرشده وبلوغه ودفع إليه ماله ثم عاد إلى السفه عاد الحجر عليه.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود (١٦٨٨) عن عائشة: ... به.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٠ / ٥٣، وابن أبي شيبة في مصنفه ٦ / ٤٤٠، والهيتمي في مجمع الزوائد، باب فيمن كفر بعد إسلامه نعوذ بالله من ذلك وهل يستتاب وكم يستتاب ٦ / ٢٦٣، وقال: رواه الطبراني وفيه سامر لم يسم قال مكحول عن ابن أبي لآبي طلحة اليعمرى وبقيته رجاله ثقات.

(٣) راجع العناية على الهداية للبايزي مع شرح فتح القدير (٢ ص ٣٩٥).

- قال ابن قدامة: وظاهر كلام الخرقي في أن للمرأة الرشيدة التصرف في مالها كله بالتبرع والمعاوضة وهذه إحدى الروايتين عن أحمد.. ثم قال: وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي وابن المنذر.. ثم قال: وعن أحمد رواية أخرى ليس لها أن تتصرف في مالها بزيادة عن الثلث بغير عوض إلا بإذن زوجها. وقال أيضًا: إن الجارية إذا بلغت وأونس رشدها بعد بلوغها دفع إليها مالها. - وقال ابن حزم: وبيع المرأة منذ تبلغ البكر ذات الأب وغير ذات الأب والثير ذات الزوج والتي لا زوج لها جائز وابتاعها كذلك^(١).

وقال: لا يجوز الحجر على امرأة ذات زوج ولا بكر ذات أب ولا غير ذات أب وصدقتهما ووصيتهما نافذ كل ذلك من رأس المال إذا حاضت كالرجل سواء بسواء.. إلى أن قال: وكل من تصدق وفعل الخير عن ظهر غنى نفذ ولم يحل رده وكل ما اعتق وتصدق عن غير ظهر غنى رد وبطل لأنه لا طاعة إلا ما أمر الله تعالى به ولا معصية إلا ما نهى الله عنه فالصدقة بما لا يبقى غنى معصية والصدقة بما يبقى غنى طاعة^(٢). وبعد فيتضح لنا من تلك النصوص السابقة ما يلي:

- أن الفقهاء جميعًا قد اتفقوا على أن المرأة البالغة الرشيدة، مع اختلافهم في معنى الرشد عند كل منهم، أنه يجوز لها التصرف المطلق في المال، ولقد كانت السنة المشرفة هي الموضحة لرأي هؤلاء الفقهاء حيث جاءت نصوصها لتوضح ذلك؛ فالأحاديث التي جاءت لتوضح دور المرأة في أداء الزكاة، معناها انفراد الزمة المالية للمرأة وحققها في التصرف في أموالها؛ وذلك على سبيل المثال لا الحصر^(٣).

وقد كانوا يعتقدون في العالم القديم، -نتيجة الأوهام والإيمان بالخرافات-، أن المرأة أدنى من الرجل، ومما تعرضت له المرأة نتيجة هذه الفكرة، حرمانها من الوراثة. فلم تكن تحصل على نصيبها من ممتلكات العائلة. وقد حدد الإسلام - لأول مرة في التاريخ البشري - حقها المعلوم في الميراث. ويقول ج.م. روبرتز^(٤): كان مجيء الإسلام ثورة من نواح متعددة، فقد ارتقي بالمرأة إلى حد كبير، لكنه أعطاه الحقوق القانونية في الممتلكات،

(١) الخلى لابن حزم (ج ٩ ص ٥٤).

(٢) الخلى لابن حزم (ج ٨ ص ٣٠٩).

(٣) سوف نعرض بتفصيل أوسع إن شاء الله هذا الموضوع في الأبواب القادمة.

(٤) J.M. Roberts, The Pelican History of the World (New York) p.٣٣٤.

نقلًا عن المفكر الهندي الكبير وحيد الدين خان . المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية ص ٥٤ - دار الصحوة للنشر.

وهي الحقوق التي لم تحصل عليها المرأة في كثير من البلاد الأوروبية، - حتى القرن التاسع عشر - وكانت هناك حقوق حتى للعبيد. ولم يكن في مجتمع المؤمنين طوائف اجتماعية، ولا مكانات موروثة. وكانت هذه الثورة نابعة من دين، لم يكن يميز بين مختلف جوانب الحياة بل كان يحتضنها كلها.

ويلقى المفكر الهندي الكبير وحيد الدين خان على هذا بقوله: والذين يشيدون بمزايا الإسلام في رحابة صدر، ثم يرددون أن المرأة تحظى بمرتبة أدنى من الرجل في الإسلام، إنما يناقضون أنفسهم. فمنذ العهد القديم إلى العصر الحاضر، والوراثة من أهم القضايا الاجتماعية، لأنها تحدد مراتب الأفراد في أي مجتمع. فإقرار الإسلام بإشراك المرأة في وراثة العقارات والممتلكات - رغم العرف السائد آنذاك - يدل بوضوح على أنه رفع مكانة المرأة، وأعز كرامتها بلا شك.

ويقول القاضي (راجندار اسامشار) رئيس المحكمة العليا السابق بدلهي: إنه من الناحية التاريخية كان الإسلام متحررا جدا وتقدما، في إعطاء المرأة حقوق الملكية. والحقيقة هي أنه لم يكن للمرأة الهندوسية من حقوق في الملكية حتى سنة ١٩٥٦، حين ووفق على مشروع قانون الأحوال الشخصية الهندوسية، بينما أعطى الإسلام هذه الحقوق للمرأة المسلمة قبل ١٤٠٠ سنة (١).

قال تعالى في كتابه الكريم معلنا إشراق عصر الحرية المالية للمرأة: (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا) (النساء: ٧).

قال سعيد بن جبیر وقتادة (٢): كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئا. فزلت تلك الآية: أي الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى، يستوون في أصل الوراثة، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم، بما يدل به إلى الميت من قرابة أو زوجية أو ولاء. وروى أحمد بسنده عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك في يوم أحد شهيدا، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا، ولا ينكحان إلا ولهما مال.. قال: يقضي الله في ذلك فزلت تلك الآية، ثم نزلت آية الميراث توضح

(١) جريدة ستيتسمان (دهلي الجديدة) ٢٦ إبريل ١٩٨٦ (نقلا عن المرجع السابق).

(٢) تفسير ابن كثير (ج ١ ص ٤٥٤) ط. دار إحياء الكتب العربية.

الأَنْصِبَةُ: (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ) (النساء: ١١)، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: "اعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك".

ولقد سوى الإسلام بين الرجل والمرأة في الحقوق العامة، ولا يفرق في ذلك بين المرأة المتروجة أو غير المتروجة، وبالمصطلح القانوني الحديث فإن المرأة لها شخصيتها القانونية المستقلة والكاملة فالمرأة المتروجة لا تفقد أهليتها ولا شخصيتها القانونية كما في أمم الغرب، فتظل المرأة بعد الزواج تملك حق إبرام العقود، وتحمل الالتزامات فتحفظ بحقوقها في التملك فلها شخصيتها وثروتها الخاصة المستقلة عن شخصية وملك زوجها كما يجب على الزوج ألا يأخذ شيئاً من زوجته إلا برضاها، سواء أكان هو الذي أهدى إليها هذا المال أو حصلت عليه بأي طريق مشروع من طرق التملك (١). يقول الله سبحانه وتعالى: (وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا) (النساء: ٢٠) فلا يجوز للزوج أن يأخذ من زوجته شيئاً مما أعطاه ولا ممال آل إليها من أي طريق آخر إلا برضاها فقط، يقول جل وعلا: (وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا) (النساء: ٤).

رابعاً: المساواة في مجال المشاركة السياسية والاجتماعية

أعطى الإسلام للمرأة حقوقها السياسية والاجتماعية مما جعلها تشعر بحتمية المشاركة مع الرجل في كل المجالات بدافع الاهتمام بمصير الأمة، وظهر ذلك في المجالات التالية:

- كان لها حق مبايعة الرسول ﷺ وهذا يعني المشاركة الفعالة في إعلاء كلمة الحق وبناء الأمة؛ يقول الله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ قَبَاحُهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (المتحنة: ١٢).

وجاء في الحديث الشريف: عن عبادة بن الصامت قال: كنا أحد عشر في العقبة الأولى من العام المقبل فبايعنا رسول الله ﷺ ببيعة النساء قبل أن يفرض علينا الحرب (٢).

(١) حقوق الإنسان في الإسلام - د. علي عبد الواحد وافي.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ٢ / ٦٨١: عن عبادة بن الصامت قال: به. وقال: هذا حديث صحيح على

وأعطاهما حق مشاركة الرجال في إبداء الرأي ومناقشة الأمور الدينية والدنيوية؛ فنرى السيدة أم سلمة تحفظ الأمة في مهدها من التنازع الذي يفرق شملها، ويعرضها لغضب الله نتيجة مخالفة رسولها ﷺ :

- عن عروة بن الزبير عن مروان أن رسول الله ﷺ خرج عام صدّوه، فلما انتهى إلى الحديبية اضطرب في الحل وكان مصلاه في الحرم، فلما كتبوا القضية وفرغوا منها دخل على الناس من ذلك أمر عظيم قال: فقال رسول الله ﷺ: "يا أيها الناس انحروا وأحلّقوا وأحلّوا". فما قام رجل من الناس، ثم أعادها، فما قام أحد من الناس، فدخل على أم سلمة فقال: ما رأيت ما دخل على الناس، فقالت: يا رسول الله اذهب فانحر هديك واحلق وأحل؛ فإن الناس سيحلّون فنحر رسول الله ﷺ وحلق وأحل (١).

- عن أنس قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة فقال لها: يا أم فلان اجلسي في أي نواحي السكك شئت حتى أجلس إليك، قال: فجلست. والحاصل أن النبي ﷺ جلس إليها حتى قضت حاجتها (٢).

تلك هي نظرة الإسلام إلى الرجل والمرأة، وحتى الآن لم يستطع أي قانون وضعي أن يصل إلى هذه الدرجة من المساواة. فقوانين الغرب تقضي بأن تفقد المرأة اسمها واسم أسرتها بمجرد زواجها، وتكتسب اسم زوجها واسم أسرته، وذلك مما يؤدي إلى فقدانها شخصيتها المدنية واندماجها في شخصية زوجها.

إن التفرقة في بعض الواجبات بين الرجل والمرأة ناتجة عن اختلاف تكوين كل منهما الجسمي ليقوم بما خلقه الله من أجله؛ فالمرأة بحكم تكوينها تحمل وتلد وترضع الصغير حتى يكبر، وهذه وظائف خصها الله بها. فإذا تمكنا من المساواة بينهما في الحمل والرضاع، سهل المساواة بينهما في باقي أوجه الحياة. أما إذا عجزنا، وبقي عبء الحمل والولادة والرضاعة والتربية على كاهل المرأة وحدها، ثم كلفناها وألزمناها بالقيام بكافة الأعمال التي يقوم بها الرجال فنكون إذن قد ظلمناها وحملناها فوق ما تتحمل. وطالبناها بازدواجية الأدوار، دورها ودور زوجها. وليس معنى ذلك حرمانها ومنعها من العمل والمساهمة في بناء المجتمع، ولكن المقصود أنها لا تلزم ولا ترغم ولا يفرض عليها ذلك، إلا إذا تطوعت ورغبت، ويعتبر ذلك تكرم وتفضل منها. ولها حق أن تعترض وتمتنع وترفض إذا هي أمرت بذلك.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٨٣ / ٧) عن عروة بن الزبير عن مروان أن رسول الله ﷺ خرج عام صدّوه ... به.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨١٨) عن أنس قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: به

فهي حرة في اختيار العلم الذي يناسبها، وفي المكان الذي يناسبها، فالإسلام لا يأمرها ولا ينهها. وترك لها حرية الاختيار.

وسنرى في الباب الرابع - إن شاء الله - الدور الإيجابي الذي قامت به المرأة في المجالات الاجتماعية والسياسية؛ لنبرهن بالدليل العملي أن الإسلام فتح المجال واسعاً أمام حركة المرأة في الحياة لا فرق بينها وبين الرجل في ذلك طالما أنها تملك القدرات العقلية والنفسية والجسدية التي تؤهلها لتلك المهام.

سبق الإسلام في تفضيل المرأة على الرجل:

فضل الله بعض البشر على بعض سواء أكانوا رجالاً أم نساء فمنهم الأنبياء والملوك والملكات والوزراء والوزيرات... وهكذا. ولا يتعارض ذلك مع مبدأ المساواة. قال تعالى عن ملكة سبأ التي تفوقت على الرجال بقدرتها العقلية: (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) (النمل: ٢٣).

ونضرب مثلاً آخر عن أفضلية بعض النساء على الرجال بالسيدة هاجر عليها السلام حيث يأخذ عنها المسلمون شعيرة من شعائر الحج، وهي امرأة... فلو كان الإسلام يفرق بين الرجال والنساء ولا يرفع قدر المرأة ويعتبرها صنو الرجل، وفي مقام يساوي مقامه لما اتخذ المسلمون من سعيها بين الصفا والمروة؛ شعيرة من شعائر دينهم يقوم بها كل من حج بيت الله أو اعتمر. وقد خلد القرآن الكريم هذه الشعيرة في قوله سبحانه وتعالى: (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرٌ فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) (البقرة: ١٥٨). وفي ذلك تكريم لهاجر وتخليد لذكرى انتقالها إلى مكة المكرمة وسعيها بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء في صحراء قاحلة لا أثر فيها لإنسان ولا حيوان ولا نبات. فهي بذلك تفضل كثيراً من الرجال.

فأساس الأفضلية في الإسلام هو العمل الصالح الذي هو مناط التقدير كما قال تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) (النساء: ١٢٤). وقال تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل: ٩٧).

وهناك شهادة من الرسول ﷺ بخيرية النساء:

شهد الرسول ﷺ للنساء بالخيرية على الرجال في حالة صلاحهن، ورعاية اجتماعية لهن، و حفراً لهن على الثبات على درب الإيمان، وهذا يثبت سبق الإسلام في تكريم النساء عن الرجال: "عن عمر قال: لما مرض النبي ﷺ قال: ادعوا لي بصحيفة ودواة أكتب كتاباً لا تضلوا بعده أبداً، فقال النسوة من وراء الستر: ألا تسمعون ما يقول

رسول الله ﷺ؟ فقلت: إنكن صواحبات يوسف إذا مرض رسول الله ﷺ عصرتن أعينكن، وإذا صح ركبته عنقه، فقال رسول الله ﷺ: "دعوهم فإنهم خير منكم" (١).

واهتم الرسول كثيراً بحقوق المرأة حيث كانت شغله الشاغل؛ ليقيم دعائم الأمة على نصرة المرأة والحفاظ على كرامتها وعزها:

- وقال ﷺ: "إني أخرج عليكم حق الضعيفين من اليتيم والمرأة" (٢).
- وقال ﷺ: " اتقوا الله في الصلاة، اتقوا الله في الصلاة، اتقوا الله في الصلاة، اتقوا الله في ما ملكت أيماكنم، اتقوا الله في الضعيفين: المرأة الأرملة، والصبي اليتيم" (٣).
- وقال ﷺ: " سووا بين أولادكم في العطية، فإني لو كنت مؤثراً أحداً على أحد لآثرت النساء على الرجال" (٤).

- من أصدق امرأة صداقاً وهو مجمع على أن لا يوفيه إياه لقي الله تعالى وهو زان، ومن ادان ديناً وهو مجمع على أن لا يوفيه؛ لقي الله عز وجل وهو سارق" (٥).

ومن مظاهر اهتمام الرسول ﷺ بالمرأة في جميع مراحل حياتها: أنه حفز المسلمين على رعاية المرأة مهما كانت درجة قرابتها:

- وقال ﷺ: من عال ابنتين أو أختين أو خاليتين أو عميتين أو جدتين فهو معي في الجنة كهاتين، فإن كن ثلاثاً فهو مفرح، وإن كن أربعاً أو خمساً فإيا عباد الله! أدركوه أقرضوه ضاربوه (٦). وبين الحديث التالي مكانة المرأة في الإسلام؛ حيث يحتبس جيش بأكمله من أجل ابتغاء عقد السيدة عائشة رضي الله عنها، فتصرف الرسول ﷺ سنة تعلي شأن المرأة وتحافظ عليها وعلى ممتلكاتها إلى أقصى مدى: روى عن عمار بن ياسر كان يحدث أنه كان مع رسول الله ﷺ في سفر ومعه عائشة فهلك عقدها فاحتبس الناس في ابتغائها حتى أصبحوا وليس معهم ماء فترل اليتيم فقاموا فضربوا بأيديهم فمسحوا بها وجوههم، ثم عادوا فضربوا بأيديهم ثانية فمسحوا بها أيديهم إلى الإبطين أو قال إلى المناكب (٧).

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، باب تحييره ﷺ بين الدنيا والآخرة ٩ / ٣٤، وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن جعفر بن إبراهيم الجعفري قال إسناده في حديثه نظر وبقية رجاله وثقات وفي بعضهم خلاف، والمنذري في الترغيب والترهيب ٦٨/٣.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ٩٣/١.

(٣) ذكره الطبري في تفسيره ٢٤٥/٤، والسيوطي في الدر المنثور ٤٤٣/٢.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٧٨/٤.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ٣٤/٨.

(٦) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٥٧/٨.

(٧) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٢١٣/١، وأبو يعلى في مسنده ٢٠٠/٣.

الباب الثاني

حريات و حقوق حضارية تتباهي بها المرأة المسلمة علي مدار عصورها

الفصل الأول

حريات وحقوق المرأة في مرحلة الطفولة

الفصل الثاني

حريات وحقوق المرأة في مرحلة الشباب

- حقها في طلب العلم - حريتها في الحفاظ علي جمالها وأنوثتها بالضوابط الشرعية -
- حقها في تيسير زواجها - حريتها في اختيار شريك حياتها.

الفصل الثالث

حريات وحقوق المرأة كزوجة وأم

- المبحث الأول:** حريتها وحقوقها كزوجة: إشاعة جو المحبة - حقها في المداعبة -
- حريتها في القيام بأعباء المنزل - حقها في تقدم نوازعها النفسية - حقها في الغيرة
- المحمودة - حريتها في تنظيم حملها وإرضاع طفلها - حقها في الحفاظ على حقوقها المالية
- حقها في الإنفاق عليها - حقها في الحفاظ علي كيان أسرتها - حقها في تزيين زوجها لها
- حقها في المعاشرة الزوجية - حريتها في استمرار حياتها الزوجية أو إنهاؤها.
- المبحث الثاني:** حرياتها وحقوقها كأم.

الفصل الرابع

حرياتها وحقوقها علي مستوي الدولة

- حريتها في التعبير عن الرأي - حقها في الضمان الاجتماعي - حقها في الرعاية
- الاجتماعية: وهي حامل ومرضع - في حالة المخاض - في حالة المرض - في حالة تعرضها
- للمخاطر والأذى - في حالة احتياجها العون في أعمالها - في حالة وقوع الحد عليها نتيجة
- أخطائها - في حالة انتقالها للرفيق الأعلى .
- حقها في المواساة والعزاء - حقها في الوفاء لها - حقها في الحفاظ على مشاعرها -
- حقها في الحفاظ على كرامتها وعرضها.

الباب الثاني

حريات وحقوق حضارية تتباهي بها المرأة المسلمة علي مدار عصورها

وجه الإسلام الرعاية الكاملة للمرأة في جميع مراحل حياتها سواء في مرحلة الطفولة أو الشباب، أو بعد الزواج والإنجاب؛ فأعطاه حريتها وحققها كزوجة وأم بما لم يرد في أية حضارة عصرية؛ لأن تلك الحقوق تشمل النواحي المادية والمعنوية معا بما يتناسب مع مشاعر المرأة الموهبة وحاجتها إلى الحب والحنان والرحمة.

كما اهتم الإسلام بمشاركة المرأة الفعالة في الحياة الاجتماعية والسياسية؛ فأعطى لها حقوقاً على مستوى الدولة تعجز عنها كل القوانين الوضعية الحديثة.

وسنعرض في هذا الباب حريات وحقوق المرأة في مرحلة الطفولة؛ حيث نبين عناية الإسلام البالغة وحنوه على المرأة ورعايتها منذ مهدها، وتحريرها من كل مشاعر الحزن والحزن التي تحيط بها عند السماع بمقدمها. ثم نعرض حريات وحقوق المرأة في مرحلة الشباب؛ حيث يدفعها إلى طلب العلم؛ لدورها في تعليم الأجيال، وحرص الشريعة على تلبية رغباتها الأنثوية في التزين واختيار شريك حياتها في ضوء الضوابط الشرعية. ثم نعرض لحريات وحقوق المرأة كزوجة وأم، ونبين كيف ارتقى الإسلام بتلك الحقوق ليحقق الأمن والاستقرار في الأسرة التي هي النواة الأولى لبناء الأمة، وهي مصدر إشعاع المعاني السامية فيها. ثم نعرض حريتها وحقوقها على مستوى الدولة، فنرى تكريم المرأة في أمثل صورة حيث تعاملها الشريعة كجواهر غال يحتاج رعايته وحفظا، وفي نفس الوقت يجب إظهار شعاعه هذه نظرة سريعة لمحتويات الباب، وننتقل إلى التفصيل.

الفصل الأول

حريات وحقوق المرأة في مرحلة الطفولة

تحرير المرأة في مهدها،

إذا نظرنا إلى الحرية على أساس أنها حق الحياة، المتحررة من الخوف والذلة والمهانة، وجدنا بلا شك أن الإسلام أعطى المرأة تلك المعاني السامية للحرية، وحرر وجودها من تلك الكآبة النفسية التي تحيط بمولدها، نتيجة الإحساس بالخزي والعار. فالعرب في الجاهلية كانوا يفخرون بالذكور؛ لأنهم في نظرهم رمز الشرف والعزة، والدفاع عن حمتهم وقت الحرب، وتحملون المخاطر في الأسفار وجلب الرزق، وهم أهل الحكم والسياسة والشورى. أما الأنثى فلم تكن في نظرهم إلا كونه عيباً على القبيلة، في كل مراحل حياتها، ولا تشرف القبيلة بانتساب الأنثى إليها، فضلاً عن زيادة العدد منها.

وفي وسط هذا الجو المشحون بالكراهية للأنثى، والخط من قدرها، كان مجرد نبأ مولدها، يثير قمة الاكتئاب النفسي لدى والدها، وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم أصدق تعبير بقوله جل شأنه: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (النحل ٥٨ - ٥٩).

وهكذا بدأ الإسلام يحرر وجود الأنثى من تلك الكراهية الشديدة، التي تحيط بمولدها، وأزال غشاوة الجهل عن العقول والقلوب. فالمرأة والرجل ضرورتان متلازمتان للوجود البشري، لا غنى لأحدهم عن الآخر، قال تعالى: (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) (النجم ٤٥).

وإذا نظرنا إلى السنة النبوية نجد أنها قد وضعت مبادئ سامية تحيط بالأنثى في طفولتها بكل معاني الرحمة الإيمانية لتشكيل شخصيتها على ذلك؛ لأنها صانعة الأجيال في المستقبل، وهي رحم الأمة ونوع الحنان والحب فيها.

فالرسول الكريم ﷺ يعلم المسلمين كيف يتعاملون مع الأنثى بكل حب ورعاية؛ لأنها جوهر غالية في كيان الأمة وتستحق كل الرعاية والحب من الأهل، وهذا نراه فيما يلي:

- كان النبي ﷺ يصلي وأمامه بنت زينب ابنة رسول الله ﷺ وهي ابنة أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى على رقبته، فإذا ركع وضعها، وإذا قام من السجود أخذها فأعادها

على رقبته، قال ابن جريج، أخبرني عن زيد بن أبي عتاب عن عمرو بن سليم أنها صلاة الصبح^(١).

- وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تكرهوا البنات، فإنهن المؤمنات الغاليات"^(٢).

- وقال رسول الله ﷺ: "إذا وجد للرجل ابنة بعث الله ملائكة يقولون: السلام عليكم أهل البيت! فيكسونها بأجنحتها، ويمسحون بأيديهم على رأسها ويقولون: ضعيفة خرجت من ضعيفة، القيم عليها يعان إلى يوم القيامة"^(٣).

كذلك فرضت الشريعة على المسلمين رعاية الأنثى اليتيمة وهي طفلة يتيمة لتكفل لها مصادر الأمن المعنوي و المادى وهما ما افتقدتهما بفقدان الوالد:

- عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: "من مسح رأس يتيم أو يتيمة لم يمسه إلا الله؛ كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنات، ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو في الجنة كهاتين وقرن بين إصبعيه"^(٤).

ومن دلائل عظمة الشريعة الإسلامية أنها حررت الأنثى من الظلم والاضطهاد الذى كانت تعامل به على مدار حياتها، ووضعت حوافز أخروية مجزية لتكريم الأنثى، بما يحقق للمرأة كل ما تصبو إليه من رعاية اجتماعية مثلى بما لا يمكن أن تصل إليه كل القوانين التى تدعى التحضر.

- عن أبي عُسَائَةَ الْمُعَاوَرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَصَبَّرَ عَلَيْهِنَّ، وَأَطْعَمَهُنَّ، وَسَقَاهُنَّ، وَكَسَاهُنَّ مِنْ جَدَّتِهِ؛ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"^(٥).

(١) انظر صحيح البخاري ٢٢٣٥/٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٥١/٤، والطبراني في الكبير (٣١٠/١٧) والهيتمي في مجمع الزوائد، باب ما جاء في الأولاد ٨ / ١٥٦، وقال: رواه أحمد والطبراني وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وبقيه رجاله ثقات.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط ٣ / ٢٦٥، الهيتمي في مجمع الزوائد، باب ما جاء في الأولاد ٨ / ١٥٦، وقال: رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه لكن لم ينسبه عن عبدالله بن سليمان المصري ولم أعرفهما وبقيه رجاله ثقات.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٥ / ٢٦٥، وابن أبي عاصم في الزهد ١ / ٢١، والبغوي في شرح السنة ٥٢٣/١.

(٥) أخرجه ابن ماجه في الأدب، باب بر الوالد والإحسان إلى البنات (٣٦٦٩) والإمام أحمد في مسنده (٢٣٥/٢ - جدته: جد فيه واجد: إذا اجتهد. أه النهاية ٤٤/١).

- عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : جَاءَنِي مَسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ فَأَعْطَتْنِي كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً وَرَفَعَتْ إِلَيَّ فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا ، فَاسْتَطَعَمْتُهَا ابْنَتَاهَا ، فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا ، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ (١).
- وقال ﷺ: "من عال ابنتين أو أختين أو خاليتين أو عميتين أو جدتين فهو معي في الجنة كهاتين، فإن كن ثلثا فهو مفرح، وإن كن أربعا أو خمسا فيا عباد الله! أدركوه أقرضوه ضاربوه" (٢).

وأولت الشريعة المرأة اهتماماً خاصاً في العدالة بين الأبناء في العطاء ، وفي تكريمها منذ ولادتها ، وفي تحفيز الإنفاق عليها بما لم تصل إليه أية قوانين حديثة تختص بحقوق المرأة ، وإذا كانت النساء في العصر الحاضر يشعرون بكثير من الحرية ، فذلك بفضل الإسلام الذي حررهن من ظلمات الجاهلية ، وكرمهن بكل المعاني الإنسانية من العطف والعدل والاحترام:

- فعن يحيى بن أبي كثير قال : " قال رسول الله ﷺ : سوا بين أولادكم في العطيّة، فإنني لو كنت مؤثراً أحداً على أحد لآثرت النساء على الرجال" (٣).
- وعن ابن عباس قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " مَنْ كَانَتْ لَهُ أُنْثَى فَلَمْ يَبْذُهَا وَلَمْ يَهْنِهَا، وَلَمْ يُؤَثِّرْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا - قَالَ : يَعْنِي الذُّكُورَ - أَذْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ " (٤).
- وعن موسى بن علي قال : سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ : بَلَغَنِي عَنْ سُرَّاقَةَ بِنِ مَالِكٍ يَقُولُ : أَنَّهُ حَدَّثَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ : يَا سُرَّاقَةُ أَلَا أَذُوكَ عَلَى أَكْظَمِ الصَّدَقَةِ؟ - أَوْ مِنْ أَكْظَمِ الصَّدَقَةِ - قَالَ : " بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ ﷺ : ابْنَتُكَ مَرْدُودَةٌ إِلَيْكَ، لَيْسَ لَهَا كَاسِبٌ غَيْرُكَ " (٥).

(١) أخرجه مسلم كتاب البر، باب فضل الإحسان إلى البنات (٢٦٣٠) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٢ / ٣٨٥ ، والهيتمي في مجمع الزوائد ، باب منه : في الأولاد والأقارب وفضل النفقة عليهم ١٥٧/٨ ، وقال : رواه الطبراني وفيه يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو ضعيف .

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في السنن ١ / ١١٩ .

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في فضل من عال يتيما (٥١٤٦) والمنذرى في الترغيب والترهيب

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٧٥/٤ ، وابن ماجه في الأدب (٣٦٦٧) .

الفصل الثاني

حقوق المرأة في مرحلة الشباب

اهتم الإسلام بالمرأة في مرحلة شبابها فوضع الضوابط العادلة التي تحفظ لها حقوقها وكرامتها، وأنوثتها ولا تجعلها مطمعا للناس، لقد وضعت الشريعة للمرأة حقوقاً في مرحلة شبابها تناسب مع حيويتها وأنوثتها ودورها المستقبلي في إعداد كوادر الأمة، وسوف نعرض تلك الحقوق -إن شاء الله تعالى- فيما يلي:

أولاً: حق المرأة في طلب العلم

لا أحد ينكر أن الإسلام دين الحياة القائمة على العلم، وأن الإيمان بالله يتطلب أولاً وقبل كل شيء العلم. قال تعالى في كتابه الكريم: (أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ) (الزمر ٩)

فالعلم هو شعاع النور، الذي يفصل بين الحق والباطل، وهو أساس التمييز، لاستكشاف ما في الكون من أسرار الله، حتى تكون خطوات المؤمن بأقدام ثابتة، على طريق الخير والمنهج القويم. ولذلك فلا عجب أن كانت أول آية نزلت على سيدنا محمد ﷺ هي "اقرأ" لأن القراءة تؤدي إلى التعلم، والعلم هو معراج المؤمن الروحي والمادى، فلا عمران للكون ولا تنمية بدون علم، ولا معرفة لله حق معرفته بدون علم، ولا إقامة لشرع الله الحكيم بدون علم.

- فغن معاذ بن جبل ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: "تعلموا العلم، فإن تعلمه الله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قرينة: لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء. يرفع الله به أقواماً، فيجعلهم في الخير قائمة تقتص آثارهم، ويُقتدى بفعالهم، ويُنتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلعتهم، وبأجنتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، التفكير فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل

القيام، به توصل الأرحام، وبه يُعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابعه، يُلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء^(١).

ونظراً لتلك الأهمية العظيمة للعلم، التي أرستها شريعة الإسلام، وسار على نهج تدعيمها الرسول الكريم، فإن المرأة لم تُحرم من ذلك المنهل العذب، بل هو أمر أصدره الله إليها، لدورها العظيم في إعداد الأجيال، فهي هو جل شأنه يخاطب مريم ابنة عمران، بأن تنهل من مناهل العلم، لأنها ستوئل لإعداد نبي كريم، فلا بد أن تكون على مستوى تلك المسئولية الخطيرة. فيقول لها في كتابه الكريم: (يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ) (آل عمران ٤٣)

ثم مدحها هي وامرأة فرعون في موضع آخر؛ لأنهما آمنتا الإيمان الحق القائم على العلم اليقيني، فتحملتا كل الصعاب، واستلذتا كل المشاق، في سبيل ما علمتاه، من الجزاء الأوفى عند لقاء الله، وكانتا المثل الأعلى للمؤمنين في كل زمان ومكان، سواء الرجال أو النساء: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِّنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِّنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِن فَحْشَىٰ كَثِيرٍ مِّنَ الْأُنثَىٰ) (التحریم ١١، ١٢).

إن العلم للمرأة ضرورة حيوية، ينصلح بها شأن الأمة الإسلامية، وتصبح قادرة على مواجهة التحديات، التي تحيط بها من كل جانب، كما فعلت النساء الأوليات، حيث كن يحتشدن لسماع النبي ﷺ والصلاة معه لأجل التعلم: فعن أبي سعيد الخدري قال: قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال هن: "ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجابا من النار"، فقالت امرأة: واثنين؟ فقال: "واثنين" (٢).

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (١ / ٥٢) عن معاذ، وقال: رواه ابن عبد البر النمري في كتاب العلم من رواية موسى بن محمد بن عطاء القرشي حدثنا عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن الحسن عنه وقال هو حديث حسن ولكن ليس له إسناد قوي وقد رويانه من طرق شتى موقوفاً كذا قال رحمه الله ورفعاه غريب جداً.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب، هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم (١٠١) عن أبي سعيد الخدري قال: قالت النساء للنبي ﷺ: به.

- وعن أنس أن رسول الله ﷺ كان في داره فدخل عليه نسوة من قريش يسألنه ويستخبرنه رافعات أصواقهن، فأقبل عمر فاستأذن، فلما سمعن صوت عمر بادرن الحجاب، فأذن لعمر فدخل، فاشتد ضحك النبي ﷺ، فقال عمر: أضحك الله سنك يا نبي الله! مم ضحك؟ قال: "لا إلا أن نسوة من قريش دخلن علي يسألنني ويستخبرنني رافعات أصواقهن فوق صوتي، فلما سمعن صوتك بادرن الحجاب"، فقال عمر: "يا عدوات أنفسهن! تخبني وتجتري على نبي الله ﷺ؟ قالت امرأة منهن: إنك أظف وأغلظ، فقال نبي الله ﷺ: مه عن عمر! فوالله ما سلك عمر واديا قط فسلكه الشيطان" (١).

والعلم علمان: علم أحكام الدين: وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، لأنه ليس له حدود، فليغتفر الجميع من معين الوحي الإلهي الذي لا ينضب، ولنا أسوة حسنة في نساء النبي ﷺ الذي صدر لهن الأمر الإلهي: (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا) (الأحزاب: ٣٤).

والعلم الدنيوي: وهو فرض كفاية، فلتغتفر منه المؤمنات الصالحات، بما يصلح أحوالهن، وأحوال أبنائهن، ورقى أمتهن، بدون التنافس مع الرجال في مجال العمل، وطلب مساواة تشقيهن في حياتهن بعد ذلك، فالأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، فلتكن نيتهن صالحة في طلب العلم، لبناء أمة الإسلام، بما يتفق مع ظروفهن وتعاليم الشرع الحكيم.

ذكر البلاذري في فتوح البلدان: نساء مسلمات تعلمن القراءة والكتابة، يبلغ عدد المعروف منهن، نصف عدد المعروف من الرجال والكتاب.. وروى أن الشفاء العدوية (من قبيلة بنى عدي رهط عمر بن الخطاب) طلب إليها النبي أن تعلم زوجها أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب تحسين الخط وتزيين الكتابة (٢).

لقد بلغ التعلم في المجال النسائي حدًا كبيراً، جعل النساء يشاركن الرجال تبعة الزحف بالإسلام نحو الخافقين.. وشاركت النساء في بيعة العقبة الأولى والثانية، وفي تعليم النساء والنشء تعاليم الدين الحنيف ومبادئ الحياة، التي تساعد على تكوين أمة إسلامية قوية. وروى عائشة أكثر من مائتين وألفي حديث، وأختها أسماء روت ٥٦ حديثاً، وغيرهن كثيرات، نأخذ عنهن سنة النبي ﷺ.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٣٣٢/٨.

(٢) المرأة في التصور الإسلامي، عبد المتعال محمد الجبري - مكتبة وهبة.

ويروى عن أم الدرداء الفقيهة الزاهدة: حضها على العلم وتفضيله على كل ما سواه. إذ تقول: لقد طلبت العبادة في كل شيء، فما أصبت لنفسى شيئاً، أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم. وقد وصفها النووى بقوله: "اتفقوا على وصفها بالفقه والعقل والفهم".

قال الأستاذ صلاح عبد العزيز، العميد السابق لمعهد التربية العالى للمعلمين فى كتابه "تطور النظرية التربوية":

"والأمثلة كثيرة على النساء العربيات المسلمات، اللواتى تعلمن القراءة والكتابة والنحو، وروين الحديث، بل كثيرة على أنهن لم يتعلمن فقط، وإنما كن يعلمن غيرهن، وكان ممن درس عن النساء، بعض مشاهير الرجال".

وقد ورد فى كتاب "تهذيب الأسماء" للنووى: أسماء بعض أولئك النساء اللاتى تولين هذه الرسالة، وكان ينظر إليهن بعين التيجيل والإعجاب. وفى اهتمام مؤلفى العرب بتسجيل أسماء أولئك السيدات، دليل قوى على تقديرهم لعلمهن، وعلى إيمانهم بأن جهودهن فى نشر العلم جديرة بالتسجيل.

وقال الأستاذ صالح عبد العزيز: "لم تقتصر النساء على الدراسة، بل قمن إلى جانبها بالأشغال المنوعة، فكن يشاركن الرجال فى مهن مختلفة، كالتدريس والطب والقضاء، وشغل الوظائف الهامة فى الخدمة المدنية".

والمراد بالقضاء ما كان يختص بشئون النساء، وفى غير الجنائيات عند من أجاز لهن ذلك^(١).

هذا هو الإسلام وعظمته فى تحرير المرأة، وصقل شخصيتها بالعلم. فيا ليت نساء هذا العصر يعرضن على دينهن بالنواجذ، وبعد ذلك يخضن أى ميدان شتى، مادمن يعرفن حدودهن، القائمة على معرفتهن لشرع الله الحكيم، وهنا لن يُخشى على النساء من الانحراف، ولا على الرجال من الفتنة، ولا على الأسر من التشتت؛ لأن المرأة المسلمة ستعرف حقوق أسرتها حق المعرفة، وسيشيع نورها عليها أولاً، فإذا بقى لها مزيد من الجهد والطاقة فحسب التدرج الإسلامى فى البر والأوامر التشريعية، سوف ينتشر نورها إلى مجتمعاتها.

(١) تطور النظرية التربوية. الأستاذ صالح عبد العزيز.

ونحن نتمنى في عصر الإعلام الزائف، وتعدد متع الحياة المغربية حالياً: أن نجد المرأة المتدينة المثقفة، التي يكون لرأيها وزن حقيقي، وأهمية ملحة مثل ملكة سبأ، التي حدثنا عنها المولى عز وجل في كتابه الحكيم: (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ) (النمل ٣٢، ٣٣).

فرغم تعدد المعاهد والجامعات، وانتشار دور العلم اللاتي تتعلم فيها الفتيات، إلا أننا لا نملك نساء على مستوى عقل وإيمان النساء المسلمات الأوليات، وهذا أكبر دليل على أن الإسلام بُراء مما يوجهونه إليه من قهم، ما أنزل الله بها من سلطان. فالإسلام هو دين العقل والروح، دين الحرية والعقيدة القيمة، دين المبادئ العريقة والأهداف الراقية، دين الحضارة للشعوب والأمم. ويا ليت قومي يعلمون!!

ثانياً: حرية المرأة في الحفاظ على أنوثتها

وجمالها بالضوابط الشرعية

إن من أعظم الدلائل على مرونة الشريعة في مواجهة النوازع الفطرية للمرأة: حرص الشريعة على جمالها وأنوثتها ودعوة الرسول ﷺ النساء إلى التجمل والتزين طالما أن هذا سيكون في بيتها لمخارمها. أما عرض الزينة لغير محارمها؛ فهو حرام كما أخبر عز وجل في قوله: (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْآرَبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بَأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (النور: ٣١).

ونرى فُجح السنة في الحفاظ على مظاهر جمال المرأة فيما يلي:

شجع رسول الله ﷺ النساء على الخضاب للحفاظ على أنوثتهن:

- فعن عائشة رضي الله عنها أن هنداً بنت عتبة قالت: يا نبي الله بايعني، قال: لا أباعك حتى تغيري كفيك كأنهما كفا سبع^(١).

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤١٦٥).

- روى أن عائشة كانت تنهى المرأة ذات الزوج أن تدع ساقها لا تجعل فيهما شيئا، وإنها كانت تقول: لا تدع المرأة الخضاب فإن رسول الله ﷺ وسلم كان يكره الرجل (١).
- وعن عمر أنه خطب فقال: يا معشر النساء! إذا اختضبتن فإياكن والنقش والتطريف! ولتخضب إحداكن يديها إلى هذا - وأشار إلى موضع السوار (٢).
- وسمح الرسول ﷺ للنساء بلبس الحللي لميلهن الفطري لذلك:
- فعن حسين بن عبد الله قال: دخلت على فاطمة بنت علي وعليها مسكة من عاج وفي عنقها خيط من خرز فقالت: إن أبي حدثني أن رسول الله ﷺ كره التعطل للنساء (٣).
- وقال ﷺ: "إن هذين حرام على ذكور أمتي، حل لإنائهم يعني الذهب والحرير" (٤).
- كما سمحت الشريعة للمرأة بالتجمل والتعطر؛ طالما أنها مع محارمها، وبعيدة عن فتنة الرجال: عن أم جميلة أنها دخلت على عائشة فقالت لها إني امرأة أدوي من الكلف من الوجه وقد تأثمت منه فأردت تركه فما تأمريني؟ فقالت لها عائشة: لقد كنا في زمان النبي ﷺ لو أن إحدانا كانت إحدى عينيها أحسن من الأخرى فقل لها انزعها وحولها مكان الأخرى وانزع الأخرى فحولها مكانها ثم ظننته أن ذلك يسوغ لها ما رأينا به بأسا فإذا زاولت فراولها وهي لا تصلي (٥).
- عن أنس أن النبي ﷺ أرسل أم سليم تنظر إلى جارية فقال: شمي عوارضها، وانظري إلى عرقوبها (٦).

- (١) أخرجه أبو داود في السنن ٦٠/٤ - (الرجلة: وفي الحديث (لعن المترجلات من النساء) يعني اللاتي يتشبهن بالرجال في زيهن وهأقم فاما في العلم والرأي فمحمود. وفي رواية (لعن الرجل من النساء) بمعنى المترجلة. ويقال: امرأة رجلة؛ إذا تشبهت بالرجال في الرأي والمعرفة ومنه الحديث (إن عائشة كانت رجلة الرأي). النهاية (٢٠٣/٢).
- (٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٣١٨/٤.
- (٣) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٣٩٦/١٠ - (التعطل: ومنه حديث عائشة رضي عنها (كرهت أن تصلي المرأة عطلا ولو أن تعلق في عنقها خيطا) وحديثها الآخر (ذكر لها امرأة ماتت فقالت عطلوها) أي انزعوا حللها واجعلوها عاطلا، وعطلت المرأة إذا نزع حليها. النهاية (٢٥٧/٣).
- (٤) أخرجه أبو داود كتاب اللباس باب في الحرير للنساء رقم ٤٠٥٧ والنسائي في الزينة رقم ٥١٤٧.
- (٥) أخرجه أبو داود في السنن ٨٣/١.
- (٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٣١/٣، والحاكم في المستدرک ١٦٦/٢ - (عرقوبها: العرقوب: عصب موثق خلف الكعبين والجمع عراقيب مثل عصفور وعصافير. أهـ صفحة ٥٥٥ المصباح.

وفى الرسول ﷺ المرأة أن تحلق رأسها حفاظاً على جمالها وأنوثتها:

- فعن ابن عباس قال: ففى رسول الله ﷺ أن تحلق المرأة رأسها، وقال: الخلق مثله (١).
وبلغ حرص السنة على أنوثة المرأة إلى أقصى مدى؛ حيث حرمت عليها أن تشبه بالرجال سواء في المظهر الخارجي أو المعنوي حتى لا تتميع شخصية كل منهما وتضيع هويتهما وبالتالي وظائف كل منهما في الحياة:

- عن ابن أبي مليكة قال: قيل لعائشة رضي الله عنها إن امرأة تلبس النعل فقالت: لعن رسول الله ﷺ "الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل" (٢).
- وقال ﷺ: "لعن الله المخنث من الرجال والمترجلات من النساء" (٣).
- وقال ﷺ: "ليس منا من تشبه بالرجال من النساء ولا من تشبه بالنساء من الرجال" (٤).

- وقال ﷺ: أربعة لعنوا في الدنيا والآخرة، وأمنت الملائكة: رجل جعله الله ذكراً فأنت نفسه وتشبه بالنساء، وامرأة جعلها الله أنثى فتذكرت وتشبهت بالرجال، والذي يضل الأعمى، ورجل حصور؛ ولم يجعل الله حصوراً إلا يحيى ابن زكريا (٥).

ثالثاً - حق المرأة فى تيسير زواجها

إن الزواج هو حصن المرأة الحصين، وهو السياج المنيع الذى يحمى المجتمعات من انحرافات الشباب.. لذلك فقد حرصت الشريعة الإسلامية حرصاً بالغاً على تيسير زواج المرأة، بما يحقق لها الإشباع العاطفى اللازم لغرائزها وفى نفس الوقت يضمن لها الأمان المعنوى (٦).

وهكذا فإن منهاج الإسلام فى حفظ حقوق المرأة فى هذا المجال، تعجز عنه كل قوانين حقوق الإنسان، حيث حافظ على عفافها، وحافظ على اختيار الزوج الصالح لها، وسارع

(١) أخرجه الترمذي فى السنن ٩١٤، ٩١٥، والنسائي فى السنن ١٣٠/٨.

(٢) أخرجه أبو داود كتاب اللباس باب فى لباس النساء رقم ٤٩٨؟؟.

(٣) أخرجه البخاري كتاب اللباس باب المتشبهون ٢٠٥/٧.

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٢٠٠/٢، وأبو نعيم فى الحلية ٣٢١/٣.

(٥) أخرجه الطبراني فى الكبير ٣٤٢/٨ - (حصور: الذى لا يأتي النساء، سمى به لأنه حبس عن الجماع ومنع.

أهـ ٣٩٥/١ النهاية.

(٦) الحلال والحرام فى الإسلام. دار يوسف القرضاوى - الناشر مكتبة وهبة دراسات فى أحكام الأسرة. دز

محمد بلتاجى عميد كلية دار العلوم جامعة القاهرة. الناشر مكتبة الشباب.

في تيسير فرص الزواج لها، وكذا تيسير مدة العدة لها في حالة الوضع، بدون تعنت يعطل مسيرة حياتها. وهذا ما سوف نتبينه بوضوح من النهج النبوي الذي طبقه الخلفاء الراشدون فيما يأتي:

نهج الشريعة في الحفاظ على سمعة المرأة:

- عن الشعبي أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب، فقال: إن لي ابنة كنت وأدتها في الجاهلية، فاستخرجناها قبل أن تموت، فأدركت معنا الإسلام فأسلمت، فلما أسلمت أصابها حد من حدود الله تعالى، فأخذت الشفرة لتذبح نفسها فأدركناها، وقد قطعت بعض أوداجها، فدأويناهما حتى برئت، ثم أقبلت بعد بتوبة حسنة وهي تخطب إلى قوم فأخبرهم من شأنها بالذي كان؟ فقال عمر: أتعمد إلى ما ستر الله فتبديه؛ والله لئن أخبرت بشأنها أحداً من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار، بل أنكحها إنكاح العفيفة المسلمة (١).

نهج النبوة في تشجيع الإسراع بزواج المرأة:

- عن سهل بن معاذ، أن رسول الله ﷺ قال: "من زوج بنتاً توجه الله يوم القيامة تاج الملك" (٢).

- عن أبي موسى قال: قال النبي ﷺ: "إِذَا أَعْتَقَ الرَّجُلُ أَمَتَهُ ثُمَّ تَزَوَّجَهَا بِمَهْرٍ جَدِيدٍ كَانَ لَهُ أَجْرَانِ (٣). عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال له: "يا علي ثلاثة لا تؤخرها: الصلاة إذا أتت، والجنابة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت كفواً" (٤).

- عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: كانت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل تحت عبد الله بن أبي بكر فجعل لها طائفة من ماله على أن لا تتزوج بعده ومات، فأرسل عمر إلى عاتكة أنك قد حرمت ما أحل الله لك فردى إلى أهله المال الذي أخذته وتزوجي، ففعلت فخطبها عمر فنكحها (٥).

(١) انظر كتاب الزهد لهناد ٦٤٧/٢.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب من كظم غيظاً (٤٧٧٧) والقضاعي في مسند الشهاب (٢٦٩/١).

(٣) أخرجه أحمد في مسند ٤ / ٤٠٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٧ / ١٢٨.

(٤) أخرجه الترمذي في السنن ١٧١، ١٠٧٥، والبيهقي في السنن ٧ / ١٣٣.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٤ / ١٨٧.

- عَنْ ابْنِ شَهَابٍ قَالَ : حَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ أَنَّ أَبَاهُ كَتَبَ إِلَى عُمَرَ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَرْقَمِ الزُّهْرِي يَأْمُرُهُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى سَيِّعَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ الْأَسْلَمِيَّةِ فَيَسْأَلَهَا عَنْ حَدِيثِهَا وَعَنْ مَا قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ اسْتَفْتَتْهُ ، فَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَرْقَمِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ يُخْبِرُهُ أَنَّ سَيِّعَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ أَخْبَرَتْهُ : أَلَّهَا كَانَتْ تَحْتَ سَعْدِ ابْنِ خَوْلَةَ - وَهُوَ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤْيٍ ، وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا - فَتَوَفَّى عَنْهَا فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ وَهِيَ حَامِلٌ ، فَلَمْ تَنْشَبْ أَنْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نَفْسَاهَا تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَّابِ ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكِكَ - رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ - فَقَالَ لَهَا : مَا لِي أَرَاكَ تَجَمَّلْتِ لِلْخُطَّابِ ؟ تُرَجِّينَ النِّكَاحَ ؟ فَإِنَّكَ وَاللَّهِ مَا أَلْتَ بِنَاكِحَ حَتَّى تَمُوتَ عَلَيْكَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ ، قَالَتْ سَيِّعَةُ : فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ جَمَعْتُ عَلَى نِيَابِي حِينَ أَمْسَيْتُ وَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَأَقْتَنِي بِأَلِّي قَدْ حَلَلْتُ حِينَ وَضَعْتُ حَمْلِي ، وَأَمَرَنِي بِالتَّزْوُجِ إِنْ بَدَأَ لِي (١).

نهج النبوة في اختيار الزوج الصالح:

- قال ﷺ : " إِذَا جَاءَكُمْ الْأَكْفَاءُ فَأَنْكِحُوهُمْ وَلَا تَرَبَّصُوا بِهِمُ الْخِطَابَانِ " (٢).

- قال ﷺ : " إِذَا أَتَاكُمْ مِنْ تَرْضَوْنَ خَلْقَهُ وَدِينَهُ وَفُروُجَهُ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ " (٣). عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ : أَنَّ أَبَا عُمَرَ بْنَ حَفْصٍ طَلَّقَهَا الْبَتَّةَ وَهُوَ غَائِبٌ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا وَكَيْلُهُ بِشَعِيرٍ فَسَخَطَتْهُ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا لَكَ عَلَيْنَا مِنْ شَيْءٍ ، فَبَجَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : " لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِ نَفَقَةٌ ، فَأَمَرَهَا أَنْ تَعْتَدُ فِي بَيْتِ أُمِّ شَرِيكِ ، ثُمَّ قَالَ : تِلْكَ امْرَأَةٌ يَغْشَاهَا أَصْحَابِي ، اعْتَدِي عِنْدَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ أَعْمَى تَضَعِينَ نِيَابَكَ ، فَإِذَا حَلَلْتَ قَاذِنِي . قَالَتْ : فَلَمَّا حَلَلْتُ ذَكَرْتُ لَهُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ وَأَبَا جَهْمٍ خَطَبَانِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ ، وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُغْلُوكُ لَا مَالَ لَهُ ، الْكُحْيِيُّ أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَكْرَهُتُهُ ، ثُمَّ قَالَ : الْكُحْيِيُّ أَسَامَةُ فَتَكَحَّتُهُ ، فَبَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا وَاعْتَبَطْتُ (٤) . - وَقَالَ ﷺ : لَا تَنْكِحُوا النِّسَاءَ إِلَّا الْأَكْفَاءَ وَلَا تَزَوِّجُوهُنَّ إِلَّا الْأَوْلِيَاءَ ، وَلَا مَهْرَ دُونَ عَشْرَةِ دِرَاهِمٍ (٥) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه المغازي، باب فضل من شهد بدرا (٣٩٩١) ومسلم في الطلاق، باب انقضاء

عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل (١٤٨٤) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ١٧٦/٢ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٩٦٧)، والحاكم في المستدرک ١٦٩/٢ .

(٤) أخرجه مسلم في الطلاق، باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها (٣٦، ٤٧)، والإمام أحمد في مسنده ٤١٢/٦ .

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرک ١٦٧/٢، وذكره البيهقي في السنن الكبرى ١٣٣/٧ .

- عن عمر قال: لأمنعن تزوج ذوات الأحساب من النساء إلا من الأكفاء (١).

نهج النبوة في تيسير الصداق:

- عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ مِنْ يُمْنِ الْمَرْأَةِ: تَيْسِيرَ خَطْبَتِهَا، وَتَيْسِيرَ صَدَاقِهَا، وَتَيْسِيرَ رَحِمِهَا" (٢).

- عن علي قال: أردت أن أخطب إلى رسول الله ﷺ ابنته فقلت: مالي من شيء ثم ذكرت صلته وعائنته؛ فخطبها إليه، فقال: هل لك من شيء؟ قلت: لا، قال: فأين درعك الحطمية التي أعطيتك يوم كذا وكذا؟ فقلت: هي عندي، قال: فأعطها، فأعطيتها إياها فزوجنيها؛ فلما أدخلها علي قال: لا تحدثا شيئا حتى آتيكما، فجاءنا وعلينا كساء أو قطيفة، فلما رأيناها تحشحنا فقال: مكانكما! فدعا ياناء فيه ماء فدعا فيه ثم رشه علينا، فقلت: يا رسول الله! أهي أحب إليك أم أنا؟ قال: "هي أحب إلي منك وأنت أعز إلي منها" (٣).

رابعاً: حريتها في اختيار شريك حياتها

لقد فرض الإسلام على الزوجة واجبات جليلة نحو زوجها، تصل إلى حد القداسة، وتقف بها على شفا حفرة من النار، إن هي قصرت في أداء تلك الواجبات؛ إنها حقاً أمانة عظيمة ومسئولية جسيمة، أوكلها الله إلى النساء، من خلال إطار العلاقة الزوجية: فلا يقبل منها صلاة ولا زكاة ولا صيام ولا حج، إلا بطاعة زوجها. وقدرتها على ذلك تعدل الجهاد في سبيل الله، وتفريطها فيه يعرضها إلى لعنة الله ورسوله، والملائكة والمؤمنين أجمعين. فكيف تقوم المرأة بذلك، إذا لم تكن راضية عن شريك حياتها، وتجدها معه الاطمئنان النفسي، والتجاوب الروحي والعقلي؟! فالإسلام إذاً كان قد فرض على المرأة تلك المسئولية الخطيرة، فهو أعطاها حقاً من الحقوق المصيرية، ألا وهو حق اختيار شريك حياتها، حتى تتوازن أمور الحياة، وتستقيم على النهج الذي أراده الله ورسوله: فالميزان الذي وضعه الله في الأرض، يستلزم تكافؤ السلطة مع المسئولية، وهذا هو منطق العدالة وشرع الحكم العدل.

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٥٢/٦.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٧٧/٦، والبيهقي في السنن الكبرى ٢٣٥ / ٧، وابن حبان في صحيحه ٩ /

(٣) أخرجه أبو داود في السنن ٢٤٠/٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٢٣٤/٧.

وجاء في كتاب للدكتور سعد الدين السيد صالح^(١): إن حق المرأة في اختيار شريك حياتها، نقطة يكثُر الجدل حولها، بين مؤيد ومعارض. وربما كان مصدر الجدل هو سوء الفهم، لبعض توجهات الرسول ﷺ: حيث يتمسك المعارضون لتقرير هذا الحق، بظاهر قول الرسول ﷺ: "أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل. فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها، فإن اشتجروا فالسلطان ولي من لا ولي له"^(٢).

وقد فهموا من هذا الحديث خطأ أن المرأة لا حق لها في إبداء الرأي والمشورة. وأن ما يفرضه ولي الأمر يجب عليها أن تمتثل له.

وليس هذا هو المعنى الصحيح لحديث رسول الله ﷺ.. فقد جاء هذا الحديث لكي يثبت حق الولي في المشورة، لا لينفي حق المرأة في إبداء رأيها.. ومن هنا اشترط الفقهاء رضا ولي أمرها، لأنه بعقله وحكمته، أقدر على فهم الأمور، وتغليب مصلحة البنت، وخوفاً من الوقوع في الخدور، حيث تتبع البنت أحياناً هواها، ولا تعرف مصلحتها، فتتخدع بمعمول الكلام، والوعود الخادعة.. ومن هنا كان لابد من اعتبار مشورة ولي الأمر.

ولكن إثبات هذا الحق لولي الأمر، لا ينفي حق المرأة في إبداء رأيها، وفي رفض من لا يكون مناسباً لها. وأنه ليس من حق ولي الأمر أن يجبرها على الزواج، من غير كفاء لها، أو يمنعها من زواج هو كفاء لها، ويهواه قلبها.

وفي ذلك نسجل ما جاء من أحداث، صحح منهاجها القرآن الكريم، أو السنة النبوية الشريفة، لتقوم الحياة على أسس متينة من الحق والعدل، مؤكدة حرية المرأة في تقرير مصيرها^(٣).

- عن الحسن قال: (... فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ...) (البقرة ٢٣٢) حدثني معقل بن يسار أنها نزلت فيه. قال: زوجت أختاً لي من رجل فطلقها. حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها، فقلت له: زوجتك وفرشتك وأكرمك، فطلقتها.. ثم جئت تخطبها. لا والله لا تعود إليها

(١) د. سعد الدين السيد صالح. دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع. "انتهى أختي المسلمة.. فقد خلطوا عليك الحقائق!!".

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب النكاح، ١٤ باب ما جاء لا نكاح إلا بولي (١١٠٢) عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال... به.

(٣) فقه السنة. الشيخ السيد سابق. دار الريان للتراث. مجلد (٢) الجزء السادس باب وجوب استئذان المرأة قبل الزواج.

أبداً. وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله هذه الآية (... فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ...) فقلت: الآن أفعل يا رسول الله. قال: فزوجتها إياه(١).

- وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: الشيب أحق بنفسها من وليها. والبكر تستأذن في نفسها وإذنها صممتها وفي رواية والبكر يستأمرها أبوها(٢) أى يطلب أمرها قبل العقد عليها.

- وعن حسناء بنت خدام أن أباه زوجها وهى ثيب، فأنت رسول الله ﷺ فرد نكاحها(٣).

- وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت: إن أبى زوجنى ابن أخيه، ليرفع بى خسيسته. قال: فجعل الأمر إليها، فقالت: قد أجزت ما صنع أبى، ولكن أردت أن أعلم النساء، أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء(٤). هذا هو شرع الله الحكيم، ومنهاجه القويم، وسنة نبيه الحبيب. فلا يوجد أدنى شك في حرية المرأة، في اختيار شريك حياتها، وتقرير مصيرها، أما موضوع الولي: فهو من باب إعزاز المرأة، ورفع مكانتها والحفاظ عليها، فلا تجلس يوم العقد مع رجال غرباء عنها، ولا تتعرض في اختيارها لمخاطر الهوى واندفاعاته، فيكون بجانبها من يساعدها في اتخاذ قرارها، ويشير عليها بما فيه مصلحتها، فالجتمع الإسلامى قائم على الشورى، التى تحمى من مخاطر الزلل.

ونسجل هنا حديثين آخرين، لتأكيد ما جاءت به الشريعة السمحاء في إعطاء الحرية للمرأة، في تقرير مصيرها، بما يتناسب مع أمانة المسئولية المنوطة بها:

- عن ابن عباس ؓ أن امرأة من خثعم أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله: أخبرنى ما حق الزوج على الزوجة، فإني امرأة أيم، فإن استطعت وإلا جلست أيماء. قال: فإن حق الزوج على زوجته، إن سألها نفسها وهى على ظهر قتب، أن لا تمنعه نفسها. ومن حق الزوج على الزوجة، أن لا تصوم تطوعاً إلا بإذنه، فإن فعلت، جاعت وعطشت

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح (٥١٣٠) عن الحسن: ... به.

(٢) أخرجه مسلم في النكاح (١٤٢١) والترمذي في النكاح (١١٠٨) والنسائي في النكاح (٣٢٠٦) وأبو داود في النكاح (٢٠٩٨).

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٣٩) والنسائي في النكاح (٣٢٦٨) وأبو داود في النكاح (٢١٠١).

(٤) أخرجه النسائي في النكاح (٣٢٦٩) وابن ماجه في النكاح (١٨٧٦).

ولا يقبل منها، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن فعلت، لعنتها ملائكة السماء وملائكة الرحمة وملائكة العذاب حتى ترجع". قالت: لا جرم ولا أتزوج أبداً^(١).

- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أتى رجل بابنته إلى رسول الله ﷺ فقال: إن ابنتي هذه أبت أن تتزوج، فقال لها رسول الله ﷺ: أطيعي أباك. "فقالت: والذي بعثك بالحق، لا أتزوج حتى تخبرني ما حق الزوج على زوجته؟ قال: حق الزوج على زوجته لو كانت به قرحة فلحستها، أو انتثر منخراه صديداً أو دماً ثم ابتلعت، ما أدت حقه، قالت: والذي بعثك بالحق لا أتزوج أبداً، فقال النبي ﷺ: لا تنكحوهن إلا بإذن^(٢).

إنها أسمى معاني الحرية، تُعرض أمامنا عبر شريعة الإسلام، فالرسول ﷺ لم يجبرها على الزواج، ولم يأمر ولى أمرها أن يجبرها على تغيير رأيها: إنها حرية الالتزام: فمن شاءت أن تتحمل تبعات الزواج المقدسة، عن طيب خاطر ويقين بأمانة المسؤولية، فلتتقدم بنفس راضية مطمئنة، وإلا فلا إكراه في الدين، بحيث لا تقع المرأة في مهالك عصيان الزوج، التي تجلب غضب الله ورسوله، لأنها خرجت عن طاعتها، وتنفيذ أوامر الشريعة التي آمنت بها.

ولن تتأتى تلك الموازين الغالية، إلا بناء على الحرية المدعمة بالدين والعقل. وهذا ما حرص عليه الرسول ﷺ في جهاده، لإرساء دعائم الإسلام ونشر دين الله.

كيف تختار المرأة الزوج الكفء:

يرى الإمام النورسي أن الدعامة الأساسي لتحرير المرأة، والانطلاق بها في آفاق واسعة، من الفعالية والطمأنينة، والسعادة الدنيوية والأخروية هي: ضرورة اختيار الزوج الكفء - بالاصطلاح الشرعي - حتى يراعى حقوقها الشرعية، ويكون لها رفيق حياة أبدية.

ولذلك ينصح الإمام النورسي المرأة المسلمة بما يلي:

- ألا تندفع إلى الزواج تحت دواعي أحاسيسها، ودوافعها النفسية، وميلها الفطري، لأن المرأة تتحمل مقابل اللذة التي تدوم عشر دقائق، آلام حمل حوالى عشرة أشهر، فضلاً عما تتحمله من مشقات طوال عشر سنوات من أجل طفلها. فإن لم يكن تلك التضحيات مقابل غاية سامية، فلا داعي لها.

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٢ / ٨٥).

(٢) أخرجه ابن حبان في موارد الظمان (١ / ٣١٤).

— ألا تتزوج المرأة تحت ضغط الحاجة إلى من يعينها في أمور العيش، لضعف خلقتها. فمن الأولى أن تسعى لكسب نفقتها بنفسها، أفضل من أن تدفعها تلك الحاجة إلى الرضوخ لسيطرة زوج، نشأ على تربية غير إسلامية، واعتاد على الإكراه والفساد. وربما تحاول الزوجة كسب رضاه بالتصنع وبالإخلال بعبادتها وأخلاقها، التي هي مدار حياتها الدنيوية والأخروية.

— ألا تتزوج تحت ميلها الفطري إلى حب الأولاد وملاطفتهم، فالتربية الأوروبية التي حلت محل التربية الإسلامية في الوقت الحاضر، تجعل واحداً أو اثنين من كل عشرة أبناء، ابناً باراً بوالديه، يسجل حسنات في صحيفة أعمالها، بأدعيته الطيبة وأعمال البر، ويشفع لها — إن كان صالحاً — يوم القيامة. لذا فإن هذا الميل الفطري والشوق النفساني، في حب الأولاد ومداعتهم، لا ينبغي أن يدفع المرأة إلى تحمل مصاعب الحياة الشاقة، بدون مقابل أخروي^(١).

وما ذكره الإمام النورسي هو كلام استقاه من نبع السنة النبوية، وهذا ما نلاحظه في الأحاديث التالية: — عن طلحة بن عبيد الله قال: خطب عمر بن الخطاب أم أبان بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فأبته، فقليل لها: ولم؟ قالت: إن دخل دخل ببأس وإن خرج خرج ببأس، قد داخله أمر أذهله عن أمر ديناه كأنه ينظر إلى ربه بعينه؛ ثم خطبها الزبير بن العوام فأبته، فقليل لها: ولم؟ قالت: ليس لزوجه منه إلا شارة في قراملها؛ ثم خطبها علي فأبته، فقليل لها: ولم؟ قالت: ليس لزوجه منه إلا قضاء حاجته ويقول: كنت وكنت وكان وكان؛ ثم خطبها طلحة فقالت: زوجي حقاً، فقليل: وكيف ذلك؟ قالت: إني عارفة بخلائقه، إن دخل دخل ضحاکا وإن خرج خرج بساما، إن سألت أعطى، وإن سكت ابتدأ، وإن عملت شكر، وإن أذبت غفر؛ فلما أن ابنتي بها قال علي: يا أبا محمد! إن أذنت لي أن أكلم أم أبان! قال كلمها، فأخذ سجع الحجلة ثم قال: السلام عليك يا عزيزة نفسها! فقالت: وعليك السلام، قال: خطبك أمير المؤمنين وسيد المسلمين فأبته، قالت: كان ذلك، قال: وخطبك الزبير ابن عمة رسول الله ﷺ وأحد حواريه فأبته، قالت: وقد كان ذلك، قال: وخطبتك أنا وقرايتي من رسول الله ﷺ قالت: قد كان ذلك، قال أما والله! لقد تزوجت أحسننا وجهاً وأسمحننا كفاً يعطي هكذا وهكذا^(٢).

(١) كليات رسائل النور " اللمعات " — بدیع الزمان سعید النورسی ز دار سوزلر للنشر والتوزیع.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ٤٢٥/٣ — سجع: السجع: الستر. النهاية ٣/٢٤٣.

- وعن فاطمة بنت قيس قالت: قال لي رسول الله ﷺ: "إذا حللت فأذني، فلما حللت أذنته قال: "من خطبك؟ قلت: معاوية ورجل آخر من قيس فقال: معاوية فإنه فتي من فتيان قريش لا شيء له، وأما الآخر فإنه صاحب شر لا خير فيه، فانكحي أسامة فكرهته فقال: انكحيه فنكحته(١).

ونعرض فيما يلي مزيدا من نهج النبوة في إرساء حرية المرأة في اختيار شريك حياتها:
- قال ﷺ: استأمروا النساء في أبضاعهن(٢). وقال ﷺ: تستأمر اليتيمة في نفسها، فإن سكنت فهو إذنها، وإن أبت فلا جواز عليها(٣). وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن، قيل: وكيف إذنها؟ قال: أن تسكت(٤). وعن جابر قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله عندنا يتيمة خطبها رجلان موسر ومعسر، وهي قهوى المعسر ونحن قهوى الموسر، فقال رسول الله ﷺ: لم ير للمتحابين مثل النكاح(٥). وعن زياد بن علفة قال: خطب رجل سيدة من بني ليث ثيبا، فأبي أبوها أن يزوجه، فكتب إليه عثمان؛ إن كان كفوءا فقولوا لأبيها أن يزوجه، فإن أبي أبوها فزوجوها(٦).

- وعن سهل بن سعد الساعدي أن امرأة جاءت النبي ﷺ فوهبت نفسها له، فصمت، ثم عرضت نفسها له، فصمت، فلقد رأيتها قائمة مليا تعرض نفسها عليه وهو صامت، فقام رجل أحسبه من الأنصار فقال: يا رسول الله! إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها، قال ألك شيء؟ قال: لا والله يا رسول الله! قال: اذهب فالتمس شيئا ولو خاقما من حديد! فذهب ثم رجع فقال: والله ما وجدت شيئا غير ثوبي هذا أشقه بي وبينها، فقال رسول الله ﷺ: ما في ثوبك فضل عنك، فهل تقرأ من القرآن؟ قال نعم، قال: ماذا؟ قال: سورة كذا وكذا وسورة كذا وكذا، قال: "اذهب فقد املكته بما معك من القرآن؛ فرأيتنه يمضي وهي تتبعه"(٧).

(١) أخرجه مسلم في الطلاق (٣٦، ٤٧)، والإمام أحمد في مسنده ٤١٢/٦.

(٢) أخرجه النسائي في السنن ٨٦/٦، والإمام أحمد في مسنده ٤٥/٦.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٢٠٩٣، ٢٠٩٤)، والإمام أحمد في مسنده ٢٥٩/٢.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب النكاح، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق والبكر بالسكوت (١٤١٩) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ... به..

(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٨٤٧)، والحاكم في المستدرک ١٦٠/٢.

(٦) أخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه ٢٨٤/٧.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه ١٩٧٣/٥.

ونرى تحضر الإسلام وسبق عصره أنه يحرص على نفسية المرأة وميلها إلى الرجل الحسن الشكل، وقد دعم هذا انتشار وسائل الإعلام، وظهور الرجال والنساء في أسمى صورة، ولذلك لا بد أن يكون الاختيار عن اقتناع وإلا تصدعت أركان الحياة الزوجية: - فعن عمر قال: لا تكرهوا فتياتكم على الرجل الدميم - وفي لفظ: القبيح - فإنهن يحببن مثل ما تحبون(١).

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٥٨/٦.

الفصل الثالث

حرية المرأة وحقها كزوجة وكأم

المبحث الأول: حريتها وحقها كزوجة

إن الدارس لشريعة الإسلام في حق الزوجة على زوجها، دراسة متأنية بعيدة عن التعصب والهوى، ليظهره إنصاف الإسلام للمرأة إنصافاً لم يحققه أية قوانين حضارية، إذ تتميز شريعة الحق بأنها وازنت بين الحقوق المادية والمعنوية للمرأة بما يحقق لها التوازن النفسي المطلوب، ولا يجعلها تلهث وراء الأطماع الدنيوية؛ فالعلاقة الزوجية على وجه الخصوص من أشد العلاقات تشابكاً وتعقيداً. ولن يسهل ذلك الشابك إلا قوانين الرحمة الإلهية، التي تجعل لكل من الزوجين حقوقاً وتفرض عليه واجبات. ونقصر أي من الطرفين في أداء واجباته، يعني بالتالي حرمان الآخر من حقوقه. ولذلك فإن الشريعة تدخلت بتعويض النقص في تلك الحقوق الدنيوية بحقوق أخروية، إذا تم الاحتساب عند الله واليقين بالعدالة الإلهية.

وسأعرض فيما يلي ما توصلت إليه، باجتهادي المتواضع، من حقوق الزوجة على زوجها، استنباطاً من الأحاديث الشريفة التي كانت منهاجاً تطبيقياً لدستور القرآن الحكيم.

أولاً: حقها في إشاعة جو المحبة والسلام في البيت

من حق الزوجة على زوجها إشاعة جو المحبة والسلام في البيت لتحقيق الأمن والطمأنينة لكل أفراد الأسرة.. وتهدف الشريعة بذلك إلى تحقيق السلام الاجتماعي في الأمة بأسرها، لأن الأسرة هي النواة الأساس للأمة (١).

وتتخذ السنة الشريفة لتحقيق هذا الهدف خطوات متعددة منها:

- ضرورة سلام الرجل على أهل بيته لأن هذا من دعائم الإسلام الأساس ومن مظاهر الحب والرحمة:

- يقول الرسول الكريم ﷺ: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم وتحج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتسليمك على أهل

(١) المرأة في التصور الإسلامي، د. عبد المتعال محمد الجبري، الناشر مكتبة وهبة-قضايا المرأة بين التقاليد الرائدة والوافدة، محمد الغزالي، دار الشروق- تحرير المرأة في عصر الرسالة، عبد الحليم أبو شقة، دار القلم، الكويت (عدة أجزاء).

بيتك، فمن انتقص شيئا منهم، فهو سهم من الإسلام يدعه، ومن تركهن فقد ولى الإسلام ظهره^(١)

ملاطفة الرجل لامرأته، ومن ذلك إطعامها الطعام في فمها بنفسه، وذلك فيه أجر إيمانى من الله:

- قال ﷺ: عجبت من قضاء الله للمؤمن، إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر، ويؤجر المؤمن في كل شيء، حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته^(٢).
أن يحقق الرجل معها المساواة في الطعام والشراب، وألا يعاملها معاملة مهينة من ضرب أو هجر، لأن العلاقة المقدسة التي بينهما تفرض الرحمة والحنان والاحترام:
- قال ﷺ: إذا أعطى الله أحدكم خيرا فليبدأ بنفسه وأهل بيته^(٣).

- عن حكيم بن معاوية القشيري عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله! ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تمجر إلا في البيت^(٤).

- قال ﷺ: أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد! يضربها أول النهار ثم يضاجعها آخره، أما يستحي^(٥).

- وسأل رجل الرسول ﷺ فقال: نساؤنا مانأى منها وما نذر؟ فقال ﷺ: حرثك، فأت حرثك أنى شئت، غير أن لا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تمجر إلا في البيت، وأطعم إذا طعمت، واكس إذا اكتسيت، كيف (وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا)^(٦).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ٧٠/١ و البيهقي في الشعب ٤٤٧/٦ والطبرانی في مسند الشاميين ٢٤١/١

عن أبي هريرة ؓ وحسنه محقق الترغيب والترهيب (برقم ٣٤٢٥)

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ٧٠/١ و البيهقي في الشعب ٤٤٧/٦ والطبرانی في مسند الشاميين ٢٤١/١

عن أبي هريرة ؓ، وحسنه محقق الترغيب والترهيب (رقم ٣٤٢٥).

(٣) أخرجه مسلم في (الإمارة، باب الناس تبع لقريش / ١٨٢٢) عن جابر بن سمرة ؓ.

(٤) أخرجه بطوله أحمد ٣/٥ والطبرانی في الأوسط ٢٧٥/٦ وابن عساكر ٩٥/١، وأخرجه مختصراً السائي في

الكبرى (٩١٨٠).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٤٤٢/٩ عن عروة عن أبيه.

(٦) أخرج هذه الرواية الطبري في تفسيره ٦٧/٥ والرويان في مسنده ١١٠/٢ عن هز بن حكيم.

وضرب لنا الرسول ﷺ المثل بنفسه في معاملة زوجاته بكل الحب والحنان فمنها طلبه من السيدة عائشة رضي الله عنها سرعة إنجاز الصلاة، لتأكل معه من الهدية التي رزقه الله بها: فعن عبد الملك بن أبي سليمان عن رجل من أهل البصرة، قال: أتى النبي ﷺ بهدية وعائشة قائمة تُصلي، فأعجبه أن تأكل معه، فقال: يا عائشة أجمعي وأوجزي، وقولي: اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، وما قضيت من قضاء فبارك لي فيه، واجعل عاقبته إلى خير (١). ومنها أنه ﷺ استشار السيدة عائشة رضي الله عنها في ملابسه التي يرتديها لتوطيد معاني المودة والألفة:

— فعن قتادة عن مطرف عن عائشة قالت: أهدى للنبي ﷺ شملة سوداء فلبسها وقال: كيف ترينها علي يا عائشة؟ قلت: ما أحسنها عليك يا رسول الله، تشرب سوادها ببياضك وبياضك بسوادها، قالت: فخرج فيها إلى الناس (٢).

ومنها أنه ﷺ كان يمزح مع نسائه بما يناسب الأدب الإيماني وروح العصر السائدة وقتها: وعن ابن عباس أن رجلاً سألَه فقال: أكان رسول الله ﷺ يمزح؟ قال: نعم، فقال رجل: ما كان مزاحه؟ فقال ابن عباس: كسا النبي ﷺ بعض نسائه ثوباً واسعاً، قال: البسيه، واحمدى الله، وجرى من ذيلك هذا كذيل العروس (٣).

وبين الرسول ﷺ أن حسن الخلق مع الزوجة علامة من علامات اكتمال الإيمان، وكان قدوة في ذلك لكل المؤمنين حرصاً على دعائم المحبة في الأسرة المسلمة:

— قال ﷺ: أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم (٤)

— وعن أبي عبد الله الجدلي قال: قلت لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ في أهله؟ قالت: كان أحسن الناس خلقاً، لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، ولا سخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلهما، ولكن يعفو ويصفح (٥).

(١) — أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١١٢/٦.

(٢) — عزاه في كنز العمال (١٨٥٢٨) لابن عساكر في تاريخه، وانظر تذيب تاريخ دمشق ٣٢٥/١.

(٣) — أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٦٧/٢٩ وضعفه.

(٤) — أخرجه بلفظه الترمذی (الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها / ١١٦٢) وأخرجه مختصراً أبو

داود في (السنن، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه / ٤٦٨٢) عن أبي هريرة ؓ.

(٥) — أخرجه أحمد ١٧٤/٦ وابن حبان ٣٥٤/١٤ و الترمذی في الشمائل (ص ٢٨٧) وابن راهويه في مسنده

- وعن عمرة قالت: سألت عائشة كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا مع نساءه؟ قالت: كان كالرجل من رجالكم، إلا أنه كان أكرم الناس، وألين الناس، ضحاکا بساما (١).
- قال ﷺ: "خيرکم خيرکم لأهله، وأنا خيرکم لأهلي" (٢).
- ومن أسباب إشاعة جو المحبة والسلام في المنزل أن يودع الرجل أهل بيته قبل سفره بالدعاء الذي يبين حرصه عليهم ومحبته لهم:
- قال ﷺ: "إذا أردت سفراً أو تخرج مكاناً فقل لأهلك: أستودعکم الله الذي لا تضيع ودائعه" (٣).
- وحذر الرسول ﷺ الرجال من ضرب النساء تحذيراً شديداً لأن ذلك يقطع أواصر المحبة والروابط الزوجية ويؤدي إلى انهيار الحياة العائلية التي يجب أن تقوم على المودة والرحمة:
- قال ﷺ: لقد طاف الليلة بآل محمد نساء كثير، كلهن تشكو زوجها من الضرب، وأيم الله لا تجدون أولئك خياركم (٤).
- وقال ﷺ لرجل يشكو طول لسان زوجته: مرها، فإن يك منها خير فستفعل، ولا تضرب ظعيتك كضرب أمتك. (٥)
- قال ﷺ: لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقا رضی منها غيره (٦).

-
- (١) عزاه في الكنز (١٨٧١٩) للحرائطي وابن عساكر
- (٢) أخرجه الترمذی وصححه في (المناقب ، باب فضل أزواج النبی ﷺ / ٣٨٩٥) عن السيدة عائشة — رضی الله عنها ، وأخرجه ابن ماجه (النکاح ، باب حسن معاشرۃ النساء / ١٩٧٨) عن ابن عباس ؓ.
- (٣) أخرجه ابن السنی فی عمل اليوم (٥٠١) وعزاه فی کنز العمال (١٧٤٧٤) للحکیم ، عن أبي هريرة ؓ.
- (٤) أخرجه ابن ماجه فی الموضع السالف ذكره (رقم ١٩٨٥) والحاكم وصححه فی المستدرک ٢٠٨/٢ والبيهقی فی الكبرى ٣٠٤/٧ وابن حبان ٤٣٣/٩ عن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب.
- (٥) أخرجه أبو داود مطولاً (الطهارة ، باب فی الاستنثار / ١٤٠) والحاكم وصححه فی المستدرک ١١٠/٤ وعبد الرزاق فی مصنفه ٢٧/١ وابن حبان ٣٣٣/٣ عن لقيط بن صبرة.
- (٦) أخرجه مسلم في (الرضاع ، باب الوصية بالنساء / ١٤٤٦٩) عن أبي هريرة ؓ.

- وقال ﷺ: يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد، ولعله يضاجعها من آخر يومه (١).

وبين الرسول ﷺ أن الضرب لا يجدي في الإصلاح، ولكنه يؤدي إلى تحطيم النفوس، وأنه يجب على الرجال أن يتعدون عن ذلك، حتى تستقيم الحياة الزوجية وتستمر:

- فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فإذا شهد امرأة فليتكلم بخير أو ليسكت، واستوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من الضلع، وإن أعوج شيء من الضلع رأسه، إن ذهب تقيمه كسرته، وإن تركته تركته وفيه عوج؛ فاستوصوا بالنساء خيراً (٢).

ثانياً - حقها في المداعبة والملاطفة:

تهدف الشريعة في كل أصولها وفروعها إلى تفجير المشاعر السامية في قلوب المؤمنين. وملاطفة الرجل زوجته، تدل على نبل العلاقة التي تربطهما، حيث تتوقف في المقام الأول على ألما علاقة وجدانية وليست جسدية. ولذلك فإن نهج السنة الشريفة يرسم حق المرأة في المداعبة والملاطفة بما يحقق أهداف الشريعة وهو ما نعرضه فيما يلي (٣):

يبين الرسول ﷺ أن ملاطفة الرجل لأهله، تضعه في مقام الخيرية الإيمانية، وألما من الله الذي ينبع من شريعة الحق:

- قال ﷺ: ارموا واركبوا، وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا، كل شيء يلهو به الرجل باطل، إلا رمى الرجل بقوسه أو تأديبه فرسه، أو ملاعبته امرأته، فإنهن من الحق، ومن ترك الرمي بعد ما علمه، فقد كفر الذي علمه (٤).

(١) أخرجه البخاري في (النكاح)، باب ما يكره من ضرب النساء / ٤٩٠٨) و مسلم في (الجنة وصفة نعيمها / ٢٨٥٥) عن عبد الله بن زمة.

(٢) أخرجه بتمامه مسلم في (الرضاع باب الوصية بالنساء / ١٠٩١/٢) وأخرجه البخاري مختصراً في (الأنبياء، باب خلق آدم / ٣٣٣١) عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) - المرأة في ظلال القرآن، عكاشة عبد المنان الطهي، دار الفضيلة.

(٤) - أخرجه أبو داود في (الجهاد، باب في الرمي / ٢٥١٣) وابن ماجه في (الجهاد، باب الرمي في سبيل الله / ٢٨١١) والترمذي وصححه في (فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله / ١٦٣٧) والحاكم وصححه في المستدرک / ١٠٤/٢ عقبه بن عامر ﷺ. وأخرج مسلم في (الإمارة، باب فضل الرمي في سبيل الله / ١٩١٩) عن عقبه بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: "من علم الرمي ثم تركه فليس منا و قد عصى".

ويضرب الرسول ﷺ مثالا بنفسه في كيفية ملاطفة أهله في إطار النهج النوراني الذي يربط بينهم، بما يحقق المشاركة الوجدانية والمحبة القلبية:

- عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يقول لي: ما فعلت أبيتك؟ فأقول: أى أبيت تريد؟ فإنها كثيرة، فيقول: فى الشكر، فأقول: نعم بأبى أنت وأمي، قال الشاعر:

ارفع ضعيفك لا يحرك بك ضعفه	يوما فيدركك العواقب قد غما
يجزيك أو يثني عليك وإن من	أثنى عليك بما فعلت كمن جزى
إن الكريم إذا أردت وصاله	لم تلف رثا حبله واهى القوى

قالت: فيقول: نعم يا عائشة، أخبرني جبريل، قال: إذا حشر الله الخلائق يوم القيامة، قال لعبد من عباده: اصطنع إليه عبد من عباده معروفاً، فهل شكرته؟ فيقول: أى رب علمت أن ذلك منك فشكرتك، فيقول: لم تشكرني إذا لم تشكر من أجريت ذلك على يديه (١).

- ويقول ﷺ لعائشة: إنى لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت علي غضبي، أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين لا ورب محمد! وإذا كنت علي غضبي قلت: لا ورب إبراهيم (٢).

- وعن عائشة: أن النبي ﷺ كان جالساً فسمع ضوضاء الناس والصبيان، فإذا حبشية تزفن والناس حولها، فقال: يا عائشة! تعالى فانظري، فوضعت خدى على منكبيه فجعلت أنظر ما بين المنكبين إلى رأسه، فجعل يقول: يا عائشة! ما شبت؟ فأقول: لا - لأنظر مترقتى عنده، فلقد رأيته يراوح بين قدميه: فطلع عمر، ففترق الناس عنها والصبيان، وقال النبي ﷺ: رأيت شياطين الإنس والجن فروا من عمر، فرجعت (٣).

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٥٠/٤، والصغير ٢٧٦/١.

(٢) - أخرجه البخاري في (النكاح، باب غيرة النساء ٥٢٢٨) ومسلم في (فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة ٢٤٣٩).

(٣) أخرجه الترمذي في (المناقب، باب مناقب عمر ٣٦٩١) والنسائي في الكبرى (عشرة النساء، باب إباحة الرجل لزوجته النظر إلى اللب) والبيهقي في الكبرى ٣٠٩/٥.

- وكانت عائشة مع رسول الله ﷺ في سفر فسابقته فاسبقته ، فلما حملت اللحم سابقته فسبقها ، فقال ﷺ: هذه بتلك السبقة (١).

وفي هذا دليل واضح على ما كان عليه رسول الله ﷺ من كرم الأخلاق وحسن المعاشرة مع الزوجة وتطبيب قلبها.

- جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا عائشة! أتعرفين هذه؟ قالت: لا يا نبي الله ، فقال: هذه قينة بنى فلان، أتحبين أن تغنيك؟ قالت: نعم، فغنتها، فقالت: لقد نفخ الشيطان في منخريها (٢).

وبين الرسول ﷺ كيف أن قبلة الرجل لامرأته لا تفطر الصائم، فهي كالأريج العطر الذي يعبر عن المعاني السامية التي جمعت بينهما:

- فعن عمر قال: هشتت إلى المرأة يوماً فقبلتها وأنا صائم، فأتيت النبي ﷺ فقلت: صنعت اليوم أمراً عظيماً، قبلت وأنا صائم، فقال رسول الله ﷺ: أرايت لو تميمضت بماء وأنت صائم؟ قلت: لا بأس بذلك، فقال رسول الله ﷺ: "فقيم؟" (٣).

ووضعت السنة الشريفة الحرج فيما يتعلق بمداعبة المرأة، حتى لا يكون ذلك عبئاً ثقيلاً على الرجل يضع حاجزاً بين عواطفه نحو امرأته، وبين واجبه الشرعي في الطهارة:

- فعن عليّ أنه قال للمقداد: سل لي رسول الله ﷺ عن الرجل يلاعب امرأته ويكلمها فيكون منه المذی، فإنه لولا ابنته تحق لسألته، فسأله المقداد فقال ﷺ: يغسل ذكره وأنثیه، ثم لينضح فرجه" (٤).

(١) أخرجه أبو داود في (الجهاد ، باب في السبق على الرجل / ٢٥٧٨) وابن ماجه في (النكاح ، باب حسن معاشره النساء / ١٩٧٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤٤٩/٣ ، والطبرانی في الكبير ١٥٨/٧ قال الهيثمي في المجمع (١٣٠/٨): رجال أحمد رجال الصحيح..

(٣) أخرجه أبو داود في (الصوم ، باب القبلة للصائم / ٢٣٨٥) والدارمی في (الصوم. باب الرخصة في القبلة للصائم / ١٧٢٤) والحاكم في المستدرک (٤٣١/١) وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي

(٤) أخرجه أبو داود في (الطهارة باب في المذی / ٢٠٨) وأخرجه بنحوه مسلم في (الحيض ، باب المذی / ٣٠٣).

- وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يتوضأ ثم يخرج إلى الصلاة فيقبلني ثم يمضي إلى الصلاة فما يحدث وضوءاً (١).

- وعن عائشة قالت: كنت أشرب في الإناء وأنا حائض، فأخذه النبي ﷺ فيضع فاه على موضع، في فيشرب، وكنت آخذ العرق فأنتهش منه، ثم يأخذه مني فيضع فاه على موضع في فينهنش منه (٢).

- وعن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يضع رأسه في حجرى وأنا حائض، ثم يقرأ القرآن (٣) وتبين السنة الشريفة أهمية المشاعر اللطيفة بين الزوجين لدرجة أن الله يعجب من مداعبة الرجل زوجته، ووضح في أحاديث متعددة ضرورة تلك المداعبة، وخاصة قبل المواقعة:

- عن جابر قال قال لي رسول الله ﷺ: "تزوجت بكراً أم ثيباً؟ قلت: ثيباً، قال: فهلا بكراً! تلاعبها وتلاعبك، وتضاحكها وتضاحكك" (٤) - كما فهمي ﷺ عن المواقعة قبل الملاعبة (٥).

ثالثاً - حقها في المساعدة على أعباء المنزل

كثير من الرجال يأنفون من التعاون مع الزوجة في أعباء المنزل، ويعتبرون أن هذا من واجبات المرأة، وليس على الرجال مسئولية في هذا المجال.، ويعتبر هذا الموضوع من المواضيع الحساسة، التي يكثر الخلاف عليها، حيث أوجب طائفة من السلف والخلف، خدمتها له في مصالح البيت وقال أبو ثور: عليها أن تخدم زوجها في كل شيء. ومنعت طائفة وجوب خدمته عليها في شيء، ومن ذهب إلى ذلك مالك والشافعي وأبو حنيفة، رحمهم الله، وأهل الظاهر قالوا: لأن عقد النكاح إنما يقتضى الاستمتاع، لا الاستخدام،

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٢٤٣/٨ وعبد الرزاق في مصنفه ١٢٥/١.

(٢) أخرجه مسلم في (الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها/ ٣٠٠).

(٣) أخرجه البخاري في (التوحيد، باب قول النبي الماهر بالقرآن مع السفرة/ ٧٩٥٤) ومسلم في (الحيض، باب الاضطجاع مع الحائض في لحاف واحد/ ٣٠١).

(٤) أخرجه البخاري في (المغازي، باب "إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا" رقم ٤٠٥٢) وبنحوه مسلم في (الرضاع، باب استحباب نكاح البكر/ رقم ٥٦ في الباب).

(٥) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ١٣/ ٢٢٠ عن جابر رضي الله عنه، وصححه السيوطي في الجامع الصغير (رقم ٩٣٩٢).

وبذل المنافع. قالوا: والأحاديث المذكورة على خدمة فاطمة لزوجها علي، وخدمة أسماء لزوجها الزبير، إنما تدل على التطوع، ومكارم الأخلاق منها^(١).
أما من أوجب خدمتها: فيحتجون بالحديث الشريف:

—عن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال حدثني أبي أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ... فقال: ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان عندكم، ليس تملكون منهن ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، فأما حقكم على نسائكم: فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم: أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن^(٢).

والعاني الأسير، ومرتبة الأسير خدمة من هو تحت يده.. فإننا نحاول الرد عليهم، بما تيسر لنا من الجهد، وبعون من الله وتوفيقه.

إن النبي الكريم عندما أوصى الرجال بالنساء، في كلمة اتقوا الله، فمعناه احرصوا على مرضاة الله في النساء، لأنهن بارتباطهن معكم بعقد الزواج، أصبحن لا يملكن من أمرهن ما كان قبل الزواج، حيث للزوج حقوق شرعية يجب مراعاتها، وأهلها الله لمهمة الحمل والإنجاب والرضاعة وتربية الأبناء، وكلها أمور شاقة تستوجب عون الزوج ورحمته بها، لأنه إذا أثقل عليها، أصبحت مثل السيدة التي استجارت في سورة المجادلة: لها أطفال إن تركتهم إلى أبيهم وهجرت المنزل ضاعوا، وإن ضمتهم إليها جاعوا. وهذا لا شك نوع من الأسر، لا بد معه من الرحمة والرفقة. والله وضع في كتابه الكريم قاعدة أساسية، تحكم سلوك البشر جميعاً: (لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاًّ وَنَفْسَهَا) (البقرة ٢٨٦)
وحق العبد الرقيق، أوصى به رسول الله ﷺ وطلب من المؤمنين أن يعاملوهم برفق، ولا يكلفوهم من الأعمال ما لا يطيقون:

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد. للإمام ابن القيم. الجزء الرابع. باب حكمه ﷺ في خدمة المرأة لزوجها، ص ٣٢.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الرضاع (١١٦٣) عن سليمان بن عمرو بن الأحوص قال حدثني أبي أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ... فقال: ... به . وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح

- وروى عن النبي ﷺ أنه قال: "إخوانكم جعلهم الله فتيّة تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه من طعامه، وليلبسه من لباسه، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه، فليعنه عليه"^(١).

هذا بالنسبة للعبد المملوك، فما بال المرأة الحرة، التي أقبلت على الزواج، إيماناً بالله واتباعاً لسنة رسول الله ﷺ، واستحل الرجل ما استحل منها بأمانة الله. وهي شريكة الحياة وصانعة الأجيال، فهل تفرض عليها الشريعة خدمة زوجها فرضاً، حتى لو كان عندها من الأعباء ما ينوء به كاهلها، والزوج قادر على إحضار خادم لها؟

إن شريعة الإسلام التي قوامها العدل والمساواة والحرية لا تفرض ذلك فرضاً على الزوجة، بل تجعله تطوعاً واختياراً، ومحبة وتعاوناً بين الزوجين، إذا ضاقت بهما السبل، وقصرت ميزانيتهم عن إحضار خادم. ورسول الله ﷺ نفسه وهو أشرف الخلق، كان يعمل عمل أهله: فيرفي ثوبه، ويخصف نعله، ويغسل ملابسه بيده، بل كان يكنس بيته أحياناً، كما جاء في السيرة النبوية. فأين هذا من رجال يجلسون في راحة، ويتركون زوجاتهم يعانين الأمرين من خدمة البيت، مدعين أن هذا اختصاصها، وأن الرجال قوامون على النساء. ونسوا أن القوامه معناها في المقام الأول مسئولية، وأن الله سائل كل راع عما استرعاه، حفظ أم ضيع.

ونرى هدي النبوة الشريف في مساعدة المرأة على أعباء المنزل فيما يلي:

- كان: يخيّط ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم^(٢).

- كان ﷺ: يعمل عمل البيت، وأكثر ما يعمل الخياطة^(٣).

- كان ﷺ: يغسل ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه^(٤).

(١) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة (١٩٤٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد مسند ١٢١/٦.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٩١/٢/١، وانظر إتحاف السادة المتقين ٣٨٣/٨.

(٤) ذكره أبو نعيم في الحلية ٣٣١/٨.

رابعاً: حقها في تقدير نوازعها النفسية

إن الحفاظ على مشاعر المرأة هو نور انبثق في تاريخ الزمان بظهور الإسلام.. فلم يكن هناك حقوق للمحافظة على مشاعر المرأة قبل هذا التاريخ... فجاء الإسلام وأخذ بيد المرأة إلى مدارج العلى، فأصبح لها كيان واحترام يفوق الوصف^(١). ولقد وضعت لنا السنة الشريفة منهاجاً مثالياً في حق المرأة في الحفاظ على مشاعرها؛ لأن المرأة مخلوق عاطفي ينبض بالمشاعر والأحاسيس، وكبت تلك المشاعر أو إهانتها، يحطم معنويات المرأة، ويفقدها القدرة على الانطلاق والعطاء^(٢).

ونرى فحج السنة الشريفة في إرساء حقها في تقدير نوازعها النفسية فيما يلي:

أباحَت السنة المباركة كذب الرجل على امرأته ليرضيها ويرفع معنوياتها:

- فعن حميد بن عبد الرحمن عن أمه أم كلثوم بنت عقبة قالت: ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث كان رسول الله ﷺ يقول: لا أعده كاذباً: الرجل يُصلح بين الناس، يقول القول لا يريد إلا الإصلاح، والرجل يقول في الحرب، والرجل يحدث امرأته، والمرأة تُحدث زوجها^(٣).

- وعن النّوّاس بن سَمْعان قال قال رسول الله ﷺ: كل الكذب يُكتب على ابن آدم، إلا ثلاثاً: الرجل يكذب في الحرب، فإن الحرب خدعة، والرجل يكذب المرأة فيرضيها، والرجل يكذب بين الرجلين ليصلح بينهما^(٤).

وقد حرص الرسول ﷺ على مشاعر زوجاته أشد الحرص: فكان يسمح بالقصاص لمن تشعر أنها تلقت تصرفاً إلى نفسيتها: فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: لعائشة رضي الله عنها: دونك فانتصري^(٥).

(١) المرأة في ظلال القرآن. محمد عبد الله السمان. الناشر: دار الفضيلة. ٥٠ وصية من وصايا الرسول ﷺ للنساء. مجدى السيد إبراهيم.

(٢) حق الزوج على زوجته وحق الزوجة على زوجها، طه عبد الله العفيفي، دار الاعتصام.

(٣) أخرجه بنحوه البخارى فى (الصلح، باب ليس الكاذب الذى يصلح بين الناس) ومسلم فى (البر، باب تحريم الكذب وبيان المباح منه ٢٦٠٥).

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٤٥٤/٦ والطبرانى فى المعجم الكبير ١٦٥/٢٤ عن أسماء بنت يزيد.

(٥) أخرجه ابن ماجه فى (كتاب النكاح، باب حسن معاشره النساء رقم ١٩٨١) وقال فى الزوائد: إسناده صحيح.

قال لها ذلك تطيباً لها لما قام الأزواج الطاهرات عليها تطيباً لها.

- وعنهما رضي الله عنها قالت: كان عندي رسول الله ﷺ وسودة ، فصنعت خزيراً، فجئت به، فقلت لسودة: كلي، فقالت: لا أحبه، فقلت: والله لتأكلين أو لأطحن وجهك! فقالت: ما أنا بذائقة، فأخذت من الصحيفة شيئاً فلطخت به وجهها، ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها، فخفض لها ركبته لتستقيد مني، فتناولت من الصحيفة شيئاً فمسحت به وجهي، ورسول الله ﷺ يضحك (١).

وكان يراعى نفسية أية زوجة تشعر بالمرض أو الغضب أو الغيرة:

- عن أنس: أهدى بعض أزواج النبي ﷺ إلى النبي ﷺ قصعة فيها ثريد، وهو في بيت بعض أزواجه، فضربت القصعة فوقعت وانكسرت، فجعل النبي ﷺ يأخذ الثريد فيرده إلى القصعة بيده ويقول: "كلوا غارت أمكم"، ثم انتظر حتى جاءت قصعة صحيحة، فأخذها فأعطاهها صاحبة القصعة المكسورة (٢).

- وكان رسول الله ﷺ إذا غضبت عائشة عرك بأنفها وقال: "يا عويش قولي: اللهم رب محمد اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن" (٣).

وحرص على مشاعر زوجته السيدة عائشة عندما فقدت عقدتها، فاحتبس الناس في ابتغائه: فعن عمار بن ياسر قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، ومعه عائشة، فهلك عقدتها، فاحتبس الناس في ابتغائه، حتى أصبحوا وليس معهم ماء، فترل التيمم، فقاموا فضربوا بأيديهم فمسحوا بها وجوههم، ثم عادوا فضربوا بأيديهم ثانية فمسحوا بها أيديهم إلى الإبطين، أو قال إلى المناكب (٤).

وحرص على مشاعر السيدة عائشة في غيرة باقي زوجاته منها، ووقت حادثة الإفك:

- فقد قال ﷺ: يا أم سلمة! لا تؤذيني في عائشة، فإن الوحي لم يزل علي ومعى أحد من نسائي إلا عائشة، فإن الوحي نزل علي وهي معي في الحافي (٥).

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٤٤٩/٧ وابن عساكر في تاريخه ٤/٢ والنسائي في الكبرى ٢٩١/٥ والخزير

هو العصيدة ، وهو الحساء المطبوخ من الدقيق والدسم والماء.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٣٠١/٧ عن أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣٠١/٦/١، ومسنده عبد بن حميد ٤٤٣/١.

(٤) أخرجه أحمد ٣٢٠/٤ وعبد الرزاق في مصنفه ٢١٣/١ والطبراني في الأوسط ٤٧/٢.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ٣٦٢/٢٣ عن أم سلمة - رضي الله عنها.

- وقال ﷺ: يا معشر المسلمين؟ من يعذرني من رجل قد بلغني عنه آذاه في أهلي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي (١).

- قال ﷺ: أما بعد يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيرك الله، وإن كنت أملت بذنب فاستغفري الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه (٢).

وحرص على مشاعر السيدة صفية عندما حزن من كلمة السيدة حفصة أنها بنت يهودى:

- روى عن أنس قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودي، فبكت، فقال النبي ﷺ: إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك؟ اتقى الله يا حفصة (٣).

وحرص على مشاعر ابنته فاطمة زوجة علي بن أبي طالب فمنعه أن يتزوج عليها: قال ﷺ: إن فاطمة بضعة مني، وأنا أخوف أن تُفتن في دينها، وإنى لست أحرم حلالاً ولا أحل حراماً، ولكن والله لا تجتمع بنت محمد رسول الله ﷺ وبنت عدو الله تحت رجل واحد أبداً (٤).

- قال ﷺ: إن بنى هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلا أذن ثم لا أذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما هي بضعة مني، يُرَبِّيها ما يُرَبِّيها ويؤذيها ما آذاها (٥).

وحرص على مشاعر الوفاء لزوجته الراحلة فكان يحسن الشئاء عليها عندما يتذكرها، وإذا ذبح شاة يرسل إلى أصدقائها:

(١) أخرجه البخارى في (التفسير، تفسير سورة النور / ٤٧٥٠) عن السيدة عائشة في حديث الإفك الطويل.

(٢) أخرجه البخارى في الموضوع المتقدم ذكره.

(٣) أخرجه الترمذى في (المناقب ، باب فضل أزواج النبي ﷺ / ٣٨٩٤) عن أنس بن مالك ؓ.

(٤) أخرجه البخارى في (فرض الخمس ، باب ما ذكر من درع النبي ﷺ / ٣١١٠) ومسلم في (فضائل

الصحابة ، باب فضائل فاطمة ، رقم ٩٥ في الباب) عن المسور بن مخرمة ؓ.

(٥) أخرجه البخارى في (النكاح ، باب ذب الرجل عن ابنته في الغيرة والإنصاف ، رقم ٥٢٣٠) ومسلم في

الموضع السابق (رقم ٢٤٤٩) عن المسور بن مخرمة.

- عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى عليها فأحسن الثناء، قالت: فغرت يوما فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق، قد أبدلك الله عز وجل بها خيرا منها، فقال ﷺ: ما أبدلني الله عز وجل خيرا منها؛ قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبتني الناس، وواستني بما لها إذا حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء (١).

- وكان ﷺ إذا ذبح شاة قال: أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة (٢).
وهي الرسول ﷺ أن يتحدث الرجل بما يكون بين الرجل وامرأته، أو العكس، حرصا على مشاعر كل منهما:

- قال ﷺ: عسى رجل يُحدث بما يكون بينه وبين أهله، أو عسى امرأة تحدث بما يكون بينها وبين زوجها، فلا تفعلوا؛ فإن ذلك مثل شيطان لقي شيطانة في ظهر الطريق، فغشيها والناس ينظرون (٣). وهي الرسول ﷺ أن يعزل الرجل عن امرأته (وخاصة الحرة) إلا بإذنها، تقديرا لمشاعرها الأنثوية: فعن أسامة بن زيد ؓ أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني أعزل عن امرأتي، فقال له رسول الله ﷺ: لم تفعل ذلك؟ فقال الرجل: أشفق على ولدها، فقال رسول الله ﷺ: لو كان ذلك ضارا ضر فارس والروم - وفي لفظ: إن كان لذلك فلا، ما ضار ذلك فارس ولا الروم (٤). وعن عمر ؓ قال: هي رسول الله ﷺ عن العزل عن الحرة إلا بإذنها (٥).

خامساً - حقها في الغيرة المحمودة

تحت السنة الشريفة الرجال على الغيرة على أعراض نسائهن، بحيث تشعر المرأة بتقدير الرجل لها، وخوفه عليها من عيون المتطفلين، الذين قد يشتهون جمالها أو جسدها. ولا شك أن تلك الغيرة تكون سياجا حصينا يحمي المرأة من شرور كثيرة هي في غنى عنها (٦).

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١١٧ / ٦) عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى عليها فأحسن الثناء، قالت: .. به.

(٢) أخرجه مسلم في (كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رقم ٧٥ في الباب) عن السيدة عائشة - رضي الله عنها.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤٥٦/٦ والطبراني في الكبير ١٦٣/٢٤ عن أسماء بنت يزيد.

(٤) أخرجه مسلم (كتاب النكاح باب جواز الغيلة، رقم ١٤٤٣).

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ٣١/١.

(٦) حق الزوج على زوجته وحق الزوجة على زوجها، طه عبد الله العفيفي، دار الاعتصام.

- عن عليّ عليه السلام قال: ألم يبلغني عن نسائكم أنهن يزاحمن العلوج في الأسواق؟ ألا تغارون؟ من لم يغر فلا خير فيه (١).
- وقال عليه السلام: ثلاثة قد حرم الله عليهم الجنة: مدمن خمر والعاق والديوث الذي يُقر في أهله الحبث (٢).
- إن الله تعالى لا يقبل يوم القيامة من الصقور صرفا ولا عدلا، قيل: وما الصقور يا رسول الله؟ قال: السذي يدخل على أهله الرجال (٣).
- ولتحقيق توازنات الشريعة فقد وضعت السنة للغيرة ضوابط، حتى لا تؤدي إلى القلق والتنافر، ومنها ألا يطرق الرجل زوجته فجأة حتى لا يقع صريع الأوهام:
- قال عليه السلام: إذا قدم أحدكم ليلا فلا يأتين أهله طروقا ، حتى تستحد المغيبة وتمتشط الشعثة (٤). وعن عبد الرحمن بن حرملة قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالمعرس، أمر مناديا ينادي لا تطرقوا النساء، فتعجل رجالان، فكلاهما وجد مع امرأته رجلا، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: قد نهيتكم أن تطرقوا النساء (٥).
- وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عبد الله بن رواحة قال: كنت في غزاة فتعجلت فانتهيت إلى الباب، فإذا المصباح يتأجج، وإذا أنا بشيء أبيض، فاخترطت سيفي ثم حركتها، فانتبهت المرأة، فقالت: إليك إليك فلانة كانت عندى تمشطني، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فنهى أن يطرق الرجل أهله ليلا (٦). وعن علي عليه السلام قال: الغيرة غيرتان: حسنة جميلة يصلح بها الرجل أهله، وغيرة تدخله النار (٧).

- (١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٣٣/١ و"العلوج: جمع علج ، وهو الرجل القوى الفخم ، وكذا يريد بالعلج) الرجل من كفار العجم وغيرهم. ينظر: (النهاية ٢٨٦/٣).
- (٢) أخرجه أحمد في مسنده ٦٩/٢ والبخاري كما في (كشف الأستار ١٨٧٥) والحاكم ٧٢/١ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه. والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي.
- (٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٩٤/١٩ - (الصقور: قال في القاموس كتور وهو الديوث. ح)
- (٤) أخرجه مسلم في (الإمارة ، باب كراهية الطروق لمن ورد من سفر ، رقم ١٨٢ في الباب) عن جابر رضي الله عنه.
- (٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٤٩٥/٧، وابن أبي شيبة في مصنفه ٥٣٧/٦ - وقوله: "المعرس" التعريس: نزول المسافر آخر الليل نزلة للنوم والاستراحة يقال منه: عرس يعرس تعريسا. ويقال فيه: أعرس، والمعرس: موضع التعريس، وبه سمى معرس ذى الخليفة، عرس به النبي ﷺ وصلى فيه الصبح ثم رحل. (النهاية ٢٠٦/٣).
- (٦) أخرجه الحاكم في المستدرک ٨٧/٤ وابن أبي شيبة ٥٣٧/٦ ، وله شواهد كثيرة.
- (٧) ذكره أبو نعيم في الحلية ٣٧١/١٠.

سادساً - حقها في تنظيم حملها وإرضاع طفلها

الأصل في الشريعة: أن الإسلام يرغب في كثرة النسل؛ لأن ذلك مظهر من مظاهر القوة والمنعة للأمة؛ وذلك كما نرى في الحديث التالي:

- عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني أصبت امرأة ذات حسب ومنصب ومال، إلا أنها لا تلد أفأتزوجها؟ فنهاه، ثم أتاه الثانية، فقال له مثل ذلك، ثم أتاه الثالثة فقال له: تزوجوا الودود الولود فإنى مكائر بكم الأمم^(١).
إلا أن الإسلام مع ذلك لا يمنع من تنظيم النسل، حتى يشب الأبناء أقوياء، في ظل الرعاية الكافية. ويبيح التحديد في حالة ضعف المرأة ضعفاً عاماً، لا يتيسر معه القيام بمشاق الحمل، أو تعرضها لمرض، يكون فيه خطورة على حياتها إذا حملت. ففي مثل هذه الحالات يباح تحديد النسل. بل إن بعض العلماء رأى أن التحديد في هذه الحالات لا يكون مباحاً فقط، بل يكون مندوباً إليه.

وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى إباحته مطلقاً، واستدلوا لمذاهبهم بما يأتي^(٢):

- عنه رضي الله عنه قال: كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ والقرآن يتزل^(٣).

- وعن جابر قال: كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فلم ينهنا^(٤).

وقال الشافعي رحمه الله: ونحن نروى عن عدد من أصحاب النبي ﷺ أنهم رخصوا في ذلك ولم يروا به بأساً^(٥).

وبعض الأئمة كالأحناف يرون أن يباح العزل إذا أذنت الزوجة، ويكره من غير إذنها. وهكذا نرى أحكام الشريعة السمحاء، تترك للمرأة قدراً كبيراً من الحرية في تنظيم نسلها، لأنها صاحبة العناء الأكبر والمسئولية العظمى في تلك المسألة، وبالمقابل فلها الأجر العظيم والثواب الجزيل عند الله، لأنها تقوم بمهمة مقدسة في الحياة، حيث تتحمل مشاق حمل ووضع وتربية، أغلى وديعة في الوجود، ألا وهو الإنسان.

(١) أخرجه النسائي في كتاب النكاح (٣٢٢٠) وأبو داود في كتاب النكاح (٢٠٥٠).

(٢) فقه السنة مجلد (٢) باب العزل وتحديد النسل

(٣) أخرجه البخاري في كتاب النكاح (٥٢٠٩).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب النكاح (١٤٤٠).

(٥) الإمام الشافعي ١٧٣ / ٧.

ويرى أهل الظاهر أن منع الحمل حرام، مستدلين بما روته جذامة بنت وهب: أن أناساً سألوا رسول الله ﷺ عن العزل؟ فقال: ذلك هو الوأد الخفى. وأجاب الإمام الغزالي عن هذا فقال: ورد في الصحيح أخبار صحيحة في الإباحة. وقوله: إن الوأد الخفى كقوله الشرك الخفى وذلك يوجب كراهيته، كراهة لا تحريماً. والمقصود بالكراهة خلاف الأولى. كما يقال: يكره للقاعد في المسجد أن يقعد فارغاً، لا يشغل بذكر أو صلاة.

فلتعلم النساء أن هن الحرية في تنظيم نسلهن، ولكن هناك ما هو خير من ذلك، هو جزاء الله الذى يفوق كل متع الدنيا وعنائها، وثوابه الذى لا يعدله أى هدف امتنع عن الحمل لأجله، فلا بد أن يكون للمنع أسبابه الملحة، التى يلقي بها الله يوم القيامة، بدون خزي أو تقصير، لأنه قال وقوله الحق:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ) (القيامة ١٤، ١٥)

وبالنسبة لرضاع طفلها: فقد أعطى لها الإسلام مهلة حتى عامين كاملين، إن أرادت أن تتم الرضاعة، وعلى الزوج أن يراعيها خلال تلك الفترة، حفاظاً على النشئ الذى هو عماد الأمة، وأن يكون موضوع الرضاعة عن تفاهم وتشاور بينهما، وكذلك القطام، لتحقيق مصلحة المولود، فلا بد من الحفاظ على حياته، بما لا يضر الأم أو الأب. فإذا كانت الأم عاجزة عن الرضاعة، لأى سبب من الأسباب، فلا بد من توفير مصادر رضاعة أخرى.

قال تعالى في كتابه الكريم: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بَوْلَدهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلَده وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (البقرة ٢٣٣)

والملاحظ في الآيات أنها تفيض رحمة وسماحة ورافة، على كل فرد من أفراد الأسرة، فلا ضرر ولا ضرار. المهم هو المصلحة العامة، والوصول بالمولود إلى بر الأمان؛ لأنه لا حول له ولا قوة. فعلى الأم أن ترضعه حرصاً على حياته. فإن عجزت - لأى سبب من الأسباب - فعلى الأب أن يوفر له مرضعة، أو ية وسيلة من وسائل التغذية حسب العصر، وكل ذلك يتم في إطار الطاقة البشرية، إذ لا بد أن تمتلئ القلوب برحمة الإيمان، حيث لا يكون هناك ضرر لأى فرد في الأسرة.

وفي حالة الطلاق: فإن المرأة لا تجبر على الرضاع قهراً، ولكن من حقوقها أن ترضع طفلها ولها تركه إذا شاءت^(١)، فقد تكون المرأة مطلوبة للزواج، وزوجها الجديد لا يسمح لها باصطحاب طفلها.

أما إذا لم توجد الموضع غيرها، وخيف على الطفل من الضياع، فتلزم بتربيته وإرضاعه، ولها أجره المثل: (أَسْكُنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٌ فَأَنْفَقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَمْرُهُمَا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى) (الطلاق ٦)

إن تلك الآيات وما قبلها وما بعدها من سورة الطلاق: لتبين عظمة الشريعة الإسلامية في توفير الرعاية للمرأة، في أشد مرحلة من مراحل حياتها، ألا وهي هدم حياتها الزوجية، وخصوصاً إذا كان القرار من الرجل. فأمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين، موجهاً الخطاب إلى شخص النبي ﷺ بقواعد أساس في اتخاذ تلك الخطوة العصية، حرصاً على كيان الأسرة، وإحاطة المرأة بسياس منيع، يحافظ عليها من التشرذم والضياع، وإتاحة الفرصة للرجل، لمراجعة نفسه فيما اتخذه من قرار.

ومن شدة العناية بالمرأة: فهي المولى عز وجل الرجال عن التضيق على النساء في المسكن والنفقة، حتى يضطروهن إلى الخروج من بيوتهن، والتعرض لعاديات الزمن. وإن كانت المطلقة حاملاً، فإن المسؤولية على الرجل تتضاعف، إذ يجب عليه أن ينفق عليها - طوال مدة الحمل - حتى تضع حملها^(٢). فإذا ولدت ورضيت أن ترضع له ولده، فعلى الرجل أن يدفع لها أجر الرضاعة، لأن الأولاد ينسبون إلى الآباء، وتلك مسؤوليتهم. مسؤولية الدرجة التي جعلها الله للرجال على النساء. وإن عسر الاتفاق بين الزوجين على أجر الرضاعة، فعلى الوالد أن يستأجر لولده مرضعة، حفاظاً على حياته وقياماً بمسؤوليته، فهو قد اتخذ قرار الطلاق، وعليه أن يتحمل تبعاته.

إن الإسلام دين الرحمة، الذي جاء به رسول الرحمة، فلنعتصم به، لأن فيه عزنا وشرفنا وحریتنا، وكل ما نبغى من معان كريمة.

(١) أستاذ المرأة: تأليف الشيخ محمد بن سالم البیحانی. من مطبوعات إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر

(١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، ص ١٤٦.

(٢) صفوة التفاسير. سورة المجادلة جزء قد سمع (١٨). محمد على الصابوني. مكة المكرمة - جامعة الملك عبد

العزیز. ص ١٥٦٥.

سابعاً - حقها في حضانة طفلها

يهدف الشرع في جميع أحكامه إلى استقرار الأسرة، حتى يشب الطفل في أحضان والديه، ينال من رعايتهما، وحسن قيامهما عليه، ما يبنى جسمه، وينمي عقله، ويزكي نفسه، ويعدّه للحياة إعداداً سليماً، يساهم في نهضة أمته ورقياً.

فإذا حدث أن افترق الوالدان وبينهما طفل، فالشرع جعل الأم أحق من الأب في حضانة الطفل، ما لم يقيم بالأم مانع يمنع تقديعها (مثل زواجها من آخر، أو عدم توفر الشروط التي يجب توافرها في الحاضنة) أو بالولد وصف يقتضى تخييرها (وهو الاستغناء عن خدمة النساء).

وسبب تقديم الأم: أن لها ولاية الحضانة والرضاع؛ لأنها أعرف بالتربية وأقدر عليها، ولها من الصبر في هذه الناحية ما ليس للرجل، وعندها من الوقت ما ليس عنده. لهذا قدمت الأم على الأب رعاية لمصلحة الطفل(١).

- فعن عبد الله بن عمرو أن امرأة قالت: يا رسول الله إن ابني هذا كان بطني له وعاء، وحجري له حواء، وثديي له سقاء، وزعم أبوه أنه يترعه مني فقال ﷺ: "أنت أحق به ما لم تنكحي"(٢).

- وعن يحيى ابن سعيد قال: سمعت القاسم بن محمد يقول: كانت عند عمر بن الخطاب امرأة من الأنصار، فولدت له عاصم بن عمر، ثم إن عمر فارقها، فجاء عمر قباء، فوجد ابنه عاصماً يلعب بفناء المسجد. فأخذ بعضده فوضعه بين يديه على الدابة، فأدركته جدة الغلام، فنارعتة إياه حتى أتيا أبا بكر الصديق. فقال عمر: ابني، وقالت المرأة: ابني. فقال أبو بكر: خل بينها وبينه. فما راجعه عمر الكلام(٣).

قال ابن عبد البر: هذا الحديث مشهور من وجوه منقطعة ومتصلة تلقاه أهل العلم بالقبول. وفي بعض الروايات أنه قال له: الأم أعطف وألطف وأرحم، وأحنى وأخير وأرأف، وهي أحق بولدها ما لم تتزوج. وهذا الذي قاله أبو بكر ﷺ من كون الأم أعطف وألطف، هو العلة في أحقية الأم بولدها الصغير. وكان مذهب عمر مخالفاً لمذهب أبي بكر،

(١) فقه السنة - دار الريان للتراث. مجلد (٢) جزء (٧) ص ٤٨٢ "باب الحضانة".

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الطلاق، باب من أحق بالولد (٢٢٧٦) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو أن امرأة قالت: ... به.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الأقضية (١٤٩٨).

ولكنه سلم للقضاء ممن له الحكم والإمضاء، ثم كان بعد خلافته يقضى به ويفتى. ولم يخالف مذهب أبي بكر، ما دام الصبي لا يميز، ولا يخالف لهما من الصحابة. (أفاده ابن القيم).

- وعن عكرمة قال: خاصمت امرأة عمر إلى أبي بكر وكان طلقها فقال أبو بكر: هي أعطف وألطف وأرحم وأحن وأرأف، وهي أحق بولدها ما لم تتزوج أو يكبر فيختار لنفسه (١).

- وعن ابن عباس قال: طلق عمر بن الخطاب امرأته الأنصارية أم ابنه عاصم فلقيها تحمله وقد فطم ومشى، فأخذ بيده ليرتعه منها، وقال: أنا أحق بابني منك، فاختصما إلى أبي بكر فقضى لها به، وقال: ريجها وحرها وفراشها خير له منك حتى يشب ويختار لنفسه (٢).

- وعن عمارة بن ربيعة الجرمي قال: خاصمت في أمي عمي إلى علي فقال علي: أملك أحب إليك أم عمك؟ قلت: بل أمي ثلاث مرات، قال: وكانوا يستحبون الثلاث في كل شيء، فقال لي: أنت مع أمك، وأخوك هذا إذا بلغ ما بلغت خير كما خیرت، قال: وأنا غلام (٣). وعن عبد الله بن عمرو أن امرأة طلقها زوجها، وأراد أن ينتزع ولدها منها فجاءت النبي ﷺ بابنها، فقالت: يا رسول الله كان بطني له وعاء، وثندي له سقاء، وحجري له حواء، أراد أبوه أن يرتعه مني، فقال رسول الله ﷺ: أنت أحق به ما لم تزوجي (٤). وعن أبي هريرة قال: جاء أم وأب يختصمان إلى النبي ﷺ في ابن لهما، فقالت للنبي ﷺ: فذاك أبي وأمي يريد أن يذهب بابني، وقد سقاني من بئر أبي عنبه ونفعني، فقال النبي ﷺ: استهما عليه، فقال زوجها: من يحاقي في ولدي يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: يا غلام هذا أبوك وهذه أمك، فأخذ بيد أمه فانطلقت به (٥).

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٥٤/٧.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٥٤/٧.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٥٦/٧.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٥٣/٧، وابن كثير في تفسيره ٢٨٥/١ - (حواء: الحواء: اسم المكان الذي يحوي الشيء: أي يضمه ويجمعه. النهاية ٤٦٥/١).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٥٨/٧، وابن أبي شيبة في مصنفه ١٨/٤ - (بئر أبي عنبه: بكسر العين وفتح النون: بئر معروفة بالمدينة، عندها عرض رسول الله ﷺ أصحابه لما سار إلى بدر. النهاية ٣٠٦/٣) - (يحاقي: وفي حديث الحضانة: "فجاء رجلان يحتقان في ولد" أي يختصمان ويطلب كل واحد منهما حقه. انتهى. النهاية ٤١٤/١).

والمرأة المطلقة تستحق أجره حضانة، كما تستحق أجره الرضاع، وخاصة بعد انقضاء العدة، لأنها في العدة تكون لها نفقة العدة. وذلك لقول الله تعالى: (فَأَنْفَقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمُ فَسَرِّضُ لُهُ أُخْرَى) (الطلاق ٦)

وتلك الآية الكريمة تبيح للمرأة حرية من نوع آخر، فلها أن تقبل رضاعة ابنها وحضانتها، أو ترفض ذلك، وعلى الأب توفير من يحل محلها.

وهكذا فالإسلام احترام المرأة ومشاعرها في الحالتين: ففي حالة رغبتها في الاحتفاظ بصغيرها، أباح لها ذلك لتشعر معه بدفء الحنان والمودة والرحمة، وفي حالة تعسر ظروفها واضطرابها إلى الزواج من آخر، ليضمن لها الحياة الكريمة، فالإسلام لا يجبرها على الاحتفاظ بصغيرها، وخاصة أن هناك كثيراً من الرجال لا يرغبون في تربية أبناء غيرهم.

إنه بلا شك دين الرحمة ودين اليسر، ودين الحياة الحرة الكريمة، وصدق الله العظيم إذ يقول: (ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الروم ٣٠)

فإلى أى شيء تطمح النساء بعد تلك الكرامة، التي أعزها بهن دين الإسلام. هل يطمعن في مساواة خيالية، تدفعهن إلى خوض ميادين الحياة بمعانقها، بحثاً عن لقمة العيش، بعدما ادخرقن الشريعة لدور أجل وأعظم من ذلك، وهو تنشئة الأجيال بما يحقق التنمية الاجتماعية للأمة، التي هي مفتاح كل تقدم بعد ذلك؟ أم يطمعن في مساواة تلغى وجودهن كنساء أصلاً، وتشقيهن شقاء تنتفى معه أنوثتهن، ودورهن الحقيقي في الحياة، كما حدث للنساء اللاتي يناصرن تحرر المرأة في الغرب؟ أم يطمعن في تحرر يلغى احتياجاتهن للرجال، ويوقعهن في مهالك لا تنتهى، لأنهن يلجئن في إشباع غريزتهن، إلى طرق ما أنزل الله بها من سلطان؟! (١).

ثامناً: حقها في الحفاظ على حقوقها المالية

حق المرأة في الحفاظ على أموالها وممتلكاتها:

إن الإسلام الذي يتهمونه ظلماً وعدواناً بأنه انتقص حق المرأة هو الذي دق أجراس الحرية في سماع التاريخ ليحقق للمرأة العزة والكرامة التي سلبت منها، ويحقق لها الأمن المعنوي والمادي على أموالها وممتلكاتها؛ مما يعد سبقاً حضارياً للمرأة بكل المقاييس. ونجد القرآن الكريم قد وقف أمام ظلمات الجاهلية بالمرصاد، يزيل ما ران من غشاوة على نفوسهم، ويحسّر

(١) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية. وحيد الدين خان ص ١١١ : ١٥٢ (نتائج الحضارة الحديثة).

المرأة من أسرهم إذ يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) (النساء ١٩) - وعن ابن عباس في تفسير تلك الآية: كانوا إذا مات الرجل، كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شلّوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها. فترت هذه الآية (١).

- وعن علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسيرها: كان الرجل إذا مات وترك زوجته ألقى عليها حيمه ثوباً، فمنعها من الناس، فإن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دمية حبسها، حتى تموت فيرثها (٢).

- وقال زيد بن أسلم في الآية: كان أهل يثرب إذا مات الرجل منهم في الجاهلية، ورث امرأته من يرث ماله، وكان يعضلها حتى يرثها، أو يزوجه من أراد، وكان أهل ثمامة يسي الرجل صحبة المرأة حتى يطلقها، ويشترط عليها أن لا تنكح إلا من أراد، حتى تفتدى منه ببعض ما أعطاه.. فنهى الله المؤمنين عن ذلك (٣).

ثم أعطى القرآن مزيداً من الحرية المالية للمرأة: فلا يحق لزوجه إذا كرهها وطلقها، أن يأخذ منها شيئاً من صداقها، الذي أعطاه لها، أو أية هدايا قدمها لها، حتى لو بلغت قنطاراً من المال. قال تعالى: (وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا) (النساء ٢٠)

وبرر القرآن ذلك بأسمى المعاني، وأنبأ القيم، التي تتوج إطار العلاقة الزوجية، وتحفظ للمرأة كرامتها وحريتها قال تعالى: (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) (النساء ٢١)

فالصداق فريضة على الرجل المقدم على الزواج، حق خالص للمرأة، يبرهن على صدق الرجل وعزمته، على إقامة علاقة زوجية قائمة على منهاج الله ورسوله. كما أنه برهان على قدرة الزوج على القيام بتكاليف الحياة الزوجية وأعبائها، صوناً لكرامة المرأة، وحفظاً لها من خوض معارك الحصول على لقمة العيش. وللمرأة وحدها الحرية أن تعفيه من هذا الصداق، راضية بذلك نفسها، أما أن يرغمها على مبلغ لا يليق بكرامتها، فهذا

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن (٤٥٧٩).

(٢) تفسير ابن كثير الجزء الأول، ص ٤٦٥.

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره (١ / ٤٦٦) والقرطبي في تفسيره (١١ / ٧٨) ..

لا يصح في الشريعة، أو يرغمها على استرداده بعد الاستمتاع بها، فهذا لا يصح أيضاً. وذلك لمن كان يريد الحق البعيد عن الهوى النفسي. قال تعالى: (وَأَثَرُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ تَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً) (النساء ٤)

وبين الرسول ﷺ أهمية حق المرأة في الصداق أو العطية قبل الزواج، ويدعو إلى إكرام المرأة مادياً سواء كانت ابنة أو أختاً أو زوجة .

- عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَيُّمَا امْرَأَةٍ نَكَحْتَ عَلَى صَدَاقٍ، أَوْ حَيَاءٍ، أَوْ عِدَّةٍ قَبْلَ عَصْمَةِ النِّكَاحِ؛ فَهُوَ لَهَا، وَمَا كَانَ بَعْدَ عَصْمَةِ النِّكَاحِ؛ فَهُوَ لِمَنْ أَعْطَاهُ، وَأَحَقُّ مَا أُكْرِمَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ: ابْنَتُهُ، أَوْ أُخْتُهِ (١).

وهي رسول الله ﷺ عن الشغار:

- عَنْ عُمَرَ بْنِ حُصَيْنٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : لَا جَلْبَ، وَلَا جَنْبَ، وَلَا شِغَارَ فِي الْإِسْلَامِ، وَمَنْ اتَّهَبَ تَهَبَةً فَلَيْسَ مِنَّا (٢).

و الشغار أن يقول الرجل للرجل: زوجني ابنتك أو أختك على أن أزوجك ابنتي أو أختي وليس بينهما صداق (٣).

واستدل جمهور العلماء بهذين الحديثين على أن عقد الشغار لا ينعقد أصلاً وأنه باطل .

وذهب أبو حنيفة إلى أنه يقع صحيحاً ، ويجب لكل واحدة من البنتين مهر مثلها على زوجها ، إذ إن الرجلين سميما لم تصلح تسميته مهراً ، إذ جعل المرأة مقابل المرأة ليس بمال (٤).

وهذا يتبين كيف تحافظ الشريعة على حق المرأة في مالها .

- قَالَ ﷺ : أَيُّمَا رَجُلٍ أَصْدَقَ امْرَأَةً صَدَاقاً - وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ مِنْهُ لَا يَرِيدُ أَدَاءَهُ إِلَيْهَا - فَعَرَّهَا بِاللَّهِ وَاسْتَحْلَ فَرَجَهَا بِالْبَاطِلِ، لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَهُوَ زَانٍ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدَانَ مِنْ رَجُلٍ دِينَاً - لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَهُوَ سَارِقٌ (٥).

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣٤٩/٦، والحاكم في المستدرک ٤٨/٣، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، والبيهقي في السنن الكبرى، باب فتح مكة ١٢١/٩.

(٢) أخرجه مسلم في النكاح، باب تحريم نكاح الشغار وبطلانه (١٤١٥)، والترمذي في النكاح، باب ما جاء في النهي عن نكاح الشغار (١١٢٣).

(٣) أخرجه مسلم في النكاح، باب تحريم نكاح الشغار وبطلانه (١٤١٥)، والترمذي في النكاح، باب ما جاء في النهي عن نكاح الشغار (١١٢٣).

(٤) فقه السنة (الزواج-الحدود-الجنايات) المجلد الثاني، السيد سابق، دار الريان للتراث.

(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن ٨٠٥/٢.

- وقال ﷺ: "ما استحل به فرج امرأة من مهر أو صدقة فهو لها، وما أكرم به أبوها أو أخوها أو وليها بعد عقد النكاح فهو له، وأحق ما أكرم به الرجل ابنته أو أخته" (١).
- وعن ابن عباس: أنه سئل عن رجل تزوج امرأة وفرض لها، هل له أن يدخل بها ولم يعطها شيئاً؟ قال: لا يدخل بها حتى يعطيها ولو نعليه (٢).

تاسعاً: حقها في الإنفاق عليها

من ضمن ما تتميز به الشريعة الإسلامية على الحضارة الغربية أنها تجعل حق المرأة في إنفاق زوجها عليها واجباً شرعياً يثاب الرجل عليه، مما يحمي المرأة من الصراع المادي على متطلبات الحياة، فتتفرغ لوظيفتها في تربية الأجيال، وإضفاء مشاعر الخنان على الأسرة، ذلك على النقيض من الحضارة الغربية التي تجعل من حقوق المرأة المساواة بالرجل في الوظائف، وهذا يعني إلقاءها في صراعات الحياة، لتدفع ضريبة الأنانية، وحب الظهور غالية من وقتها وجهدها (٣).

ونعرض فيما يلي المنهاج النبوي الشريف في إرساء حق المرأة في إنفاق زوجها عليها: يوضح الرسول ﷺ أن الإنفاق على الزوجة ليس تطوعاً بل هو واجب شرعي تفرضه موازين الحق، حيث إن الزوجة أمانة عند الزوج، عليها واجبات ولها حقوق، ومن أولويات تلك الحقوق الإنفاق عليها إنفاقاً يلائم مكانتها الاجتماعية ويلبي متطلبات العصر المعروفة بين الناس، وهذا يظهر من قوله ﷺ بالمعروف: قال ﷺ: "إن الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه أحفظ ذلك أم ضيعه حتى يسأل الرجل عن أهل بيته" (٤). وقال ﷺ: "أيها الناس! إن النساء عندكم عوان، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن حق، ولهن عليكم حق، ومن حَقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً، ولا يعصينكم في معروف، فإذا فعلن ذلك فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف" (٥).

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٢٢/٦.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٧٩/٦.

(٣) نفقة المرأة وقضية المساواة، د. صلاح الدين سلطان، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى ٣٧٧٤/٥ وابن حبان في صحيحه ٣٤٤/١٠، وأخرجه مختصراً الترمذی في (الجهاد، باب ما جاء في الإمام/ ١٧٠٥) كلهم عن أنس ؓ.

(٥) أخرجه بلفظه الطبري في تفسيره ٣١١/٤ وعبد بن حميد في مسنده ٢٧٠/١ عن اب عمر ؓ وأخرجه الترمذی في (الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها/ ١١٦٣) عن عمرو بن الأخوص.

وتبين السنة الشريفة كيف أن الإنفاق على الزوجة من أهم أوجه الإنفاق في سبيل الله، وأن كل ما ينفقه الزوج على زوجته هو من سبيل الصدقات التي تقرب إلى الله تعالى: - فعن أم معقل أن زوجها جعل ناضحا له في سبيل الله، وأنها أرادت العمرة، فسألته الناضح، فأبى أن يعطيها إياه، فأتت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: أعطها إياه فإن الحج والعمرة من سبيل الله، وقال لها: اعتمري في رمضان، فإن عمرة رمضان تعدل حجة أو تجزئ بحجة (١).

- وقال ﷺ: أفضل الصدقة ما ترك غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، تقول المرأة: إما أن تطعمني وإما أن تطلقني، ويقول العبد: أطعمني واستعملني، ويقول الابن: أطعمني إلى من تدعني (٢).

- وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال كتبت إلى جابر بن سمرة مع غلامي نافع أن أخبرني بشيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب إلي: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم جمعة عشية رجم الأسلمي يقول: إذا أعطى الله أحدكم خيرا فليبدأ بنفسه وأهل بيته (٣).

- وعن يمز بن حكيم حدثني أبي عن جدي قال: قلت: يا رسول الله نساؤنا ما نأتي منهن وما نذر قال: أتت حرثك إذا شئت، وأطعمها إذا طعمت، واكسها إذا اكتسيت، ولا تقبح الوجه ولا تضرب (٤).

وبين المنهاج النبوي الشريف الأهمية الشرعية للإنفاق على الزوجة حيث يحتل الأولوية الأولى في موازين العدل الإلهي:

- وعن جابر عن النبي ﷺ: أول ما يوضع في ميزان العبد نفقته على أهله (٥).

- وقال ﷺ: دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في ربة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرا الذي أنفقته على أهلك (٦).

(١) أخرجه مالك في الموطأ بمعناه (كتاب الحج باب جامع ما جاء في العمرة رقم ٦٧)

(٢) أخرجه البخاري في (النفقات، باب وجوب النفقة على الأهل / ٥٣٥٥) عن أبي هريرة ؓ.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (باب الناس تبع لقريش / ١٨٢٢) عن جابر بن سمرة ؓ.

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (باب الناس تبع لقريش / ١٨٢٢) عن جابر بن سمرة ؓ.

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط ١٨٤/٦ عن جابر ؓ.

(٦) أخرجه مسلم في (الزكاة، باب فضل النفقة على العيال / ٩٩٥) عن أبي هريرة ؓ.

ولا يكتفى منهاج السنة الشريفة بالإِنفاق على الزوجة إنفاقاً يقوم به الزوج من مسئولية تحددها الشريعة، بل تجعل العطية للزوجة زيادة عن النفقة الشرعية من قبيل الصدقة التي يثاب عليها، وذلك تحفيزاً للزوج أن يكرم زوجته إكراماً يليق بما يربط بينهما من رباط مقدس: قال ﷺ: "من أعطى امرأة عطية فهي له صدقة" (١). وعن عمرو بن أمية قال: مر عثمان بن عفان أو عبد الرحمن بن عوف بمرط فاستغلاه، فمر به على عمرو بن أمية فاشتراه، وكساه امرأته سخيلة بنت عبيدة بن الحارث بن المطلب، فمر به عثمان أو عبد الرحمن بن عوف فقال: ما فعل المرط الذي ابتعت؟ قال عمرو: تصدقت به على سخيلة بنت عبيدة، فقال: إن كل ما صنعت إلى أهلك صدقة، قال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك، فذكر ما قال عمرو لرسول الله ﷺ فقال: صدق عمرو، كل ما صنعت إلى أهلك فهو عليهم صدقة (٢).

وبين منهاج السنة المباركة أن واجب الإنفاق على الزوجة لا يقتصر على وجوده في الحياة الدنيا بل على الرجل أن يجاهد في توفير متطلبات الحياة لها بعد انتقاله إلى الدار الآخرة حتى لا تعاني الزوجة مشقة الحياة ومعاناتها أو يلجئها إلى العوز والاحتياج: قال سعد بن أبي وقاص للرسول ﷺ: أفأوصي بمالي كله قال ﷺ: الثلث والثلث كثير، إن صدقتك من مالك صدقة، وإن نفقتك على عيالك صدقة، وإن ما تأكل امرأتك من مالك صدقة، وإنك أن تدع أهلك بخير خير من أن تدعهم يتكففون الناس (٣). وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأزواجه: لا يعطف عليكن بعدي إلا الصابرون الصادقون (٤).

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية ١٥٩/٩ عن أمية الضمري.

(٢) أخرجه ابن حبان ٤٩/١٠ وأبو يعلى في مسنده ٢٩٩/١٢ وابن عساكر في تاريخه ٤٥/٤٢٠، قال في المجموع ٣٢٥/٤: رجال الطبراني ثقات. وقوله "مرط" المرط بكسر الميم واحد المروط، وهي أكسية من صوف أو خز كان يؤتز بها (المختار ٤٩٢).

(٣) أخرجه مسلم في (الوصية، باب الوصية بالثلث / رقم ٨ في الباب) وينحوه البخاري في (النفقات، باب أفضل النفقة على الأهل) عن سعد بن أبي وقاص ﷺ.

(٤) أخرجه البزار ٢٥٢/٣ عن ابن عوف، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٢١/٦ عن السيدة عائشة — رضي الله عنها.

وبين منهاج الخلفاء الراشدين أهمية إنفاق الرجل على زوجته طالما هو قيم أسرته، وإلا فليتنحلي عن تلك المهمة الإيمانية وينفصل عن زوجته، حتى تجد من ينفق عليها، فالقوامه تتطلب الإنفاق والإيثار والإحساس بأمانة المسئولية: عن ابن عمر أن عمر رضي الله عنه كتب إلى أمراء الأجناد في رجال غابوا عن نساءهم يأمرهم أن يأخذوهم بأن ينفقوا أو يطلقوا، فإن طلقوا بعثوا بنفقة ما حسبوا (١). وقال على بن أبي طالب رضي الله عنه: لا يكون الرجل قيم أهله حتى لا يبالي أي ثوبيه لبس ولا ما سد به فورة الجوع (٢)..
عاشرا: حقها في الحفاظ على كيان أسرتها

من حق كل امرأة أن تحافظ على كيان أسرتها، بكل ما تملك من عقل وخبرة في الحياة، لأن الأسرة هي الحصن الحصين لها، وهي الوشائج والصلوات التي تربطها بالحياة.. لذلك فقد أرست الشريعة معالم هذا الحق للمرأة، حفاظا على أسرتها، وحفظا للأمة بأسرها من عوامل الانهيار (٣). وليس أدل على ذلك من استجابة المولى عز وجل لمعاناة امرأة تستغيث أمام الرسول ﷺ من أعماق قلبها، حفاظا على أسرتها من الضياع؛ لأن زوجها ظاهرها، وهو نوع من الطلاق، فأصبحت بين نارين، تخشى إن تركت أولادها لزوجها ضاعوا، وإن احتفظت بهم جاعوا، فترل قرآن كريم رافة ورحمة بقلبها وبقلب كل امرأة تعاني ظروفها: فعن ابن سيرين قال: كان أول من ظاهر في الإسلام خولة فظاهر منها فأتت النبي ﷺ فأخبرته فأرسل إليه، فترل القرآن: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا) (٤). واهتمت السنة الشريفة بتحذير المسلمين من الاستهانة بكلمة الطلاق لأنها تعنى تفكك كيان الأسرة، وتعنى حشرات في القلوب والنفوس التي يقع عليها الظلم، وبينت السنة أن الطلاق أبغض الحلال إلى الله: قال ﷺ: إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول ما صنعت شيئا ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله فيدنيه منه ويقول: نعم أنت" (٥).

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى ٤٦٩/٧ والشافعي في مسنده ٢٦٧/١.

(٢) ذكره أبو نعيم في الحلية ٣٠٦/٧ وعزاه في الكنز للدينوري.

(٣) دراسات لأحكام الأسرة، د. محمد بلتاجي عميد كلية دار العلوم جامعة القاهرة، مكتبة الشباب.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٢٧٣/٧.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب صفات المنافقين باب تحريش الشيطان رقم ٦٧.

- وقال ﷺ: "ما أحل الله عز وجل حلالاً أحب إليه من النكاح ولا أحل حلالاً أكره إليه من الطلاق" (١).

ويحفظ الرسول ﷺ المسلمين على التمسك بالزوجة، ويضرب لهم مثلاً بالرجل من أهل الكتاب الذي يتزوج المرأة صغيرة جداً ولا يرغب عنها حتى الموت:

- قال ﷺ: إن الله تعالى يوصيكم بالنساء خيراً، فإنهن أمهاتكم وبناتكم وخالاتكم، إن الرجل من أهل الكتاب يتزوج المرأة وما يعلق على يديها الخيط، فما يرغب واحداً منهما عن صاحبه حتى يموت هرماً (٢).

ويضع الرسول ﷺ قواعد وضوابط للطلاق حفاظاً على حق المرأة في الاستقرار:

- قال ﷺ: ما بال أقوام يلعبون بحدود الله يقول: قد طلقتك قد راجعتك طلقتك راجعتك (٣).

- وعن عبادة بن الصامت قال: طلق جدى امرأة له ألف تطليقة فسألت عن ذلك النبي ﷺ قال: أما اتقى الله جدك، أما ثلاثة فله، وأما تسعمائة وسبع وتسعون فعُدوان وظلم، إن شاء الله عذبه، وإن شاء الله غفر له (٤).

- وقال ﷺ: لم يقول أحدكم لامرأته: قد طلقتك قد راجعتك؟ ليس هذا بطلاق المسلمين طلقوا المرأة في قبل طهرها (٥).

- وقال ﷺ: لا تطلق النساء إلا من رية فإن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات (٦).

- وقال ﷺ: يا أبا أيوب إن طلاق أم أيوب كان حوباً (٧).

- وعن عمر قال: من طلق امرأته ثلاثاً فقد عصى ربه وبانت امرأته (٨).

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٣٢٧٠).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، عن المقدام بن معدى كرب أن رسول الله ﷺ قام في الناس... به، ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٠٢/٤، والسيوطي في جمع الجوامع (٥٣٦٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه في سنن (٢٠١٧)، والبيهقي في السنن الكبرى ٣٢٢/٧.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٣٩٣/٦.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه ٥٥/٤.

(٦) أخرجه البزار في مسنده عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي قال: ... به،

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير ١٩٥/١٢ - (حوبا: ومنه الحديث (اغفر لنا حوبنا) أى إثمنا. وفتح الحاء وتضم. وقيل الفتح لغة الحجاز والضم لغة تميم. انتهى. النهاية ٥٤٤/١).

(٨) أخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه ٦١/٤.

وتبين السنة الشريفة أن الرسول ﷺ لم يكن قدوة لأمته في الطلاق، وما كان مع زوجاته هو خيار بين الحياة الدنيا والآخرة:

- وعن معمر عن الزهري قال قالت عائشة: قد خيرنا رسول الله ﷺ، فاخترنا الله ورسوله، فلم يعد ذلك طلاقاً، قال معمر: وأخبرني من سمع الحسن يقول: إنما خيرهن رسول الله ﷺ بين الدنيا والآخرة، ولم يخيرهن في الطلاق^(١).

وبين نهج الصحابة كيف أنهم ساروا على نهج النبي الأمين ﷺ وأرسوا حق المرأة في الحفاظ على أسرتها، بما يتفق مع منهاج الشريعة السمحاء، للحفاظ على ترابط الأمة واستقرارها الاجتماعي:

- فعن محمد بن كعب القرظي قال: كان علي بن أبي طالب يبعث الحكمين، حكماً من أهله، وحكماً من أهلها، فيقول الحكم من أهلها: يا فلان ما تنقم من زوجتك؟ فيقول أنقم منها كذا وكذا فيقول: رأيت إن نزعت عما تكره إلى ما تحب هل أنت متق الله فيها؟ ومعاشرها بالذي يحق عليك في نفقتها وكسوتها؟ فإذا قال نعم قال الحكم من أهله: يا فلانة ما تنقمن من زوجك؟ فتقول مثل ذلك فإن قالت نعم جمع بينهما، قال وقال: الحكمان بهما يجمع الله وبهما يفرق^(٢).

- وعن علي أنه سئل عن هذه الآية: (وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا) فقال هذا العلم ينتفع به، عن مثل هذا فاسألوا، ثم قال: هو الرجل عنده امرأتان، فتكون إحداها قد عجزت أو تكون دميمة، فيريد فراقها، فتصالحه على أن يكون عندها ليلة وعند الأخرى ليلي، ولا يفارقها، فما طابت به نفسها فلا بأس به، فإن رجعت سوى بينهما^(٣).

- وعن أبي حسان الأعرج أو خلاص بن عمرو بن عدى بن قيس أحد بني كلاب جعل امرأته عليه حراماً فقال له علي بن أبي طالب: والذي نفسي بيده لئن مسستها قبل أن تزوج غيرك لأرجهنك^(٤).

(١) ذكره القرطبي والجامع لأحكام القرآن ١٤/١٧.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٥/٧٣.

(٣) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ٢/٧١١.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٦/٤٠٣.

- وعن سالم بن عبد الله قال: كانت عاتكة بنت زيد تحت عبد الله بن أبي بكر قد غلبته على رأيه وشغلته عن سوقه، فأمره أبو بكر بطلاقها واحدة، ففعل فوجد عليها، فقعد لأبيه على طريقه وهو يريد الصلاة فلما أبصر به شكى وأنشد يقول:
فلم أر مثلى طلق اليوم مثلاً ولا مثلاً في غير جرم تطلق

فرق له وأمره بمراجعتها^(١).

- عن القاسم بن محمد أن رجلاً جعل امرأة عليه كظهر أمه إن تزوجها فقال عمر بن الخطاب: إن يتزوجها فلا يقرها حتى يكفر كفارة الظهار^(٢).

حادي عشر: حقها في تزوين زوجها لها

لا يوجد أى قانون لحقوق الإنسان يدعو الزوج إلى التزوين لامرأته، ويرسم له الخطوات اللازمة لذلك حتى ينشرح صدر الزوجة، وتتدفق مشاعرها نحو زوجها، فالإحساس بالجمال وعشقه مركز في فطرة كل إنسان. ولن نجد شريعة حانية مثل الإسلام تفرض حقوقاً تكفل إشباع كل الحاجات الإنسانية بما يحقق التوازنات المطلوبة لكل نفسية، وهذا ما نعرضه من السنة النبوية^(٣):

- قال ﷺ: اختضبوا بالحناء فإنه يزيد في شبابكم وجمالكم ونكاحكم^(٤).

- وقال ﷺ: إن أحسن ما اختضبتم به لهذا السواد، أرغب لنسائكم فيكم، وأهيب لكم في صدور عدوكم^(٥).

- قال ﷺ: "من خير طيبكم المسك"^(٦).

(١) انظر شرح معاني الآثار ٥٥/٣ - (فوجد: وفي حديث الإيمان (إني سألتك فلا تجد علي) أى لا تغضب من سؤالي. يقال: وجد عليه - بالفتح والكسر - يجد وجدا وموجدة. انتهى. النهاية ١٥٥/٥.

(٢) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٣٨٣/٧.

(٣) حق الزوج على زوجته وحق الزوجة على زوجها، طه عبد الله العفيفي، دار الاعتصام.

(٤) أخرجه ابن ماجه في (اللباس، باب الخضاب بالسواد / ٣٦٢٥) عن صهيب رضى الله عنه قال في الزوائد: اسناده حسن.

(٥) أخرجه ابن ماجه كتاب اللباس باب الخضاب بالسواد رقم (٣٦٢٥) وهذا الحديث معارض لحديث النهي عن السواد وهو أقوى إسناداً وأيضاً النهي يقدم عند المعارضة وقال في الزوائد: إسناده حسن.

(٦) أخرجه النسائي في سننه (الجنائز، باب المسك ٤٠/٤، ٤٢) وأبو داود في (الجنائز، باب في المسك / ٣١٥٨) والبيهقي في الكبرى ٦٢٣/١ عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه وأخرجه مسلم بمعناه في (الألفاظ من الأدب وغيرها، باب استعمال المسك وأنه اطيب الطيب / ٢٢٥٢) عن أبي سعيد.

ثاني عشر: حقها في المعاشرة الزوجية بالحدود الشرعية

نقول لكل من ينادى بحقوق المرأة، إن شريعة الإسلام لم تهمل أى حق من حقوق المرأة المعنوية منها والمادية، ولكن الفارق أن الحضارة الغربية لا يهتمها إلا الحقوق المادية، ليس هذا فقط بل تبحث عن تلك الحقوق بلا ضوابط شرعية، أى في ضوء التحرر من كل القيود، وهذا هو الفارق الكبير بين حقوق الإنسان في كل من شريعة الإسلام والقوانين الغربية^(١). ونلاحظ من خلال منهاج السنة الشريفة حرص الرسول ﷺ على حق المرأة في المعاشرة الزوجية لإشباع الغريزة الجنسية: قال ﷺ: يا عثمان أرغبت عن سنتي؟ فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فأتق الله يا عثمان، فإن لأهلك عليك حقاً، وإن لضيفك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، فصم وأفطر، وصل ونم^(٢). وعن أبي جحيفة أن رسول الله ﷺ: آخى بين سلمان وبين أبي الدرداء، فجاء سلمان يزور أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، قال: ما شأنك؟ قالت: إن أخاك ليس له حاجة في الدنيا، فلما جاء أبو الدرداء رحب به وقرب إليه طعاماً، فقال له سلمان: أتعلم، فقال: إني صائم، قال: أقسمت عليك إلا ما طعمت، ما أنا بأكل حتى تأكل، فأكل معه، وبات عنده، فلما كان من الليل قام أبو الدرداء فحسبه سلمان، ثم قال: يا أبا الدرداء إن لربك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه، صم وأفطر، وقم ونم، واثت أهلك، فلما كان عند الصبح قال: قم الآن، فقاما وصلياً، ثم خرجا إلى الصلاة، فلما صلى النبي ﷺ قام إليه أبو الدرداء فأخبره بما قال له سلمان، فقال له رسول الله ﷺ مثل ما قال سلمان له، وفي لفظ: فقال له رسول الله ﷺ: يا أبا الدرداء إن لجسدك عليك حقاً، مثل ما قال لك سلمان^(٣). وعن الحسن بن ضبة بن محصن عن عروة قال: دخلت خولة ابنة حكيم امرأة عثمان بن مظعون على عائشة وهي بادية الهيئة، فسألتها: ما شأنك؟ فقالت: زوجي يقوم الليل ويصوم النهار! فدخل النبي ﷺ على عائشة فذكرت ذلك له، فلقي النبي ﷺ عثمان فقال: يا عثمان! إن الرهبانية لم تكتب علينا، أفعالك في أسوة حسنة! فوالله إن أخشاكم وأحفظكم لحدوده لأنا^(٤).

(١) الحلال والحرام في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، الناشر مكتبة وهبة.

(٢) أخرجه أبو داود في (الصلاة)، باب ما يؤمر به من القصد في الصلاة (١٣٦٩) عن السيدة عائشة — رضى الله عنها.

الله عنها. و"عثمان" هو ابن مظعون ﷺ.

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى ٢٧٥/٤ والدارقطني في سننه ١٧٦/٢ والطبراني في الكبير ١١٢/٢٢.

(٤) أخرجه عبد الرزاق ١٦٨/٦ عن عروة، والطبراني في الكبير ٣٨/٩.

وحرص الخلفاء الراشدون على تطبيق نهج النبوة في إعطاء المرأة حقها في المعاشرة الزوجية:

- عن علي قال: يؤجل العنين سنة، وإن وصل وإلا ففرق بينهما (١).
- عن ابن جريج قال: أخبرني من أصدق أن عمر بينا هو يطوف سمع امرأة تقول: تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرقني أن لا حبيب ألاعبه

فلولا حذار الله لا شيء مثله لزعرع من هذا السرير جوانبه

فقال عمر: وما لك؟ قالت أغربت زوجي منذ أشهر وقد اشتقت إليه! قال: أردت سوءاً؟ قالت: معاذ الله! قال فاملكي عليك نفسك فإنما هو البريد إليه، فبعث إليه؛ ثم دخل على حفصة فقال: إني سائلك عن أمر قد أهمني فافرجيه عني، في كم تشتاق المرأة إلى زوجها! فخفضت رأسها واستحييت، قال: فإن الله لا يستحي من الحق، فأشارت بيدها ثلاثة أشهر، وإلا فأربعة أشهر، فكتب عمر أن لا تحبس الجيوش فوق أربعة أشهر (٢).

وضرب الرسول ﷺ بنفسه المثل في إعطاء المرأة حقها في المعاشرة الزوجية بالحدود الشرعية، وخاصة في أيام الحيض حيث كان الاعتقاد السائد ألا يقرب الرجل زوجته نهائياً في تلك الأيام: وكان ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه، وهي حائض أمرها أن تنزر، ثم يباشرها (٣). وقامت أمهات المؤمنين بتطبيق السنة الشريفة كمنازلات هدى للمسلمين: فعن نديبة مولاة ميمونة قالت: دخلت على ابن عباس، وأرسلتني ميمونة إليه، فإذا هو في بيته فراشان، فرجعت إلى ميمونة فقلت: ما أرى ابن عباس إلا مهاجراً لأهله، فأرسلت ميمونة إلى بنت سرج الكندي، امرأة ابن عباس تسألها، فقالت: ليس بيني وبينه هجر ولكنني حائض، فأرسلت ميمونة إلى ابن عباس: أترغب عن سنة رسول الله ﷺ؟ فقد كان رسول الله ﷺ يباشر المرأة من نسائه حائضاً، تكون عليها الخرقعة إلى الركبة وإلى نصف الفخذ (٤).

(١) أخرجه الدارقطني في سنن ٣/٣٠٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/٢٢٧.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٧/١٥٠.

(٣) أخرجه البخاري في (الحيض، باب مباشرة الحائض) ومسلم في (الحيض، باب مباشرة الحائض فوق الإزار ٢٩٣) عن السيدة عائشة - رضي الله عنها.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١/٣٢١ والطبراني في الكبير ٢٤/١١ وابن راهويه في مسنده ١/٢١٩.

- وعن عائشة قالت: كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد ونحن جنبان، وكنت ألقى رأس رسول الله ﷺ وهو معتكف في المسجد وأنا حائض، وكان يأمرني إذا كنت حائضا أن أنزر، ثم يباشرني (١).

وعلم الرسول ﷺ المسلمين كيف يتحررون من الخجل في معاشره نساءهم:

- قال عثمان بن مظعون للنبي ﷺ إني أستحي أن يرى أهلي عورتى؟ فقال ﷺ: إن الله تعالى جعلها لك لباساً وجعلك لها لباساً، وأهلي يرون عورتى وأنا أرى ذلك منه (٢).

وعلم الرسول ﷺ المسلمين كيف يجددون نشاطهم لتجديد علاقاتهم مع نساءهم:

- قال ﷺ: إذا أتى أحدكم أهله ثم أراد أن يعاود فليتوضأ، فإنه أنشط للعود (٣).

ودعا الرسول ﷺ إلى أن تكون المعاشره فيها لطف ومراعاة لمشاعر المرأة:

- وقال ﷺ: "إذا أتيت أهلك فاعمل عملاً كيساً" (٤).

وحدد الرسول ﷺ آداب للجماع حتى يحقق الأهداف الإيمانية التي يعيش في رحابها المسلمون، ومن تلك الآداب البعد عن الجماع في الدبر، وعدم التجرد الكامل من الملابس، بإلقاء غطاء عليهما، وأن يذكر الرجل اسم الله حتى يجنب ذريته الشيطان:

- قال ﷺ: أئتها على كل حال إذا كان في الفرج (٥).

- قال ﷺ: إذا أتى أحدكم أهله فليلق على عجزه وعجزها ثوباً ولا يتجردان تجرد

العينين (٦).

- قال ﷺ: استحيوا فإن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أدبارهن (٧).

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٢٦٨/١.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٣٧/٩ وعبد الرزاق ١٩٥/٦ وابن سعد في الطبقات ٢٨٧/٣ عن سعيد بن مسعود الليثي.

(٣) أخرجه بلفظه الحاكم ٢٥٤/١ وابن حبان ١٢/٤ وأخرجه بنحوه مسلم في (الحيض، باب جواز نوم الجنب ٣٠٨) كلهم من حديث أبي سعيد الخدري ؓ.

(٤) أخرجه البغدادى في تاريخ بغداد ٢٩٢/١٢ عن جابر ؓ.

(٥) أخرجه أحمد ٢٦٨/١ عن ابن عباس ؓ.

(٦) أخرجه البغدادى في تاريخه ٢٤٨/١٣ عن عبد الله بن مسعود ؓ وبنحوه الطبراني في الكبير ١٢٩/١٧ عن عتبة بن عبد. وانظر: ابن عدى في الكامل ٢٠٨/١، والزيلعي في نصب الراية ٢٤٦/٤.

(٧) أخرجه أحمد ٣٠٧/١ وابن حبان ٥١٤/٩ والطبراني في الكبير ٨٤/٤ عن خزيمه بن ثابت، وأخرجه ابن أبي شيبه ٣٦٣/٣ عن علي بن طلق.

- وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: أيعجز أحدكم إذا أتى أهله أن يقول: بسم الله، اللهم! جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني! فإن قضى بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً (١).

- وعن خزيمة بن ثابت أن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ فقال: إني أتى امرأتى من دبرها، فقال رسول الله ﷺ: نعم، فقلها مرتين أو ثلاثاً، ثم فطن رسول الله ﷺ فقال: أمن دبرها في قبلها فعنم، فأما في دبرها فإن الله نهاكم أن تأتوا النساء في أدبارهن (٢).

ثالث عشر: حريتها وحققها في استمرار

حياتها الزوجية أو إنسانها

الأصل في الزواج في الإسلام: أنه أسمى علاقات الحياة، وأجل نعم الله على الإنسان، وجعله الله آية من آيات الله في الكون، في سياق تعدد آيات الله في سورة الروم.. فقال جل شأنه: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الروم ٢١)

فأولى الأبواب والعقول، إذا تفكروا في آيات الله، عرفوا أهمية الزواج في الإسلام، القائم على المودة والرحمة، لتحقيق هدف الاستقرار، والسكن النفسي لجميع أفراد الأسرة.

ولذلك وضعت الشريعة ضمانات عدة لاستقرار الحياة الزوجية:

- أولها: مبدأ التراضي بين الطرفين، فأساس العقيدة الإسلامية هو لا إكراه في الدين لقيام البنيان الإسلامي على دعائم وطيدة، من الإخلاص والعطاء والتفاني، لا لغرض دنيوي زائف، وإنما ابتغاء وجه الله ورسوله. وقد تكلمنا عن هذا المبدأ في حرية المرأة في اختيار شريك حياتها.

- وقد فرض الله للمرأة مهر الزواج كعلامة مادية على استعداد الرجل للإنفاق، والقيام بمسئوليته تجاه زوجته وأبنائه فيما بعد، حماية للمرأة من عناء الحياة للحصول على لقمة العيش، ويكفيها ما ستكافده من مشقة في الحمل والولادة والرضاعة والتربية، لتخريج جيل إسلامي قوى قادر على تحمل تبعات الرسالة الإسلامية.

(١) أخرجه البخاري في (الوضوء باب اسباغ الوضوء) ومسلم في (النكاح، باب ما يستحب أن يقول عند الجماع / ١٤٣٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في الأحاد والثاني ١١٦/٤ عن خزيمة بن ثابت.

وقد تكلمنا عن هذه النقطة أيضاً في حرية المرأة في التصرف في أموالها.

- فرض الله المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات في مؤسسة الزواج العائلية كنوع من توزيع المسئولية الجسدية على الطرفين قال تعالى: (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) (البقرة ٢٢٨)

إن تلك الدرجة التي للرجال على النساء هي التي وضعتها المولى عز وجل في سورة النساء: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ) (النساء ٣٤)

إن تلك القوام لا تعني أن الرجل أسمى مرتبة من المرأة، بل قد جرى هذا التعيين لدواع إدارية (١). فالمعروف أن الأنظمة الديمقراطية تعتبر كافة المواطنين متساوين في الدرجة، ومع ذلك يتولى شخص من بينهم السلطة لدى الحكومة، وهكذا يتم تعيينه حاكماً أى قواماً.

وليس معناه أن هذا المسئول التنفيذي، أولى وأسمى من الآخرين من مواطني البلاد.

ومن هذا المنطلق يمكن تفسير كثير من الأحاديث النبوية الشريفة عن المرأة:

- قال رسول الله ﷺ: " المرأة راعية فسى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها " (٢). وهذا معناه أن المرأة تتولى منصب إدارة شئون أسرتها (أصغر دائرة سياسية في الأمة) وهو منصب يستوجب التشريف والتكريم، كأي منصب هام في الدولة.

- سئل رسول الله ﷺ: أى النساء خير؟ قال: التى تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فى نفسها ومالها، بما يكره (٣).

وهذه الطاعة تستلزم مسئولية الرجل بالقوام في النظام العائلي، فالشخص الذى يتولى السلطة في دولة ما، بإمكانه تسيير دفة الحكم بالأسلوب الأمثل، ما دام شعب تلك البلاد مقتنعاً بضرورة طاعة الحاكم، وهذا ما هدفت إليه الشريعة، لتحقيق الإصلاحات المطلوبة في الأسرة، وفي نفس الوقت لم تحرم المرأة من حق التشاور مع الزوج، وإبداء

(١) المرأة بين شريعة الإسلام والحضارة الغربية [من ضمن مراجع مجموعة (١)] ص ٢٢٢ (وضعية الرجل إزاء المرأة).

(٢) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب، باب القضاء وغيره، (٢ / ١٥٤).

(٣) أخرجه النسائي في كتاب النكاح (٣٢٣١).

وجهة نظرها في قرارات حياتهما المصرية، مثل فطام الأبناء وغيرها قال تعالى: (فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا) (البقرة ٢٣٣).

وقال ﷺ في حديث رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه: إني لو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفسى بيده، لا تؤدى المرأة حق ربها، حتى تؤدى حق زوجها (١).

وكلمة لو هنا حرف امتناع لامتناع فالسجود المطلق لله، وطاعة الزوج مستمدة من طاعة الله، والإيمان بشريعته، لتحقيق الخير والفلاح للأسرة المسلمة، فالعصيان لن يحقق الثمار المرجوة لبناء الأسرة، وبناء النفوس الناجية عن تلك الأسرة، فلا بد من الطاعة، لتحقيق الصالح العام في اتخاذ القرار.

وحرصاً على تحقيق الاستقرار للأسرة المسلمة، وإضفاء جو من الهناء والسرور عليها، لتذوق نعمة الله العظمى، وآياته البينات، بأن جعل لنا من أنفسنا أزواجاً - فرضت الشريعة السمحاء على الرجل حسن معاملة الزوجة، لأنها الطرف الذى يتميز بالضعف وتدفق العاطفة، فلا بد من إشباع تلك النوازع النفسية فيها، حتى تقوم بواجبها خير قيام. قال تعالى في كتابه الكريم: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا) (النساء ١٩)

وهذا أمر مطلق للرجل بمعاملة المرأة بالحسنى، سواء أكانت الزوجة توافق هواه أو لا توافقه، لأى سبب كان.. وقد حظر المولى عز وجلّ التزوج بأكثر من واحدة، لمن لا يستطيع الوفاء بحسن التعامل، مع الزوجات جميعاً على قدم المساواة قال تعالى: (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً) (النساء ٣)

- وقال رسول الله ﷺ: " خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي " (٢).

وفي إطار تلك المفاهيم الإيمانية: أقامت شريعة الإسلام نظام الأسرة المسلمة، على أسس عريقة من العقيدة، ولكن قد يحدث أن تختل الموازين النفسية لأسباب متعددة. وهنا أباح الإسلام للمرأة حرية الاختيار: إما استمرار حياتها الزوجية، حرصاً على المصلحة العامة، ابتغاء وجه الله ورسوله، وإما إفئائها، خوف ارتكاب معصية ألا تقيم حدود الله:

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الرضاع (١١٥٩) وابن ماجه في كتاب النكاح (١٨٥٢).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب (٣٨٩٥) وابن ماجه في كتاب النكاح (١٩٧٧).

- فإذا خافت المرأة نشوز زوجها، وإعراضه عنها، إما لمرضها أو لكبر سننها، أو لدمامة وجهها، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما، ولو كان في الصلح تنازل الزوجة عن بعض حقوقها، ترضية لزوجها: لقول الحق سبحانه: (وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا) (النساء ١٢٨)

- عن عائشة قالت في هذه الآية: هي المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها، فيريد طلاقها، ويتزوج عليها: تقول: أمسكني ولا تطلقني، وتزوج غيري، فأنت في حل من النفقة على والقسمه لي (١).

- وعن عائشة أن سودة بنت زمعة حين أسنت، وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله يومي لعائشة فقبل ذلك رسول الله ﷺ (٢).

- وإذا كرهت الزوجة استمرار الحياة الزوجية، فقد أباح لها الإسلام أن تتخلص من الزوجية بطريق الخلع، بأن تعطى الزوج ما كانت أخذت منه باسم الزوجية، لينهى علاقته بها.

وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: (وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ) (البقرة ٢٢٩)

والخلع الذي أباحه الإسلام، مأخوذ من خلع الثوب إذا أزاله، لأن المرأة لباس الرجل، والرجل لباس لها، كما قال المولى تبارك اسمه: (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) (البقرة ١٨٧)

ويسمى الفداء، لأن المرأة تفتدى نفسها بما تبذله لزوجها. وقد عرفه الفقهاء بأنه فراق الرجل زوجته ببذل يحصل له.

والأصل فيه ما رواه البخاري والنسائي عن ابن عباس قال: جاءت امرأة ثابت بن قيس بن شماس إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم، فقال رسول الله ﷺ: "أقبل الحديقة وطلقها تطليقة" (٣).

(١) أخرجه البخاري في كتاب النكاح (٥٢٠٦).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب النكاح (٢١٣٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطلاق (٥٢٧٣).

وهكذا يتبلور الهدف السامي للزواج: فهو شريعة مقدسة، وأوامر ربانية، ومنهاج عقائدى، يتبادل فيه الزوجان مشاعر الوفاء والإخلاص، المستمدة من أحكام الدين القيم، ومن لم يجد في نفسه القدرة على الاستمرار، في حدود تلك المفاهيم النبيلة والمبادئ العريقة، فعليه بالانسحاب من ذلك الميدان، بشرف وشجاعة.

وبذلك تتنفس المرأة نسمات الحرية العذبة، في ظل منهج الله وسنة رسوله.

— عن الحسن قال: لما خير النبي ﷺ نساءه فاخترن الله ورسوله، فصر عليهن، فقال: لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءَ مِنْ بَعْدُ (الأحزاب: ٥٢) (١).

— وقال ﷺ: لا يأخذ من المختلعة أكثر مما أعطاه (٢).

— وعن عمر قال: إذا أراد النساء الخلع فلا تكفروهن (٣).

— وعن عروة عن جهمان أن أم أبي بكر الأسلمية كانت تحت عبد الله بن أسيد فاختلعت منه ثم ندمت وندم فجاء عثمان فأخبراه فقال عثمان: هي تطليقة إلا أن تكون سميت شيئاً فهي على ما سميت فراجعها (٤). وعن كثير مولى سمرة قال: أخذ عمر بن الخطاب امرأة ناشزة فوعظها فلم تقبل فحبسها في بيت كثير الزبل ثلاثة أيام ثم أخرجها فقال: كيف رأيت فقالت: يا أمير المؤمنين لا والله ما وجدت راحة إلا هذه الثلاث فقال عمر: اخلعها ويحك ولو من قرطها (٥). وعن معمر عن أيوب عن عكرمة مولى ابن عباس قال: جاءت امرأة ثابت ابن قيس إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله لا والله ما أعتب على ثابت ديناً ولا خلقاً ولكن أكره الكفر في الإسلام فقال النبي ﷺ أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم، فدعا النبي ﷺ ثابتاً فأخذ حديقته وفارقها، وهي جميلة بنت عبد الله بن أبي سلول قال معمر: وبلغني أنها قالت للنبي ﷺ: لي من الجمال ما قد ترى وثابت رجل دميم (٦).

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٤٩٢/٧.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن ٣١٤/٧.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن ٣١٥/٧.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٤٨٣/٦.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٥٠٥/٦، والبيهقي في السنن الكبرى ٣١٥/٧ - (الزبل: السرجين، وموضعه

مزيلة بفتح الباء وضمتها. المختار (٢١٤) - (قرطها: القرط: الذي يعلق في شحمة الأذن. المختار (٤١٨).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٠٢١/٥، وابن ماجه في سنن ٦٦٣/١ - الدمامة: بالفتح القصر والقبح

ورجل دميم ومنه حديث عمر: (لايزوجن أحدكم ابنته بدميم). النهاية (١٣٤/٢).

- وعن أبي الخلال العتكي أنه سأل عثمان عن أشياء منها: رجل جعل أمر امرأته بيدها؟ فقال: هو بيدها (١).

- وعن ابن مسعود أنه جاء إليه رجل فقال: كان بيني وبين امرأتي بعض ما يكون بين الناس، فقالت: لو أن الذي بيدك من أمري بيدي لعلمت كيف أصنع؛ فقال: فقلت: إن الذي بيدي من أمرك بيدك، فقالت: أنت طالق ثلاثا فقال: أراها واحدة وأنت أحق بالرجعة، وسألقى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فلقيه فقص عليه القصة فقال: فعل الله بالرجال وفعل الله بالرجال يعمدون إلى ما جعل الله في أيديهم فيجعلونه في أيدي النساء بفيها التراب ماذا قلت؟ قال: قلت: أراها واحدة وهو أحق بها، قال: وأنا أرى ذلك ولو رأيت غير ذلك رأيت أنك لم تصب (٢).

- وعن ميمون بن مهران عن الزبير أنه كانت تحته أم كلثوم بنت عقبة، فقالت: طيب نفسي بواحدة فطلقها واحدة، فوضعت حملها، وجاء فقال: خدعتني خدعها الله! فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "سبق الكتاب، اخطبها إلى نفسها" (٣).

- وعن ابن عباس أن زوج بريرة كان عبدا لبني فلان ناس من الأنصار يقال له مغيث، والله لكأني أنظر إليه الآن يتبعها في سكك المدينة وهو يبكي! فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة أن ترجع إلى زوجها، فقالت: يا رسول الله! أأمرني بذلك؟ فقال: "إنما أنا شفيع له"، فقالت: لا والله لا أرجع إليه أبدا (٤).

- وعن الحسن: أن عمر بن الخطاب أته امرأة فأخبرته أن زوجها لا يصل إليها، فأجله حولا، فلما انقضى الحول ولم يصل إليها خيرها فاختارت نفسها، ففرق بينهما عمر، وجعلها تطليقة بائنة بائنة (٥).

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٤٩٤/٦.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٥٢٠/٦، والبيهقي في السنن الكبرى ٣٤٧/٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه ٦٥٣/١، وعبد الرزاق في مصنفه ٤٧٣/٦، وابن أبي شيبة في مصنفه ١٩٤/٤.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٢٥٠/٧، وانظر شرح معاني الآثار ٨٢/٣.

(٥) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٣٤٦/٧، وعبد الرزاق في مصنفه ٦٥/٧.

المبحث الثاني: حريات وحقوق المرأة كأم

إن من الحقوق التي تنبأ بها شريعة الإسلام - بما لم تبلغه أية حضارة في عصرنا هذا هو حق الأبوين في بر أبنائهما، وهذا الحق لا يفرضه قانون مدني، إنما هو تشريع إلهي يتأب الابن عليه ويرتفع به إلى الدرجات العلا، ويعتبر تركه من الكبائر التي لا تغتفر ويهبط الإنسان بسبب التقصير فيه إلى دركات من الجحيم الدنيوى والأخروى.

وإن من يشاهد التفكك الأسرى في دول أوروبا وأمريكا، وانفراط العقد الاجتماعي فيها يعرف عظمة الإسلام في التأكيد على هذا الحق للأبوين، بما يساعد على تماسك الأسرة وتربطها وبالتالي الوحدة السياسية للأمة في مجموعها، لأن الأسرة هي اللبنة الأساس في بناء الأمة و إشاعة مفهوم البر والوفاء فيها يعني الترابط المادى والمعنوى في جنات الأمة الإسلامية، وهذا ما تفتقده الشعوب حالياً لغياب المثل الرفيعة، واستبدالها بقوانين مادية فاقدة قوتها المعنوية.

قال تعالى في كتابه الكريم: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) (الإسراء: ٢٣، ٢٤).

والأحاديث التي تتكلم عن ضرورة بر الوالدين من الكثرة بمكان بما لا يسمح المجال عرضه هنا، ولكن نظراً لأن هناك اهتمام أكبر من الشريعة بأولوية الأم في البر؛ لأن الأم تحملت مشقة أكبر في الحمل والرضاعة والتربية قال تعالى: (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفَصَالُهِ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) (الاحقاف: ١٥). فإننا سنركز على الأحاديث التي تهتم بأولوية الأم في البر شرفاً وتكريماً للمرأة، مما يعتبر وسام شرف تتوج به الشريعة معانها؛ حيث لم يقتصر هذا التكريم في حياتها فقط، ولكن امتد أيضاً إلى ما بعد وفاتها؛ فالبر لا يبلى والدَيان لا يموت، والإسلام دين الدنيا والآخرة.. ونعرض أولوية الأم في البر في الدارين فيما يلي:

أولاً: حق الأم في البر أثناء حياتها

إن احتياج الأم إلى بر الأبناء يفوق كل الاحتياجات المعنوية والمادية للمرأة؛ لأنه يعني شهادة التقدير التي تعطى للأم بعد رحلة جهاد ومعاناة طويلة في تربية الأبناء، ويعني وسام شرف تضعه الأم على صدرها؛ لأنها نجحت في مشوار كفاحها، ويعني الوفاء الإيماني في

أسمى صورته، ويعني دفء الحياة في خريف العمر.. إنه يعني كل هذا وأكثر من هذا؛ ولذلك فقد جعلت له الشريعة قدسية خاصة ومكانة عالية، والتقصير فيه يعتبر من الكبائر التي لا تغتفر.

ومن السنة الشريفة نقل ذلك المنهاج التطبيقي من سنن الأقوال والأفعال لخير الأنام ﷺ حيث توضح أولوية حق الأم في البر بجلاء ووضوح:

بين الرسول ﷺ أن أكبر الكبائر عقوق الوالدين، وهذا العقوق يتمثل في أبسط صورة له في أن الابن يتسبب في سب أبيه وأمه غيباً بجرأته على سب أب وأم لرجل آخر، فما بال صور العقوق الأشد؟.

- قال رسول الله ﷺ: "أكبر الكبائر: عقوق الوالدين، يسب الرجل أباه الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه" (١).

ويوضح الرسول ﷺ أولوية الأم بالبر في أحاديث متعددة، منها:

- قوله ﷺ: إن الله تعالى يوصيكم بأمهاتكم - ثلاثاً، إن الله تعالى يوصيكم بآبائكم - مرتين، إن الله تعالى يوصيكم بالأقرب فالأقرب (٢).

- وقال رسول الله ﷺ: علموا أولادكم السباحة والرماية، ونعم هو المؤمنة في بيتها الغزل! وإذا دعاك أبوك فأجب أمك (٣).

- وقال رسول الله ﷺ: أمك! ثم أمك! ثم أمك! ثم أباك! ثم الأقرب فالأقرب (٤).

- وقال رسول الله ﷺ: أوصي الرجل بأمه! أوصي الرجل بأمه! أوصي الرجل بأمه! أوصي الرجل بأبيه! أوصي الرجل بمولاه الذي يليه وإن كان عليه من أذى يؤذيه (٥).

- وعن أبي هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله! من أحق الناس بالصحبة؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أمك، قال: ثم من؟ قال أبوك؟ فيرون أن لأمك الثلثين ولأبيك الثلث. قال سفيان: لأبيك في الحديث؟ قال: نعم (٦).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٢٢٨/٥، ومسلم في صحيحه ٩٢/١، والإمام أحمد في مسنده ١٩٥/٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سنن ٣٦٦١، والإمام أحمد في مسنده ١٣٢/٤.

(٣) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء ٨٨/٢، والسيوطي في الدر المنثور ١٩٤/٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/٨، ومسلم في البر والصلة (١، ٢)، والإمام أحمد في مسنده ٣٢٧/٢.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣١١/٤، والبيهقي في السنن الكبرى ١٧٩/٤.

(٦) انظر الزهد لهناد ٤٧٥/٢.

وتوضح الأحاديث حق الأم في الرعاية وخاصة في شيخوختها؛ حيث تضعف قواها وتحتاج السند والمعين، وهذه الرعاية، مقدمة على أعلى ذروة في الشريعة وهو الجهاد؛ فرعاية الأم أسمى أنواع الجهاد؛ لأنه يعني إعلاء كلمة الحق في أشرف ميادين الوفاء:

- وعن محمد بن عبد الله بن الفضل بن عباس قال: كنت ردف النبي ﷺ فجاء رجل فقال: يا رسول الله إن أُمِّي عجوز كبيرة إن حملتها لم تستمسك، وإن ربطتها خشيت أن أقتلها؟ فقال رسول الله ﷺ: "أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيا عنها؟" قال: نعم قال: فأحجج عن أمك (١).

- وقال رسول الله ﷺ: لا تبرح من أمك حتى تأذن لك أو يتوفاها الموت لأنه أعظم لأجرك (٢).

- وعن أنس قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني لأشتهي الجهاد وإني لأقدر عليه! قال: بقي واحد من والديك؟ قال: أُمِّي، قال: فأبل الله عذرا، فإنك إذا فعلت ذلك كنت حاجا ومعتمرا ومجاهدا إن رضيت عنك أمك، فاتق الله وبرها (٣).

كما يوضح نهج السنة الشريفة ضرورة الوفاء للأم ومن في مكانها؛ سواء الأم بالرضاع أو الأم بالتربية: وعن أبي الطفيل قال: كنت غلاما أحمل عضو البعير ورأيت رسول الله ﷺ يقسم لحما بالجعرانة فأقبلت امرأة بدوية، فلما دنت من النبي ﷺ بسط لها رداءه فجلست عليه، فسألت: من هذه؟ فقالوا: "أمه التي أرضعته" (٤).

وبين الرسول ﷺ المكانة العالية لبر الأم في الأحاديث التالية: فعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: بينا أنا في الجنة إذ سمعت قارئا، فقلت: من هذا؟ قالوا: حارثة بن النعمان، فقال رسول الله ﷺ: كذلك البر، كذلك البر، وكان أبر الناس بأمه" (٥). وقال رسول الله ﷺ: "الزم رجلها، فإن الجنة تحت أقدامها - يعني الوالدة" (٦).

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ٣٤٣/٤، والبيهقي في السنن الكبرى ٣٢٣/٢.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٤١١/١١.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط ٣٧٢/٤.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک ٧١٧/٣.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٥١/٦، والحاكم في المستدرک ١٥١/٤.

(٦) أخرجهما ابن ماجه في سنن (٢٧٨١)، والطبراني في الكبير ٣٧٢/٨.

ثانياً - حق الأم في البر بعد وفاتها

تبين السنة الشريفة كيف أن الصلة بين الأم وأبنائها لا تنقطع حتى بعد وفاتها؛ فهي تحتاج إلى البر الذي يرفع درجاتها ويعلي ذكرها سواء في الدنيا أو في الآخرة؛ فهي تحتاج إلى الدعوات والاستغفار وإكرام أهلها وأصدقائها وتحتاج إلى الوفاء بديونها سواء مع الناس أو مع الله.

ونعرض فيما يلي نهج الرسول ﷺ في رسم قواعد بر الأم بعد وفاتها بأداء ما عليها من دين نحو ربها: عن ابن عباس قال: أتى النبي ﷺ رجل بجمارية سوداء فقال: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها رقبة مؤمنة فهل تجزي هذه عنها؟ فقال لها رسول الله ﷺ: "أين الله؟ فأومأت برأسها إلى السماء"، فقال: من أنا؟ قالت: رسول الله. قال: "اعتقها فإنها مؤمنة" (١). وعن موسى بن سلمة قال: قلت لابن عباس أكون في هذه المغازي فأعتق عن أمي أفيجزئ عنها؟ فقال ابن عباس: أمرت امرأة سنان بن عبد الله الجهني أن يسأل رسول الله ﷺ عن أمها توفيت ولم تحج أفيجزئ عنها أن تحج عنها؟ فقال رسول الله ﷺ: أرأيت لو كان على أمها دين أكان يجزئ عنها؟ قال: نعم قال: فلتحج عن أمها (٢). وعن الحسن قال: قال سعد بن عباد: يا رسول الله إني كنت ابن أم سعد وإنما ماتت فهل ينفعها أن أتصدق عنها؟ قال: نعم، قال: فأني الصدقة أفضل؟ قال: اسق الماء فجعل صهريجين في المدينة، قال الحسن: فربما سقيت منهما وأنا غلام (٣). وعن ابن عباس أن رجلاً قال: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صوم شهر قال: أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيه عنها؟ قال: نعم قال: فدين الله أحق أن يقضى (٤). وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن أمه ماتت وعليها اعتكاف قال: فسألت ابن عباس فقال: اعتكف عنها وصم (٥). وبين الرسول ﷺ قواعد البر بعد الموت سواء للأم أو الأب في حديث جامع شامل نعرضه فيما يلي: عن أبي أسيد قال: كنت عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله! هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما قال: "نعم، أربعة: الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنقاذ عهدهما من بعدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما؛ فهذا الذي بقي من برهما بعد موتهما" (٦).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٠٢٨/٥، والدارمي في سننه ٢٤٩/٢.

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ٣٤٣/٤، والبيهقي في السنن الكبرى ٣٢٣/٢.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١١٢/٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٤٦٤/٦، ومسلم في صحيحه ٨٠٤/٢.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٣٥٣/٤.

(٦) أخرجه أبو داود في سنن ٣٣٦/٤، والإمام أحمد في مسنده ٤٩٧/٣.

الفصل الرابع

حريات المرأة وحقوقها على مستوى الدولة

إن حقوق المرأة التي وضعها الإسلام قانوناً تشريعياً على الحاكم، تمثل أعلى درجات الديمقراطية والرعاية الاجتماعية التي لا يمكن أن تصل إليها أية قوانين حضارية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وتمثل عظمة هذه الحقوق ألماً جاءت في وقت كانت فيه أوروبا غارقة في عصور الظلام، وكانت المرأة في العالم كله ترسخ تحت تقاليد الظلم والامتهان؛ فجاءت شريعة الإسلام نوراً أضاء جنبات البشرية، وأصقل وجدانها وقوانينها بالمبادئ الإنسانية، وهذا ما نعرضه فيما يلي:

أولاً: حق المرأة في التعبير عن الرأي

إن حرية المرأة في التعبير عن رأيها، نابعة من اهتمام الإسلام اهتماماً بالغاً بحرية الفكر، وما ينبع عنها من حرية الرأي والعقيدة. فالعقل هو خاصة الإنسان وامتيازته وشرفه، وهو مناط التكليف والخطاب الإلهي، بالأمر والنهي والوعيد. فالله يخاطب في الإنسان عقله، ويضئ الطريق أمام العقل بنور الشرع. فبالعقل كان الإنسان إنساناً وكان امتيازته على غيره. وللإنسان الحق في أن يفكر تفكيراً مستقلاً، في جميع ما يكتنفه من شئون، وما يقع تحت إدراكه من ظواهر، وأن يأخذ بما يهديه إليه فهمه، ويعبر عنه بمختلف وسائل التعبير. وقد أقر الإسلام هذا الحق على أوسع نطاق، بل جعله فريضة واجبة على كل إنسان (ذكراً كان أم أنثى) لأن الفكر الحر السليم، البعيد عن التعصب والزيغ والخذاع، لا بد أن يقود الإنسان إلى آفاق رحبة واسعة، سواء في عالم المادة أو عالم الروح.

ويعيب القرآن على الناس أن يلغوا عقولهم، ويعطلوا تفكيرهم، ويقلدوا غيرهم، ويؤمنوا بالخرافات والأوهام، ويتمسكوا بالعادات والتقاليد، دون تفكير فيما يتركون وما يأخذون. ويعني عليهم ذلك كله، ويصف من كانوا على هذه الشاكلة، بأنهم كالأنعام بل أضل سبيلاً من الأنعام، لأنهم يتبعون غيرهم دون تفكير، ولا يحكمون عقولهم فيما يعملون أو يقولون أو يسمعون، لأن العقل هو الميزة العظمى، التي ميز الله بها الإنسان على غيره من المخلوقات، فإذا ألغى عقله أو عطل فكره، تساوى بالأنعام بل كان أضل منها^(١): (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ

(١) المرأة في الإسلام حرية أم عبودية. خديجة النبراوي _ مرجع سابق.

شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ، وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءٌ وَنِدَاءٌ صُمْ بُكُمْ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (البقرة ١٧٠، ١٧١)

وحرية الرأى هى الترجمة الفعلية لحرية الفكر، فالفكر والرأى وجهان لعملة واحدة، وهما مرآة شخصية الإنسان بصفة عامة، والمسلم بصفة خاصة، فالساكت عن الحق شيطان أخرس. فالمسلم الذى تحرر فكره، وعرف طريق الحق، لابد أن يدلى برأيه فى كل موقف يتعرض له، أو كل قضية وقف بصدددها. فما فائدة الإيمان إذا لم يدعم بالرأى الحر؟ قال تعالى: (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (الحج ٤١)

ودعا صلوات ربى وسلامه عليه إلى حرية الرأى، التى ترفع لواء الحق عالياً؛ لأنها تنبع من حرية الفكر الإيماني:

- فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" (١)

ومن هذا المنطلق: أتاح الإسلام للمرأة حرية التعبير عن رأيها، لأنه مكنها من أمانة مكفولة فى أعناقها، وهى أهما زوجة وأم، مسئولة عن أعلى وديعة فى الكون، وهم النشئ الذين سيحملون على أكتافهم، مستقبل الأمة الإسلامية وهضمتها. فكما عليها مسئولية، فلها سلطة إبداء الرأى، فالمسئولية والسلطة هما كفتا الميزان، الذى تقوم عليه الحياة وتتوازن به. ومسئولية المرأة ليست فى الحياة الدنيا فقط، وإنما هى مسئولية جسيمة، تُسأل عنها أمام الله ورسوله يوم القيامة، كما قال الصادق المعصوم:

- عن ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كلكم راع ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته (٢).

من هذا المنطلق كان للمرأة فى صدر الإسلام مكانة بارزة، لإرساء دعائم المجتمع الإسلامى على أسس ثابتة من الشورى والمساواة والحرية. ونعرض هنا بعض النماذج التى تدل على حرص الرسول ﷺ أن يضع المرأة فى إطارها الصحيح اللائق بها، ليزيل ما علق

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان (٤٩) والترمذي فى كتاب الفتن (٢١٧٢).

(٢) أخرجه البخاري فى كتاب الجمعة (٨٩٣).

في وجدان المجتمع من جاهلية، اقترنت بازدياد المرأة والتقليل من شأنها، ولن نكون مبالغين إذا قلنا إن المرأة حصلت في عهد النبوة و عصر الخلفاء الراشدين على حقوق لم تكن تحلم بها أية امرأة في التاريخ من قبل.. ويمكن القول أن حق التعبير عن الرأي في مقدمة تلك الحقوق، حيث اهتم الإسلام بفتح مجالات الرشد العقلي و القولى للمرأة و ذلك بهدف خلق جيل رشيد من المسلمين، حيث المرأة هي المدرسة الأولى التي تتأهل فيها مدارك الأبناء بكيفية التعامل في الحياة.

و الأحاديث التالية تبين نماذج متعددة من توفر المناخ الاجتماعي للمرأة في التعبير عن رأيها بطريقة قد يحسدها عليها نساء العصر الحديث إذا تعرفنا على الأبعاد الحقيقية التي وصلت إليها المرأة المسلمة في عصر النبوة.

ونرى فيما يلي قوة شخصية المرأة في مواجهة الحاكم. فبعد أن كانت المرأة تعيش في ظلمات الجاهلية، مهضومة الحقوق، منبوذة اجتماعيًا، أصبحت بنور الإسلام تواجه أعلى سلطة في الدولة لا تخشى في الحق لومة لائم، وبذلك تكون المرأة المسلمة قد سبقت المرأة الغربية في كل مجالات الديمقراطية:

- فعن الشعبي قال: خطب عمر بن الخطاب فحمد الله وأثنى عليه وقال: ألا لا تغالوا في صداق النساء، وأنه لا يبلغني عن أحد ساق أكثر من شيء ساقه رسول الله ﷺ أو سيق إليه إلا جعلت فضل ذلك في بيت المال - ثم نزل، فعرضت له امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين! لكتاب الله أحق أن يتبع أم قولك؟ قال: كتاب الله، فما ذاك؟ قالت: نهيت الناس آتفا أن يتغالوا في صداق النساء، والله تعالى يقول في كتابه (وَأَتَيْتُمُ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا) فقال عمر: كل أحد أفقه من عمر - مرتين أو ثلاثا! ثم رجع إلى المنبر فقال للناس: إني كنت نهيتكم أن تغالوا في صداق النساء، فليفعل كل رجل في ماله ما بدا له (١).

ونرى كيف تناقش المرأة وتجاوز وتعبر عن رأيها بكل نضج وحرية:

- عَنْ بَيَّانِ أَبِي بَشْرٍ، عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ أَحْمَسَ يُقَالُ لَهَا: زَيْنَبُ فَرَأَاهَا لَا تَكَلِّمُ، فَقَالَ: مَا لَهَا لَا تَكَلِّمُ؟ قَالُوا: حَبِطَتْ مُضْمَتُهُ، قَالَ لَهَا: تَكَلِّمِي؛ فَإِنَّ هَذَا لَا يَحِلُّ، هَذَا مِنْ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَتَكَلَّمْتُ فَقَالَتْ: مَنْ أَكُتْ؟

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، باب لا وقت في الصداق كثر أو قل، قال الشافعي رحمه الله: لتركه النهي

عن القنطار وهو كثير، وتركه حد القليل ٢٣٣/٧.

قَالَ: امْرُؤٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، قَالَتْ: أَيُّ الْمُهَاجِرِينَ؟ قَالَ: مِنْ قُرَيْشٍ، قَالَتْ: مِنْ أَيِّ قُرَيْشٍ أَتَيْتِ؟ قَالَ: إِنَّكَ لَسْتُوْلٌ؛ أَنَا أَبُو بَكْرٍ، قَالَتْ: مَا بَقَاؤُنَا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الصَّالِحِ الَّذِي جَاءَ اللَّهُ بِهِ بَعْدَ الْجَاهِلِيَّةِ؟ قَالَ: بَقَاؤُكُمْ عَلَيْهِ مَا اسْتَقَامَتْ بِكُمْ أَيْمَتُكُمْ، قَالَتْ: وَمَا الْأَيْمَةُ؟ قَالَ: مَا كَانَ لِقَوْمِكَ رُءُوسٌ وَأَشْرَافٌ يَأْمُرُونَهُمْ فَيَطِيعُونَهُمْ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَهُمْ أَوْلَئِكَ عَلَى النَّاسِ (١).

ونرى المرأة بقوة إيمانها واعتزازها بإسلامها تواجه كل التحديات وتبلغ أقصى مدى في مجال الحريات: فعن سفيان قال: بلغني عن عمر أنه أتى أبا عبيدة فكانه رأى شيئا فقال لامرأته: أنت الفاعلة كذا وكذا! لقد هممت أن أسودك! فقالت: ما أنت على ذلك بقادر! فقال أبو عبيدة: بلى قد قدرك الله على هذا يا أمير المؤمنين! قالت: أتستطيع أن تسلبني الإسلام؟ قال لا، قالت: فأنا لا أبالي ما وراء ذلك! فقال عمر: رحمك الله! لقد وقع الإسلام منك موقعا لا أظنه يفارقك حتى يدخلك الجنة (٢).

و نذكر مجالا حصلت فيه المرأة على أعلى المستويات في التعبير عن الرأي حينما وقفت أمام سيد الخلق ﷺ تطالب مساواة المرأة بالرجل، و لكن تلك المساواة ليست في مجال الصراع المادي الرهيب على الوظائف، لكنها في مجال المسارعة في الخيرات. و بهذا يتضح الفارق الرهيب بين امرأة الأمس و امرأة اليوم في المطالبة بحقوق المرأة و هو الفارق بين المطالب الروحية السامية و المطالب الدنيوية العارضة: فعن ابن عباس قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ يقال لها: لينة، فقالت: يا رسول الله! أنا وافدة النساء إليك، ما من امرأة تسمع مقالتي إلى يوم القيامة إلا سرها ذلك، الله رب الرجال والنساء، وآدم أبو الرجال والنساء، وحواء أم الرجال والنساء، كتب الله الجهاد على الرجال، فإن استشهدوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون، وإن ماتوا وقع أجرهم على الله وإن رجعوا أجرهم الله ونحن النساء نقوم على المرضى وندايي الجرحى، فما لنا من الأجر؟ فقال يا وافدة النساء! أبلغني من لقيت من النساء أن طاعة الزوج والاعتراف بحقه تعدل ذلك كله (٣).

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب أيام الجاهلية (٣٨٣٤)، والدارمي في المقدمة، باب في كراهية أخذ الرأي (٢١٢) .

(٢) ذكره الطبراني في تفسيره ١٤٧/٢٣ .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ١١ / ٤١٠، والمنذري في الترغيب والترهيب ٣/٣٤، والسيوطي في الدر المنثور ٥١٦/٢ .

ونجد المرأة لا تخلج أمام رسول الله ﷺ وكل الصحابة من الرجال وتعبر عن رأيها بكل وضوح لإصلاح الخلل في المجتمع:

- قال ﷺ: هل منكم الرجل إذا أتى أهله فأغلق عليه بابه وألقى عليه ستره واستتر بستر الله؟ قالوا: نعم، قال: ثم يجلس بعد ذلك فيقول: فعلت كذا وفعلت كذا! فسكتوا، ثم أقبل على النساء فقال: هل منكن من يحدث؟ فسكتن، فجئت فتاة كعاب على إحدى ركبتها وتناولت لرسول الله ﷺ ليراها ويسمع كلامها فقالت: يا رسول الله! إنهم ليحدثون وإنهم ليحدثنه، فقال: هل تدرون مثل ذلك! إنما مثل ذلك شيطانة لقيت شيطانا في السكة فقضى منها حاجته والناس ينظرون إليه، ألا! إن طيب الرجال ما ظهر ريحه ولم يظهر لونه، ألا! إن طيب النساء ما ظهر لونه ولم يظهر ريحه ألا! لا يفضين رجل إلى رجل ولا امرأة إلى امرأة إلا إلى ولد أو والد(١).

وأعظم الأدلة على ما منحه الإسلام للمرأة من حرية التعبير عن رأيها والاستجابة لوجهة نظرها سورة المجادلة:

حيث استطاعت تلك المرأة، بعرض قضيتها على رسول الله ﷺ عرضاً يتفق مع ما تعانيه من مرارة، أن تنقذ نفسها وبنات جنسها، أبد الدهر من عادة جاهلية قبيحة وهي الظهار: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ الَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نَسَأْتُهُمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌ غَفُورٌ) (المجادلة ٢، ٣)

واستطاعت تلك المرأة بعد ذلك أن تعبر عن رأيها وتحاور الخليفة عمر بن الخطاب، والخليفة يستمع ويستجيب لها، فهل بعد ذلك من حقوق وحریات لها؟ وهو ما نراه فيما يلي:

- عن ثمامة بن حزن قال بينما عمر بن الخطاب يسير على حمارة لقيته امرأة فقالت: قف يا عمر، فوقف، فأغلظت له القول فقال رجل يا أمير المؤمنين: ما رأيت كاليوم؟ قال: وما يمنعني أن أسمع لها؟ وهي التي سمع الله لها، وأنزل فيها ما أنزل (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا) (٢).

(١) أخرجه أبو داود في النكاح (٥٠)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٨٦/٣.

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٢٤٥/٧. (من المجادلة ١)

كما أن المرأة بفصاحتها وبلاغتها استطاعت أن تنسي الرجال جهالها وثبتت إنسانيتها، وهي تعبر عن قصيتها:

- فعن ضرار بن صرد: ثنا عاصم بن حميد: عن أبي حمزة الثمالي عن عبد الرحمن بن جندب: عن كميل بن زياد قال: قال علي بن أبي طالب: يا سبحان الله، ما أزهّد كثيراً من الناس في خير؟ عجباً لرجل يجيئه أخوه المسلم في الحاجة، فلا يرى نفسه للخير أهلاً، فلو كان لا يرجو ثواباً، ولا يخشى عقاباً لكان ينبغي له أن يسارع في مكارم الأخلاق، فإنها تدل على سبيل النجاح، فقام إليه رجل، فقال: فذاك أبي وأمي يا أمير المؤمنين، أسمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، وما هو خير منه، لما أتني بسبايا طيء، وقفت جارية حمراء لعناء ذلفاء عطاء شماء الأنف، معتدلة القامة والهامة درماء الكعبين، خدلة الساقين، فلما رأيته أعجبت بها، وقلت: لأطلبن إلى رسول الله ﷺ، يجعلها في فيئي، فلما تكلمت أنسيت جمالها، لما رأيت من فصاحتها، فقالت: يا محمد إن رأيت أن تخلي عني وما تشمت بي أحياء العرب، فأني ابنة سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويقري الضيف، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم طيء، فقال النبي ﷺ: يا جارية هذه صفة المؤمنين حقاً لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق، والله تعالى يحب مكارم الأخلاق، فقام أبو بردة بن نيار، فقال: يا رسول الله، الله يحب مكارم الأخلاق؟ فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة أحد إلا بحسن الخلق (١)

ونرى كيف أن أمير المؤمنين قائد الدولة يستشير امرأة في رؤيا رآها، فتعبر المرأة عن رأيها بصراحة لا تخشى بطش القائد وخاصة أنها تخبره بقرب موته:

- عن سعيد بن أبي هلال أنه بلغه أن عمر بن الخطاب خطب الناس يوم الجمعة فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد أيها الناس! إني رأيت رؤيا لا أراها إلا لحضور أجلي، رأيت أن ديكا أحمر نقرني نقرتين فحدثتها أسماء بنت عميس فحدثتني أنه يقتلني رجل من الأعاجم (٢).

(١) أخرجه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٢٣٩/١٢، وابن كثير في البداية والنهاية ٢/٢١٣ - (درماء الكعبين: درم كفرح معناه: الساق والكعب أو العظم، وأراه اللحم حتى لم يبين له حجم، وخدلة الساقين: بفتح الحاء وسكون الدال: معناه المرأة الغليظة الساق المستديرة. انتهى. قاموس).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٤٤٤/٥، وابن أبي شيبه في مصنفه ٤٣٧/٧.

ثانياً - حق المرأة في الرعاية الاجتماعية

إن الرعاية الاجتماعية من أولي الأمر للمرأة ضرورة واجبة تفرضها الشريعة حذباً وحنواً على المرأة في لحظات ضعفها؛ نبعاً من مشاعر الرحمة الإيمانية التي تفيض بها شريعتنا الغراء، وهي الهدف من بعثة الرسول ﷺ؛ حيث قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) (الأنبياء: ١٠٧). وإن ما استجد من قوانين الرعاية الاجتماعية للمرأة في العالم أجمع فهي من قبس التشريع الإسلامي الذي علم البشرية كيف تحنو على المرأة وتقدر دورها الاجتماعي قبل الوظيفي؛ حيث قيام المرأة بالدورين معاً يحتاج عناية أكبر بالمرأة. ونرى مظاهر الرعاية الاجتماعية للمرأة فيما يلي:

- في حالة وفاة زوجها:

فرض الإسلام رعاية خاصة للمرأة في حالة وفاة زوجها وتحولها من امرأة محصنة إلى أرملة، فجعل السعي على مصالحها يعدل الجهاد في سبيل الله، أو العبادة العالية المستوى الرفيعة الأجر: فعن أبي هريرة قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ الْقَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ (١).

- في حالة حملها ورضاعها:

ليس أدل على رعاية الشريعة للمرأة اجتماعياً أكثر من أن تصدر لها تشريعات خاصة في الصلاة يلتزم بها جميع المؤمنين حفاظاً على ظروفها الخاصة من حمل وولادة ورضاعة، ولأمومة المرأة، التي هي أسمى الوظائف في الحياة وأكثرها حيوية للأمة: - وعن أنس، أن نبي الله ﷺ قال: إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه ببيكائه (٢). - وعن مطرف قال: دخلت على عثمان بن أبي العاص فقال: كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ حين بعثني على الطائف فقال: تجوز في الصلاة يا عثمان واقدر الناس بأضعفهم، فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف وذا الحاجة والحامل والمرضع، إني لأسمع بكاء الصبي فأتجوّز (٣).

-
- (١) أخرجه البخاري في صحيحه في النفقات، باب فضل النفقة على أهل وقول الله تعالى: (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تفكرون في الدنيا والآخرة) (٥٣٥٣)، ومسلم في الزهد، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (٢٩٨٢)، وأحمد في مسنده ٣٦١/٢.
- (٢) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الصلاة باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي (١٨١/١).
- (٣) ذكره ابن حبان في صحيحه ٣ / ٥٠، والهيتمي في مجمع الزوائد، باب من أم الناس فليخفف ٧٣/٢ وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله موثقون - فأتجوّز: أي أخففها وأقللها. النهاية [٣١٥/١].

- و قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر بأقصر سورتين، ثم قال: إنما أسرعت لتفرغ أم الصبي إلى صبيها (١).

في حالة المخاض:

ونرى الرعاية الاجتماعية للمرأة في أسمى صورها ، وذلك باهتمام رئيس الدولة بنفسه بما في حالة وضعها ، حيث يقدم لها ما يحافظ على صحتها وينفعها في حالتها هذه ، ويتوعد أى مسلم رآها في ضعفها ولم يسارع لنجدها:

- فعن سودة بنت مسرح الكندية قالت: كنت فيمن حضر فاطمة حين ضربها المخاض فجاء النبي ﷺ فقال: كيف هي؟ كيف ابنتي فديتها؟ قلت: إنها لتجهد يا رسول الله! قال: فإذا وضعت فلا تحدثني شيئاً حتى تؤذيني قالت: فوضعت - وفي لفظ: فلا تسبقني به بشيء قالت: فوضعت - فسررته ولففته في خرقة صفراء، فجاء رسول الله ﷺ فقال: ما فعلت ابنتي فديتها وما حالها وكيف هي؟ فقلت: يا رسول الله! وضعت، وسررته وجعلته في خرقة صفراء، قال: لقد عصيتني! قلت: أعوذ بالله من معصية الله ومعصية رسوله! سررته يا رسول الله ولم أجد من ذلك بدا، قال: اثبني به، فأثبته به فألقى عنه الخرقة الصفراء ولفه في خرقة بيضاء وتفل في فيه وألباه بريقه، ثم قال: ادعي لي علياً، فدعوته، فقال: ما سميت يا علي! قال سميت جعفر يا رسول الله! قال: لا، ولكنه حسن وبعده حسين وأنت أبو الحسن والحسين (٢).

ولا يوجد في أى تشريع حضارى أن رئيس الدولة يذهب لإزالة الأذى عن عجز عماء مقعدة . . فأى تكريم للمرأة بعد ذلك؟! وأية حقوق يمكن أن تحصل عليها المرأة أرفع من تلك الحقوق؟! فهل يمكن أن نسمى صراع المرأة في الحياة سعياً وراء متطلباتها أنها تحصل على حقوقها؟! وهل يمكن أن نسمى وحدة المرأة وجفاء حياتها لا تجد من يساندها ويشاركها معاناتها أنها تحصل على حقوقها؟!

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٣٦٦/٨.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٣/٣، وانظر تهذيب الكمال ٢٢٣/٦ - (فسررته: وفيه (أنه عليه السلام ولد معذوراً مسروراً) أي مقطوع السرة، وهي ما يبقى بعد القطع مما تقطعه القابلة، والسرر ما تقطعه، وهو السر بالضم أيضاً. النهاية ٣٥٩/٢ - وألباه: أي صب ريقه في فيه، كما يصب اللبن في فم الصبي، وهو أول ما يحلب عند الولادة. النهاية ٢٢١/٤.

- عن الأوزاعي أن عمر خرج في سواد الليل فرآه طلحة فذهب عمر فدخل بيتا ثم دخل بيتا آخر ، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا بعجوز عمياء مقعدة ، فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا ، يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى؛ فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة! أعشرات عمر تتبع (١).

- في مرضها:

- عن الشعبي قال: لما مرضت فاطمة أتاها أبو بكر الصديق فاستأذن عليها فقال علي: يا فاطمة هذا أبو بكر يستأذن عليك، فقالت أتحب أن آذن له؟ قال: نعم، فأذنت له فدخل عليها يترضاها، وقال: والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ورسوله ومرضاتكم أهل البيت (٢). وعن واصل مولى ابن عيينة عن رجل سأل ابن عمر عن امرأة تطاول بها دم الحيضة، فأرادت أن تشرب دواء يقطع الدم عنها؟ فلم ير ابن عمر به بأسا ونعت ابن عمر ماء الأراك (٣). وعن الحسن أن عمر بن الخطاب رأى جارية تطيش هزلا فقال عمر: من هذه الجارية؟ فقال عبد الله: هذه إحدى بناتك، قال: وأي بناتي هذه؟ قال: ابنتي، قال: ما بلغ بها ما أرى؟ قال: عملك، لا تنفق عليها، فقال: إني والله ما أغرك من ولدك فأوسع على ولدك أيها الرجل (٤).

- وعن أسماء بنت عميس قالت: قال لي رسول الله ﷺ: بماذا كنت تستمشين؟ قلت بالشيرم، قال: جاري جار ثم استمشيت بالسنا لو أن شيئا كان فيه شفاء من الموت لكان في السنا (٥).

- وعن أم أن رسول الله ﷺ قال لجارية في بيت أم سلمة زوج النبي ﷺ رأى بوجهها سفعة فقال: بها نظرة فاسترقوا لها (٦).

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية ٤٨/١، وابن الجوزي في صفوة الصفوة ١ / ٢٨١.

(٢) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٣٠١/٦.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٣١٨/١.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٩٥/٧.

(٥) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطب باب دواء المشي (٣٤٦١) عن أسماء بنت عميس قالت: قال لي رسول الله ﷺ: ... به. والترمذي كتاب الطب باب ما جاء في السنا (٢٠٨١) وقال: حسن غريب. (بالشيرم: حب يشبه الحمص يطبخ ويشرب ماؤه للتداوي. النهاية ٤٤٠/٢).

(٦) أخرجه مسلم في كتاب السلام (٢١٩٧) عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لجارية في بيت أم سلمة زوج النبي ﷺ رأى بوجهها سفعة فقال: ... به، رواها الحاكم في المستدرک ٤٦٠/٤، ومسلم في صحيحه ١٧٢٥/٤.

- وعن رافع بن خديج عن أنس قال: دخل النبي ﷺ على عائشة وهي موعوكة فشكت إليه الحمى وسبتها فقال: لا تسيها فإنها مأمورة ولكن إن شئت علمتك كلمات إذا قلتين أذهب الله عنك قولي اللهم ارحم عظمي الدقيق وجلدي الرقيق، وأعوذ بك من فورة الحريق يا أم ملام إن كنت آمنت بالله واليوم الآخر فلا تأكلي اللحم ولا تشربي الدم ولا تفوري على الفم، ولا تصدعي الرأس وانتقلي إلى من زعم أن مع الله إله آخر فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، قالت عائشة: فقلت لها فذهبت عني الحمى (١).

- عن البراء قال: دخلت مع أبي بكر أول ما تقدم المدينة، فإذا عائشة ابنته مضجعة قد أصابتها حمى، وأتاها أبو بكر فقال: كيف أنت يا بنية! وقبل خدها (٢).

في حالة تعرضها للمخاطر والأذى المعنوي:

ولم تكف الشريعة بالرعاية الاجتماعية للمرأة ذات المنصب أو الجاه، بل امتدت إلى الإماء تقديراً للإنسانية المرأة، وحفظاً لكرامتها، ومراعاة لمشاعرها، وحبها لأبنائها، مهما كان المركز الاجتماعي لتلك المرأة:

- عن بريدة قال: كنت جالسا عند عمر إذ سمع صائحة، فقال: يا يرفاً انظر ما هذا الصوت فنظر، ثم جاء فقال: جارية من قريش تباع أمها، فقال عمر: ادع لي المهاجرين والأنصار، فلم يمكث إلا ساعة حتى امتلأ الدار والحجرة، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فهل تعلمونه كان فيما جاء به محمد ﷺ القطيعة؟ قالوا: لا، قال: فإنها قد أصبحت فيكم فاشية، ثم قرأ: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ) (محمد: ٢٢)، ثم قال: وأي قطيعة أفظع من أن تباع أم امرئ فيكم وقد أوسع الله لكم؟ قالوا: فاصنع ما بدا لك، فكتب في الآفاق أن لا تباع أم حر فإنها قطيعة رحم وإنه لا يحل (٣).

- وعن أبي جعفر أن أبا أسيد جاء النبي ﷺ بسبي من البحرين، فنظر النبي ﷺ إلى امرأة منهم تبكي، فقال: ما شأنك؟ فقالت: باع ابني، فقال النبي ﷺ لأبي أسيد: أبعث

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ٤٩٧/١، وأبو يعلى في مسنده ١٢٥/٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب (٣٩١٨) وأبو داود في الأدب، باب في قبلة الخد (٥٢٢٢).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک ٤٩٧/٢، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب عتق العالين الأولاد ١٠ / ٣٤٤.

ابنها؟ قال: نعم، قال: في من؟ قال: في بني عبس، فقال النبي ﷺ: اركب أنت بنفسك فأت به (١).

- وعن الخطاب بن صالح، عن أمه قالت: حَدَّثَنِي سَلَامَةُ بِنْتُ مَعْقِلٍ قَالَتْ: كُنْتُ لِلْحَبَابِ بْنِ عَمْرٍو وَلِي مِنْهُ غُلَامٌ، فَقَالَتْ لِي امْرَأَتُهُ: الْآنَ تُبَاعِينَ فِي دَيْنِهِ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ صَاحِبُ تَرْكَةِ الْحَبَابِ بْنِ عَمْرٍو؟ فَقَالُوا: أَخُوهُ أَبُو الْيُسْرِ كَعْبُ بْنُ عَمْرٍو، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: لَا تَبِيعُوهَا وَأَعْتَقُوهَا، فَإِذَا سَمِعْتُمْ بَرْقِيقَ قَدْ حَسَبْنِي فَأَتُونِي أَعُوْضُكُمْ فَفَعَلُوا. فَاخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ قَوْمٌ: أُمُّ الْوَلَدِ مَمْلُوكَةٌ لَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يُعَوِّضَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ حُرَّةٌ قَدْ أَعْتَقَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (٢).

- وعن عائشة قالت: خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس فمشيت حتى اقتحمت حديقة فيها نفر من المسلمين فيهم عمر بن الخطاب وفيهم طلحة، فقال عمر: إنك لجرينة وما يدريك لعله يكون بلاء أو تحوز. فوالله ما زال يلومني حتى لوددت أن الأرض تنشق فأدخل فيها، فقال طلحة: قد أكثرت أين التحوز أين الفرار (٣).

في حالة احتياجها العون على أعمالها:

ومن مظاهر الديمقراطية الإسلامية أن رئيس الدولة يتشارك مع المرأة في تلقيها مبادئ الطهي رعاية لها، وتقديراً لجهدها كي لا يضيع هباء، ومشاركة وجدانية لها مع أعلى سلطة في الدولة:

- عن حزام بن هشام عن أبيه قال: رأيت عمر بن الخطاب عام الرمادة مر على امرأة وهي تعصد عصيدة لها فقال: ليس هكذا تعصدين ثم أخذ المسوط فقال: هكذا - فأراها (٤).

- (١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٣٠٧ / ٨ (ح ١٥٣١٧) والزبيلي في نصب الراية ٢٤ / ٤.
- (٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣٦٠ / ٦، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب عتق العالين الأولاد ١٠ / ٢٤٥، والطبراني في الكبير ٤ / ٤٤. سلامة بنت معقل الخزاعية ترجم لها ابن حجر في الإصابة (٣٣٠ / ٤).
- (٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ١٣٢ / ٧ - (تحوز: هو من قوله تعالى: (أو متحيزا إلى فئة) أي منتزعا إليها. والتحوز والتحيز والإنحياز بمعنى. النهاية ٥٩ / ١).
- (٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣ / ٣١٤، وابن حجر في الإصابة ٥١٢ / ٤ - (المسوط: في حديث سودة (أنه نظر إليها وهي تنظر في ركوة فيها ماء فيها وقال: إني أخاف عليكم منه المسوط) يعني الشيطان، سمي به من ساط القدر بالمسوط، والمسوط، وهو خشبة يحرك بها ما فيها ليختلط. النهاية ٢١ / ٢. والمسوط: خلط الشيء بعضه ببعض، ومنه سمي المسوط. وسوطه تسويطا: خلطه وأكثر من ذلك. المختار ٢٥٥.

- عن هشام بن خالد قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: لا تذرن إحداكن الدقيق حتى يسخن الماء ثم تذره قليلا قليلا وتسوطها بمسوطها فإنه أريع لها وأحرى أن لا يتقرد (١).

في حالة وقوع الحد عليها نتيجة أخطائها:

ومن الرعاية الاجتماعية للمرأة أن يراعى المسئولون العدالة والرحمة في تطبيق قوانين الدولة عليها إذ قد تلجأ المرأة إلى الجريمة تحت ظروف خارجة عن إرادتها، فيجب على ولي الأمر أن يتمحص ملابسات القضية وظروفها قبل النطق بالحكم، وهذا من نبع رحمة الإسلام: وعن أبي الضحى أن امرأة أتت عمر فقالت: إني زنت فارجهني فرددها، حتى شهدت أربع شهادات فأمر برجمها، فقال علي: يا أمير المؤمنين ردها فاسألها ما زناها لعل له عذرا؟ فرددها فقال: ما زناك؟ قالت: كان لأهلي إبل فخرجت في إبل أهلي، فكان لنا خليط فخرج في إبله فحملت معي ماء ولم يكن في إبلي لبن، وحمل خليطنا ماء وكان في إبله لبن فنغد مائي فاستسقيته فأبى أن يسقيني حتى أمكنه من نفسي فأبيت حتى كادت نفسي تخرج أعطيته، فقال علي: الله أكبر، فمن اضطر غير باغ ولا عاد، أرى لها عذرا (٢).

- وعن عروة وعطاء أن رفقة من أهل اليمن نزلوا الحرة ومعهم امرأة وهي ثيب، فتركوها ببعض الحرة حتى بذلت نفسها، فبلغ عمر خبرها فأرسل إليها فساءها فقالت: كنت امرأة مسكينة لا يعطف على أحد بشيء فما وجدت إلا نفسي، فسأل رفقتها فصدقوها فحدها، ثم كساها وحملها وقال: اذهبوا بها ولا تذكروا ما فعلت (٣).

- وعن أبي الطفيل أن امرأة أصابها جوع فأتت راعيا فسألته الطعام فأبى عليها حتى تعطيه نفسها قالت: فحثا لي ثلاث حثيات من تمر ثم أصابني وذكرت أنها كانت أجهدت من الجوع فأخبرت عمر فكبر وقال: مهر مهر مهر كل حفنة مهر ودرأ عنها الحد (٤).

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣ / ٣١٤، وتاريخ الطبري ٥٧١/٢ - (أريع: الربيع: الزيادة والنماء. النهاية ٢٨٩/٢ - يتقرد: أى لنلا يركب بعضه بعضا. النهاية ٣٧/٤).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في السنن ٢ / ٩٦، وعبد الرزاق في مصنفه ٣٥٠/٧ - (خليط، الخليط: المخالط، ويريد به الشريك الذى يخلط ماله بمال شريكه النهاية (٦٣/٢).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٣٦٤٩). (الحرة: أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار. الصحاح للجوهري (٦٢٦/٢). ب)

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٣٦٥٣). (أجهدت: إذا حمل عليها في السير فوق طاقتها. المختار من صحاح اللغة ص (٨٤) ب)

- عن التزال بن سيرة قال: إنا لبمكة إذا نحن بامرأة اجتمع عليها الناس حتى كادوا أن يقتلوها، وهم يقولون زنت زنت، فأتي بها عمر بن الخطاب وهي جلي، وجاء معها قومها فأتوا عليها خيرا. فقال عمر: أخبريني عن أمرك، قالت: يا أمير المؤمنين، كنت امرأة أصيب من هذا الليل، فصليت ذات ليلة، ثم نمت، فقامت ورجل بين رجلي فقذف في مثل الشهاب، ثم ذهب، فقال عمر: لو قتل هذه من بين الجبلين أو الأخشبين لعذبهم الله، فخلى سبيلها، وكتب إلى الآفاق أن لا تقتلوا أحدا إلا بإذني (١).

ومن مبادئ الشرع الخفيف حفظ حياة الطفل من الهلاك؛ فإذا كانت الأم محكوم عليها بالموت وهي في شهور الحمل؛ فإن الشرع قد منع إقامة الحد عليها حتى تضع حملها، بل وصل الأمر لأبعد من هذا فجعل إقامة الحد عليها لا ينفذ إلا بعد نهاية فترة الرضاع واعتماد الصغير على نفسه في الأكل والشرب:

- فعن عبد الله بن بريدة عن أبيه: جَاءَتِ الْغَامِدِيَّةُ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي. وَإِنَّهُ رَدَّهَا. فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ تَرُدَّنِي؟ لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزًا، فَأَوَّاهُ إِلَى لِحْجَلِي. قَالَ: إِمَّا لَا، فَأَذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي فَلَمَّا وَلَدَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ. قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدْتُ. قَالَ: أَذْهَبِي فَأَرْضِعِي حَتَّى تَقْطُمِيهِ. فَلَمَّا قَطَمْتُهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كَسْرَةٌ خُبْرٌ فَقَالَتْ هَذَا، يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ قَطَمْتُهُ، وَأَكَلُ الطَّعَامِ. فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَخُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَّوْهَا، فَيُقْبَلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ، فَرَمَى رَأْسَهَا. فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ، فَسَبَّهَا. فَسَمِعَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ سَبَّهُ إِيَّاهَا. فَقَالَ: مَهْلًا يَا خَالِدًا! فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً، لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ (٢).

- فعن عبيد بن عمير أن امرأة زنت فجاءت النبي ﷺ فقال لها: أحامل أنت؟ قالت: نعم فقال: اذهبي فإذا وضعت فأتيني، فلما وضعت جاءته فقال: اذهبي فأرضعيه، وإذا فطمته فأتيني، فلما فطمته جاءته، قال: اذهبي فاستودعيه، ثم أتيني فذهبت فاستودعته، ثم جاءته فأمر برجمها فرجمت فسبها بعض من كان عنده، فقال النبي ﷺ: أتسبون امرأة لم تزل مجاهدة نفسها حتى أدت الذي عليها (٣).

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٣٦٦).

(٢) أخرجه مسلم مطولاً في (الحدود)، باب من اعترف على نفسه بالزنا، رقم ٢٣/١٦٩٥.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٧ / ٢٠٥.

ولا يجوز القصاص من الحامل قبل أن تضع ، سواء كانت حاملا وقت الجناية أو حملت بعدها قبل الاستيفاء ، وسواء كان القصاص في النفس أو في الطرف .

أما في النفس : فلقوله تعالى: (فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ) (الإسراء : ٣٣) ، وفي قتل الحامل قتل لغير القاتل ، وذلك إسراف . ويستدل على ذلك من السنة بما أخرجه ابن ماجه عن معاذ بن جبل وأبي عبيدة بن الجراح وعبادة بن الصامت وشداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال : " المرأة إذا قُتِلَتْ عمدًا لا تُقْتَلُ حتى تُضَعَّ ما في بطنها إن كانت حاملاً ، وحتى تكفل ولدها " (١).

وهذا نص في عدم قتل الحامل حتى تضع ، وذلك ما لا خلاف فيه . وكذا القصاص في الطرف لا يجوز في حق الحامل حتى تضع ؛ كيلا يُفْضَى ذلك إلى السراية إلى الجاني أو إلى الزيادة في حقه ، فإن كان ذلك في حق الجاني فلا جرم أن يكون في حق الجاني عليه أولى ، ومن جهة أخرى : فإن القصاص من الحامل قتل لغير الجاني وهو حرام . وإن وضعت حملها فلا تقتل حتى تسقى ولدها اللبن ؛ لأن الولد لا يعيش إلا به غالباً ، وكذلك إذا لم يكن للولد من يرضعه : لم يجوز قتلها أو القصاص منها حتى يُقَطَّم . ولو بادر مستحق القصاص وقتل الحامل فمات الولد : لزمه الضمان . فإن مات في بطنها : لزم فيه الدية ، وإن مات بعد الوضع : لزم فيه القود ، كما لو حبسه في بيت ومنعه الطعام . ولو قالت : أنا حامل ولا بينة على الحمل : وجب التأخير حتى يستبين حملها ، وقيل : يرجع في ذلك إلى قول أهل الخبرة ، فإن شهدن بحملها : لزم تأخيرها ، وإن شهدن ببراءتها : لم تؤخر ؛ لأن الحق حال عليها فلا يؤخر بمجرد دعواها (٢).

ونعرض مزيداً من مظاهر الرعاية الاجتماعية للمرأة في حالة خطئها :

- عن عمر أنه أتت بامرأة زنت ، فقال ويح المرية أفسدت حسبها اذهبا فاضرباها ولا تخرقا جلودها ، إنما جعل الله أربعة شهداء سترنا ستركهم الله به دون فواحشكم فلا يطلعن ستر الله أحد إلا وإن الله لو شاء لجعله واحدا صادقاً أو كاذباً (٣).

(١) أخرجه ابن ماجه كتاب الديات ، باب الحامل يجب عليها القود ، (٢٦٩٤)

(٢) ينظر: المغنى (ج ٧ ص ٧٣١ ، ٧٣٢) والأنوار (ج ٢ ص ٤٠١) وأسهل المدارك (ج ٣ ص ١٢٤) والمجموع (ج ١٨ ص ٤٥٣).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن ٢٦٤/٨ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ . (المرية: هي تصغير المرأة . انتهى . النهاية (٤/٣١٤))

- وعن أبي واقد الليثي أن عمر بن الخطاب أتاه رجل وهو بالشام فذكر له أنه وجد مع امرأته رجلاً، فبعث أبا واقد إلى امرأته يسألها عن ذلك، فأتتها فذكر لها الذي قال زوجها لعمر، وأخبرها أنها لا تؤخذ بقوله، وجعل يلقيها أمثال هذا لتزع، فأبت أن تزع وثبتت على الاعتراف، فأمر بها عمر بن الخطاب فرجعت (١).

- عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال: توفي عبد الرحمن بن حاطب وأعتق من صلى من رقيقه وصام، وكانت له نوبة قد صلت وصامت وهي أعجمية لم تفقه ولم يرعه إلا جليها وكانت ثيباً فذهب إلى عمر فزعا فحدثه، فقال له عمر: لأنت الرجل لا يأتي بخير فأفرعه ذلك، فأرسل إليها عمر، فسألها، فقال: جلت؟ فقالت: نعم من مرعوش بدرهين، وإذا هي تستهل بذلك ولا تكتمه، فصادف عنده عليا وعثمان وعبد الرحمن بن عوف، فقال: أشيروا علي فقال علي وعبد الرحمن: قد وقع عليها الحد، فقال: أشر علي يا عثمان فقال: قد أشار عليك أخواك، فقال: أشر على أنت، فقال عثمان: أراها تستهل به كأنها لا تعلمه ولا ترى به بأساً، وليس الحد إلا على من علمه، قال: صدقت والذي نفسي بيده ما الحد إلا على من علمه (٢).

- عن أبي الدرداء أن عمر أتى بسارقة سوداء فقال لها: أسرقت؟ قولي: لا. قالوا: أتلقنها؟ قال: جئتموني يانسان لا يدري ما يراد به من الخير أم الشر لتقر حتى أقطعها (٣).

في حالة انتقالها إلى الرفيق الأعلى:

تستحق المرأة الاهتمام والرعاية عند انتقالها إلى الرفيق الأعلى؛ حيث نرى الرسول ﷺ يضع لنا الأسوة الحسنة في إحاطة المرأة بالرعاية والحنان في موتها مثل حياتها امتداداً لينابيع الرحمة الإيمانية وتكريماً للإنسانية وبصفة خاصة المرأة التي خرج من رحمها الإنسان ليكون خليفة الله في الأرض ينطلق في آفاقها ويستنطق أسرارها. وهذا نراه بوضوح في الأحاديث النبوية والآثار التالية:

(١) أخرجه مالك في الموطأ (الحدود ١٥).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن ٢٣٨/٨، والشافعي في مسنده ١/١٦٨. (ولم يرعه: الروع: الفزع.

انتهى. النهاية (٢٧٧/٢) ب) (تستهل: الاستهلال: رفع الصوت، واستهلال الصبي: تصويته عند ولادته.

النهاية (٢٧١/٥). ب).

(٣) انظر شرح معاني الآثار ٣٢٣/٤.

- وعن علي قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم كنفها النبي ﷺ في قميصه، وصلى عليها فكير عليها سبعين تكبيرة ونزل في قبرها فجعل يومي في نواحي القبر كأنه يوسعه ويسوي عليها، وخرج من قبرها وعيناه تذرفان، وحثا في قبرها، فلما ذهب قال له عمر بن الخطاب: يا رسول الله! رأيتك فعلت في هذه المرأة شيئا لم تفعله على أحدا فقال: يا عمر! هذه المرأة كانت أُمي بعد أُمي التي ولدتي، إن أبا طالب كان يصنع الصنيع وتكون له المأدبة وكان يجمعنا على طعامه فكانت هذه المرأة تفضل منه كله نصيبا فأعود فيه، وإن جبريل أخبرني عن ربي أنها من أهل الجنة، وأخبرني جبريل أن الله تعالى أمر سبعين ألفا من الملائكة يصلون عليها (١).

- اللهم! أجرها من الشيطان وعذاب القبر! اللهم! جاف الأرض عن جنبها، وصعد روحها، ولقها منك رضوانا (٢).

- توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ، فخرجنا معه، فرأينا رسول الله ﷺ مهما شديد الحزن، فجعلنا لا نكلم، حتى انتهينا إلى القبر فإذا هو لم يفرغ من لحدّه، فقعد رسول الله ﷺ وقعدنا حوله، فحدث نفسه هنيهة وجعل ينظر إلى السماء، ثم فرغ من القبر، فترل فيه فرأيته يزداد حزنا ثم إنه فرغ فخرج فرأيته سري عنه وتبسم، فقلنا: يا رسول الله! رأيناك مهما حزينا لم نستطع أن نكلمك ثم رأيناك سري عنك فلم ذلك؟ قال: كنت أذكر ضيق القبر وغمه وضعف زينب مكان ذلك فشق علي فدعوت الله أن يخفف عنها ففعل، ولقد ضغطها ضغطة سمعها من بين الخافقين إلا الجن والإنس (٣).

كما تستحق المرأة الحفاظ على عوراتها وطهارة جسدها حين الاستعداد للقاء ربها؛ فيقف الرسول ﷺ ليعلم النساء كيف يقمن بغسل من سبقهن على درب الإيمان بطريقة تحقق هن الطهر والجمال استعدادا للقاء الرحمن:

- وعن أم سليم قالت: قال رسول الله ﷺ: إذا توفيت المرأة فأرادوا أن يغسلوها فليبدؤا بطنها فليمسح بطنها مسحا رقيقا إن لم تكن حبلى، فإن كانت حبلى فلا تحركها فإن أردت غسلها فابدئي بسفلتها فألقي على عورتها ثوبا ستيرا، ثم خذي كرسفة فاغسلها فأحسني غسلها، ثم أدخل يديك فغسلها من تحت الثوب فامسحها بكرسف

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ١٠٨/٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه في شعبة ٤٩٥/١، والطبراني في المعجم الكبير ٢٧٤/١٢.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٣٠/١.

ثلاث مرات، فأحسني مسحها قبل أن توضئها، ثم وضئها بماء فيه سدر؛ ولتفرغ الماء امرأة وهي قائمة لا تلي شيئاً غيره حتى تنقى بالسدر وأنت تغسلين، وليل غسلها أولى النساء بها وإلا فامرأة ورعة، فإن كانت صغيرة أو ضعيفة فلتلها امرأة أخرى ورعة مسلمة، فإذا فرغت من غسل سفلتها غسلا نقياً بسدر وماء فلتوضئها وضوء الصلاة؛ فهذا بيان وضوئها، ثم اغسلها بعد ذلك ثلاث مرات بماء وسدر، فابدئي برأسها قبل كل شيء، فأنقي غسله من السدر بالماء، ولا تسرحي رأسها بمشط، فإن حدث بها حدث بعد الغسلات الثلاث فاجعليها خمسا، فإن حدث في الخامسة فاجعليها سبعا، وكل ذلك فليكن وترا بماء وسدر، فإن كان في الخامسة أو الثالثة فاجعلي فيها شيئاً من كافور وشيئاً من سدر ثم اجعلي ذلك في جر جديد ثم أقعديها فأفرغي عليها فابدئي برأسها حتى تبلغ رجليها، فإذا فرغت منها فألقي عليها ثوبا نظيفا، ثم ادخلي يدك من وراء الثوب فانزعي عنها، ثم احشي سفلتها كرسفا ما استطعت، واحشي كرسفها من طيها، ثم اخذي سبتية طويلة مغسولة فاربطها على عجزها كما يربط على النطاق، ثم اعقديها بين فخذيها وضمي فخذيها، ثم ألقى طرف السبتية عن عجزها إلى قريب من ركبتيها فهذا شأن سفلتها، ثم طيها وكفنيها، واضفري شعرها ثلاثة أقرن: قصة وقرنين، ولا تشبهيها بالرجال، وليكن كفنها في خمسة أثواب أحدهما الإزار تلف به فخذيها، ولا تنقضي من شعرها شيئا بنورة ولا غيرها، وما يسقط من شعرها فاغسله ثم اغرزيه في شعر رأسها، وطبي شعر رأسها فأحسني تطييبه، ولا تغسلها بماء سخن، واجريها وما تكفنيها به بسبع بندات إن شئت، واجعلي كل شيء منها وترا، وإن بدا لك أن تجمرها في نعشها فاجعليه وترا هذا شأن كفنها ورأسها؛ وإن كانت مجدورة أو محصوبة أو أشباه ذلك فخذي خرقة واحدة واغمسيها في الماء واجعلي تتبعي كل شيء منها، ولا تحركيها فإني أخشى أن يتنفس منها شيء لا يستطيع رده (١). هذا هو الإسلام: الذي يوصمونه بمتانا وظلما بأنه انتقص من مكانة المرأة. إنني أكاد أجزم بكل اليقين، أن البعد عن منهج الإسلام هو الذي أدى لذلك، فالإسلام حرر البشرية جمعاء من عبودية الأهواء، وظلمات الشرك والضلالة. وحرر المرأة بصفة خاصة من كل ما تعانیه من ذلك، لأنها صانعة الأجيال، فلا بد أن توفر لها الشريعة الحرية والعزة والكرامة، لخلق أجيال مسلمة قوية، قادرة على إقامة حدود الله، وتجوب الأرض لنشر مبادئ الحق، وتقليل البشرية من عثرات الجاهلية. وإذا كانت النساء ينعمن الآن بالحرية في أرجاء العالم، فهذا بفضل جهاد سيدنا محمد ﷺ لإرساء شريعة الإسلام، وما تضمنته من تعزيز مكانة النساء.

ثالثاً - حق المرأة فى الضمان الاجتماعى

ويتمثل الضمان الاجتماعى للمرأة فى توفير احتياجاتها من المأكل والملبس ومساندتها فى أعباء المعيشة التى تواجهها ، وذلك للحفاظ على حق المرأة فى الحياة الكريمة وتمشيًا مع قوانين الشريعة التى تحميها من الصراعات المادية فى البحث عن وظيفة تعينها على مواجهة الحياة ، وتلك الرعاية يقوم بها المسئولون فى الدولة على كل المستويات ، وتزداد أمانة المسئولية مع عظم السلطة: فعن أنس أن امرأة أتت عمر بن الخطاب فقالت: يا أمير المؤمنين! إن درعى تحرق، قال: ألم أكسك؟ قالت: بلى، ولكنه تحرق؛ فدعا لها بدرع فجيب وخيط، وقال: البسى هذا -يعنى الخلق- إذا خبزت وإذا جعلت البرمة، والبسى هذا إذا فرغت، فإنه لا جديد لمن لا يلبس الخلق(١). ونماذج رعاية الدولة للمرأة متعددة فى نهج الخلفاء الراشدين ، حيث لم يتركوها بمفردها فى خضم الحياة توفر متطلبات أبنائها ، وها نحن نرى الخليفة عمر رضي الله عنه يهتم بأمر المرأة التى تشكو له احتياج أولادها ، وهى أرملة وحيدة فى الحياة لا تملك من حطام الدنيا شيئاً ، وتحشى على أبنائها من الضياع ، فيسارع الخليفة إلى مساندتها بما يحقق الإشباع الكامل لهم: عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى السوق فلحقت عمر امرأة شابة فقالت: يا أمير المؤمنين هلك زوجي وترك صبيةً صغيراً، والله ما ينضجون كراعاً، ولا لهم زرع ولا ضرع، وخشيت أن تأكلهم الضيعة، وأنا بنت خفاف بن إيماء الغفاري، وقد شهد أبى الحديبية مع النبي صلى الله عليه وسلم، فوقف معها عمر ولم يمض، ثم قال: مرحباً بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهر كان مربوطاً فى الدار فحمل عليه غرارتين مألهاً طعاماً، وحمل بينهما نفقةً وثياباً، ثم ناولها بخطامه، ثم قال: اقتاديه فلن يفنى حتى يأتىكم الله بخير، فقال رجل: يا أمير المؤمنين أكثرت لها، قال عمر: ثكلتك أمك والله إلى لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصراً حصناً زمناً فافتتحاه، ثم أصبحنا نستقي سهماً بينهما فيه(٢).

وتتميز حقوق المرأة التى سنتها الشريعة بأنها ليست حقوقاً مادية جوفاء، بل هى حقوق مادية ومعنوية ترتبط بتعاليم السماء(٣)..

- (١) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه ٣١٤/٦ - البرمة: القدر مطلقاً وجمعها برام. النهاية (١/٢١١).
 (٢) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية وقول الله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) (٣٩٢٨). (ينضجون: أى ما يطبخون كراعاً لعجزهم وصغرهم. يعنى لا يكفون أنفسهم خدمة ما يأكلونه فكيف غيره؟) وفى رواية "ما تستنضج كراعاً" والكراع: يد الشاة النهاية (٥/٦٩) (ظهر: يعنى شديد الظهر قويا على الرحلة. النهاية (٣/١٦٦).
 (٣) موسوعة تحرير المرأة فى عصر الرسالة. عبد الحليم أبو شقة. الناشر: دار القلم.

وهكذا فإننا نرى أن الفاروق عمر بن الخطاب وهو في أوج خلافته لا يكتفى بتوفير ماديات الحياة التي تحتاجها المرأة لرعاية أولادها ، بل هو يسعى كذلك إلى إضافة الاحتياجات المعنوية للأطفال ، فلا تطيب نفسه إلا بإضحاكهم بعدما تعذبت نفسه ببكائهم . وفي ذلك قمة السعادة والتقدير للمرأة بما لا يوجد في أية ديموقراطيات حديثة .

- وعن أسلم أن عمر بن الخطاب طاف ليلة فإذا هو بامرأة في جوف دار لها وحولها صبيان يكون وإذا قدر على النار قد ملأها ماء فدنا عمر من الباب فقال: يا أمة الله! ما بكاء هؤلاء الصبيان؟ قالت: بكاؤهم من الجوع ، قال: فما هذه القدر التي على النار؟ قالت: قد جعلت فيها ماء هو ذا أعللهم به حتى يناموا وأوهمهم أن فيها شيئاً دقيقاً ، فبكى عمر ثم جاء إلى دار الصدقة وأخذ غرارة وجعل فيها شيئاً من دقيق وشحم وسمن وتمر وثياب ودراهم حتى ملأ الغرارة ثم قال: يا أسلم! احمل علي ، فقلت: يا أمير المؤمنين! أنا أحمله عنك؟ فقال لي: لا أم لك يا أسلم! أنا أحمله لأنني أنا المسئول عنهم في الآخرة ، فحملته حتى أتى به منزل المرأة ، فأخذ القدر فجعل فيها شيئاً من شحم وتمر وجعل يحركه بيده وينفخ تحت القدر ، فرأيت الدخان يخرج من خلل لحيته حتى طبخ لهم ، ثم جعل يغرف بيده ويطعمهم حتى شعوا! ثم خرج وربض بجذائهم حتى كأنه سبع ، وخفت أن أكلمه ، فلم يزل كذلك حتى لعب الصبيان وضحكوا ، ثم قام فقال: يا أسلم! تدرى لم ربضت بجذائهم؟ قلت لا ، قال: رأيتهم يكون فكرهت أن أذهب وأدعهم حتى أراهم يضحكون ، فلما ضحكوا طابت نفسي(١) ..

ومن الضمان الاجتماعي للمرأة توفير الغذاء اللازم للحفاظ على صحتها من قبل المسئولين ، والإنفاق عليها بما يضمن البهاء والنضارة:

- عن الحسن أن عمر بن الخطاب رأى جارية تطيش هنالاً فقال عمر: من هذه الجارية؟ فقال عبد الله: هذه إحدى بناتك ، قال: وأى بناتي هذه؟ قال: ابنتي ، قال: ما بلغ بها ما أرى؟ قال: عملك ، لا تنفق عليها ، فقال: إني والله ما أغرك من ولدك فأوسع على ولدك أيها الرجل(٢) .

(١) أخرجه الهندي في كثر العمال (٣٥٩٧٨) و انظر تاريخ الطبري ٣٣٤/٢ - غرارة: الغرارة - بالكسر - واحدة غرائر التبن، وأظنه معرباً. المختار ٣٧١ .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٩٥/٧ ، وابن سعد في الطبقات ٣ / ٢٧٧ .

رابعاً - حق المرأة في المواساة والعزاء

إن هذا الحق للمرأة يبين شفافية المشاعر الإيمانية وحنو الشريعة على المرأة في أحلك لحظات ضعفها فيفرض على المجتمع أن يتضامن مع أحزانها ، ويجعل في ذلك ثواباً أخروياً عظيماً. وفي هذا أقصى رعاية للمرأة، حيث تجد بجانبها من يساندها مادياً ومعنوياً، بما يخفف وطأة الأحزان. وهذا عكس الخواء الروحي الذي تعيشه المرأة في الغرب نتيجة الغلو في الأنانية، بما يؤدي إلى الانعزالية وحرمان الإنسانية من دفء المشاعر الغالية وقت المصائب والكوارث(١).

ومن مظاهر هذه المواساة كما ورد في السنة النبوية:

- عن منية بنت عبيد بن أبي ברزة عن جدها أبي ברزة قال قال رسول الله ﷺ: من عزى ثكلى كسى برداً في الجنة(٢).

- عن أبي بكر الصديق قال: قال موسى عليه السلام: يا رب ما لمن عزى الثكلى؟ قال: أظله بظلي يوم لا ظل إلا ظلي(٣). وتبلغ ذروة العاطفة الإيمانية في قلب الرسول ﷺ في التفاعل مع أحزان المرأة في أحاديث متعددة تجعل ذلك التفاعل فرضاً واجب الأداء على كل مؤمن بالله واليوم الآخر وامتلاً قلبه بينابيع الرحمة المتجددة: فعن أسامة بن زيد، قال: كنا عند النبي ﷺ فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه وتخبره أن صبيها في الموت فقال الرسول: ارجع إليها فأخبرها أن الله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب! فعاد الرسول فقال: إنها قد أقسمت لتأتينها، فقام النبي ﷺ وقام معه سعد بن عباد ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال وانطلقت معهم، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تقعقع كأنها في شن، ففاضت عيناه، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء(٤).

- عن أبي هريرة قال: أبصر عمر امرأة تبكي على قبر فزبرها فقال رسول الله ﷺ: دعها يا أبا حفص! فإن العين باكية والنفس والعهد حديث(٥).

(١) موسوعة تحرير المرأة في عصر الرسالة. عبد الحليم أبو شقة، مرجع سابق.

(٢) أخرجه الترمذى في السنن (١٠٧٦).

(٣) أخرجه الترمذى في السنن (١٠٧٦).

(٤) أخرجه البخارى في صحيحه ٤٣١/١.

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٥٨٧)، والإمام أحمد في مسنده ٤٤٤/٢.

وهناك مواقف متجددة للرسول ﷺ في مواساة المرأة والمشاركة الوجدانية معها لتخفيف لوعة الأحران عليها. وهو بذلك يضرب المثل الأعلى للمسلمين في ضرورة رعاية المرأة والحدب عليها ومساندتها في أحداث الحياة وأقدارها اقتداءً بسنته الشريفة للوصول إلى صلاح الدنيا والدين:

- عن بريدة قال: كنا مع النبي ﷺ ، إذ بلغه وفاة ابن امرأة من الأنصار ، فقام وقمنا معه ، فلما رآها قال: ما هذا الجزع؟ قالت: يا رسول الله وما لي لا أجزع؟ وأنا رقيب لا يعيش لي ولد ، فقال رسول الله ﷺ: إنما الرقوب الذي لا يموت ولدها، أما تحيين أن تربه على باب الجنة، وهو يدعوك إليها؟ قالت: بلى ، قال: فإنه كذلك (١).

- وعن أنس بن مالك ، أن أم الربيع بنت البراء -وهي أم حارثة بن سراقه- أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة -وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غريب- فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء ، قال: يا أم حارثة إنها جنان في الجنة ، وإن ابنتك أصاب الفردوس الأعلى (٢).

- وقال رسول الله ﷺ: لولا أن تجزع صفية لتركنا حمزة فلم ندفنه حتى يحشر من بطون الطير والسباع (٣).

- وعن أسماء بنت يزيد بن الموطأ الأنصارية رضي الله عنها قالت: لما مات سعد بن معاذ صاحبت أمه فقال لها رسول الله ﷺ: ألا يرقأ دمك ويذهب حزنك؟ فإن ابنتك أول من ضحك الله له واهتز له العرش - قاله لأم سعد بن معاذ (٤).

- وقال رسول الله ﷺ: مهلا يا عمر! فكل باكية مكثرة إلا أم سعد ما قالت من خير فلم تكذب (٥).

إن نهج الخلفاء الراشدين يبين كيف أنهم تشربوا روح النبوة ، واتبعوا هدى الرسول ﷺ في مواساة المرأة مهما كان موقع مسئولياتهم أو سلطاتهم . وبذلك أثبتوا لكل منصف للحق أن

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ١ / ٤٥٠ ، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه بذكر الرقوب، والهيشمي في مجمع الزوائد باب فيمن مات له ابنان ٣ / ٨ ، وقال: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من أتاه سهم غرب فقتله (٢٨٠٩) والترمذي في كتاب التفسير، باب ومن سورة المؤمنون رقم (٣١٧٤) وقال: حسن صحيح.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (١٩٦/٣) وقال: صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک ٣ / ٢٢٨ ، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٥ / ٤٩٤ ، والإمام أحمد في مسنده ١ / ٢٣٧.

الإسلام أعلى من شأن المرأة علوا يليق بوظيفتها الشرعية مما لم تكن تحلم به أية امرأة على مدار التاريخ.

- عن يزيد بن الأصم قال: لما توفي خالد بن الوليد بكت عليه أم خالد فقال عمر: يا أم خالد! أخالدا وأجره ترزئين جميعا؟ عزمت عليك أن لا تبتقي حتى تسود يدك من الخضاب (١).

خامساً - حق المرأة فى الوفاء لها

يندر أن توجد قوانين تسن حقوق الإنسان فى الوفاء له و لكن الإسلام دين الإخلاص و الوفاء يجعل الوفاء واجباً دينياً فى عنق كل مسلم.. يقول المولى ﷺ (وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا) لذلك فإن المرأة فى الشريعة الإسلامية تحظى بحقوق إنسانية لا يوجد لها مثيل فى أى قوانين عصرية، و نرى منهج الرسول ﷺ فى الوفاء نحو المرأة ليكون سنة متبعة بين جميع المسلمين، وذلك فى الأحاديث التالية:

وفاءه ﷺ لأخته فى الرضاعة بنت حليمة السعدية:

- عن أبي بكر بن سبرة عن إبراهيم بن عبد الله عن عبيد بن عبد الله بن عتبة عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال: جاءت أخت رسول الله ﷺ السعدية إليه مرجعه من حنين فلما رآها رحب بها وبسط لها رداءه، لأن تجلس عليه فاعظمت ذلك، فعزم عليها فجلست فذرفت عينا رسول الله ﷺ حتى بلت دموعه لحيته فقال رجل من القوم: أتبكي يا رسول الله ﷺ؟ قال: نعم لرحمها وما دخل عليها، لو كان لأحدكم أحد ذهباً ثم أعطاه فى حق رضاعه ما أدى حقها، أما حقي الذي آخذ منك فلك، وأما ما للمسلمين فلست بأخذته إلا أن يطيبوا به نفساً، قال: فلم يبق أحد من المسلمين إلا أدى ما أخذ منها (٢).

وفاءه ﷺ لأمه فى التربية السيدة فاطمة بنت أسد:

- عن علي قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم كفنها النبي ﷺ فى قميصه، وصلى عليها فكبر عليها سبعين تكبيرة ونزل فى قبرها فجعل يومى فى نواحي القبر كأنه يوسعه ويسوي عليها، وخرج من قبرها وعيناه تذرفان، وحثا فى قبرها، فلما ذهب قال له عمر

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١١٧/٧ - (ترزين: وفى حديث المرأة التى جاءت تسأل عن ابنا (إن أزرأ

ابنى فلم أزرأ حيائى) أى أن أصبت به وفقدته فلم أصب بحياي. والرزء: المصيبة بفقد الأعزة. وهو من

الانقراض أيضاً. النهاية ٢/٢١٨.

(٢) أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه ٤٧٩/٧، والتمهيد لابن عبد البر ٢٨/٢٤.

بن الخطاب: يا رسول الله! رأيتك فعلت في هذه المرأة شيئاً لم تفعله على أحد! فقال: يا عمر! هذه المرأة كانت أُمي بعد أُمي التي ولدتي، إن أبا طالب كان يصنع الصنيع وتكون له المأدبة وكان يجمعنا على طعامه فكانت هذه المرأة تفضل منه كله نصيباً فأعود فيه، وإن جبريل أخبرني عن ربي أنها من أهل الجنة، وأخبرني جبريل أن الله تعالى أمر سبعين ألفاً من الملائكة يصلون عليها(١).

ونرى النهج التطبيقي لسنة الرسول ﷺ عندما تولى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ فترى وفاءه لزوجات الرسول ﷺ أمهات المؤمنين رضي الله عنهن أجمعين فيما يلي:

— عن عبد الرحمن بن أبزي قال: صلى عمر على زينب بنت جحش فكبر عليها أربع تكبيرات قال أراد عمر أن يدخل قبر زينب بنت جحش فأرسل إلى أزواج النبي ﷺ فقلن: إنه لا يحل لك أن تدخل القبر، وإنما يدخل القبر من كان يحل له أن ينظر إليها وهي حية(٢).

سادساً — الحفاظ على مشاعرها

إن الحفاظ على مشاعر المرأة يعني الارتقاء بإنسانيتها وتقدير مشاعرها الأنثوية التي تتسم بالبرقة والحساسية مما يتطلب الرعاية والتقدير فمن مبادئ الإسلام: " إنزال الناس منازلهم " ومن مظاهر هذا الحفاظ على المشاعر مما وضحته السنة المطهرة أيضاً:

— حرص الخليفة أبو بكر الصديق على طلب رضا السيدة فاطمة رضي الله عنها، وكيف أنه لم يدخل إلا ياذها:

— عن الشعبي قال: لما مرضت فاطمة أتاها أبو بكر الصديق فاستأذن عليها فقال علي: يا فاطمة هذا أبو بكر يستأذن عليك ، فقالت أتحب أن آذن له ؟ قال: نعم ، فأذنت له فدخل عليها يترضاها ، وقال: والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ورسوله ومرضاتكم أهل البيت(٣).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ١٠٨/٣ .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٥/٣ .

(٣) ذكره البيهقي في السنن الكبرى، باب بيان مصرف أربعة أخماس الفداء بعد رسول الله ﷺ وأنها تجعل حيث كان رسول الله ﷺ يجعل فضول غلات تلك الأموال مما فيه صلاح الإسلام وأهله وأنها لم تكن موروثه عنه ٣٠١/٦، والاعتقاد ١ / ٣٥٤ .

كما حرص أبو بكر الصديق رضي الله عنه على زيارة امرأة من نساء المسلمين كان يزورها الرسول ﷺ ومشاركتها مشاعرها فبكيا معا حزنا على انقطاع خبر السماء:

- وعن أنس قال: لما قبض رسول الله ﷺ قال أبو بكر لعمر: انطلق بنا نزور أم أيمن كما كان النبي ﷺ يزورها فانطلقنا ، فجعلت تبكي ، فقالا لها: يا أم أيمن إن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ، فقالت: قد علمت ما عند الله خير لرسول الله ، ولكن أبكى على خبر السماء انقطع عنا ، فهيجتهما على البكاء ، فجعلتا يبكيان معها (١).

ونرى الرسول ﷺ يحنو على المرأة ويحافظ على مشاعرها ليكون سلوكه منهاجاً تطبيقياً للأمة الإسلامية، ومن ذلك الحفاظ على مشاعر ابنته السيدة فاطمة الزهراء من أن تقاسى آلام الغيرة، فمنع علي رضي الله عنه أن يتزوج بأخرى حفاظاً على مشاعرها:

- عن علي بن حسين: أَنَّ الْمُسَوَّرَ بْنَ مَخْرَمَةَ قَالَ: إِنَّ عَلِيًّا خَطَبَ بِنْتَ أَبِي جَهْلٍ، فَسَمِعَتْ بِذَلِكَ فَاطِمَةُ، فَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَزْعُمُ قَوْمُكَ أَنَّكَ لَا تَغْضَبُ لِبَنَاتِكَ، وَهَذَا عَلِيٌّ نَاكِحٌ بِنْتَ أَبِي جَهْلٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَسَمِعَتْهُ حِينَ تَشْهَدُ يَقُولُ: أَمَّا بَعْدُ: أَكْخْتُ أَبَا الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ فَحَدَّثَنِي وَصَدَّقَنِي، وَإِنَّ فَاطِمَةَ بَضْعَةٌ مِنِّي، وَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ يَسُوءَهَا، وَاللَّهِ لَا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِنْتُ عَدُوِّ اللَّهِ عِنْدَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَتَرَكَ عَلِيٌّ (٢) ..

وحافظ الرسول ﷺ على مشاعر عمته صفية من الحزن على أخيها حمزة إذا تركه بدون دفن:

- وقال رسول الله ﷺ: لولا أن تجزع صفية لتركنا حمزة فلم ندفنه حتى يحشر من بطون الطير والسباع (٣).

- وعن جابر لما قتل حمزة يوم أحد أقبلت صفية تطلبه لا تدري ما صنع فلقيت عليا والزبير فقال علي للزبير: اذكر لأهلك ، وقال الزبير لعلي: اذكر لعمتك ، فقالت: ما فعل حمزة؟ فأريها أنهما لا يدريان ، فجاء النبي ﷺ فقال: إني أخاف على عقلها ، فوضع يده على صدرها ودعا لها ، فاسترجعت وبكت ، ثم جاء فقام عليه وهو قد مثل به فقال: لولا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أم أيمن رضى الله عنها رقم (٢٤٥٤).

(٢) أخرجه البخارى في المناقب ١٦ باب ذكر أصحاب النبي ﷺ منهم أبو العاص بن الربيع رضى الله عنه (٣٧٢٩) والترمذى كتاب المناقب باب فضل فاطمة... رقم ٣٨٦٩ وقال حسن صحيح.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (١٩٦/٣) وقال: صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي.

جزع النساء لتركته حتى يحشر من حواصل الطير وبطون السباع، ثم أمر بالقتلى فجعل يصلى عليهم فيضع سبعة وحمة فيكبر عليهم سبع تكبيرات ثم يرفعون ويترك حمة ثم دعا سبعة فيكبر عليهم سبع تكبيرات حتى فرغ منهم (١).

و حافظ الرسول ﷺ على مشاعر درة بنت أبي لهب من أن يؤذيها النساء بمعايرتها بأبيها فنهى الناس عن ذلك:

- وعن محمد بن إسحاق عن نافع مولى ابن عمر عن ابن عمر وعن سعيد المقبري عن عمار وأبي هريرة قالوا: قدمت درة بنت أبي لهب المدينة مهاجرة، فزلت في دار رافع بن المعلى فقال لها نسوة جلسن إليها من بنى زريق: ابنة أبي لهب الذى أنزل الله فيه (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) (سورة السد: ١) فما يغني هجرتك! فأتت درة رسول الله ﷺ فبكت وذكرت ما قلن لها، فسكنها وقال: اجلسي ثم صلى بالناس الظهر، ثم جلس على المنبر ساعة ثم قال: يا أيها الناس! مالى أودى في أهلي؟ فوالله إن شفاعتى تنال قرابتي حتى أن صداء وحكم وحاء وسلهب لتناولها يوم القيامة (٢).

وحافظ الرسول ﷺ على مشاعر كل أم ثكلى، فسمح لهن بالتعبير عن مشاعرهن، ونهى الناس عن معاتبتهن طالما أن مشاعرهن من مشاعر الرحمة الإلهية، وليس من مشاعر غضب شيطانية:

- فَعَنْ سَلَمَةَ ابْنِ الْأَزْرَقِ قَالَ: تُوْفِّي بَعْضُ كَنَائِنِ مَرْوَانَ، فَشَهِدَهَا النَّاسُ وَشَهِدَهَا أَبُو هُرَيْرَةَ وَمَعَهَا نِسَاءٌ يَبْكِينَ، فَأَمَرَهُنَّ مَرْوَانُ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: دَعْنَهُ؛ فَإِنَّهُ مَرَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَنَازَةً مَعَهَا بَوَاكٍ، فَتَهَرَّهْنَ عُمَرُ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: دَعْنَهُ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ مُصَابَةً، وَالْعَيْنَ دَامِعَةٌ، وَالْعَهْدَ حَدِيثٌ (٣).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ٢١٨/٣، وقال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه، والبيهقي في السنن الكبرى، باب من زعم أن النبي ﷺ صلى على شهداء أحد ٤ / ١٢، وابن أبي شبة في مصنفه ٣٧٢/٧، والطبراني في الكبير ٣ / ١٤٢، والهيثمي في مجمع الزوائد، باب مقتل حمة رضى الله عنه ٦ / ١١٨ وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار وفيه عبد الرحمن بن أبي الزناد وهو ضعيف وقد وثق.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤ / ٢٥٩، والهيثمي في مجمع الزوائد، باب مناقب درة بنت أبي لهب رضى الله عنها ٩ / ٢٥٧، وأبو بكر الشيباني في الأحاد والمثاني ٥ / ٤٧٢.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢ / ٤٤٤، والبيهقي في السنن الكبرى، باب سياق أخبار تدل على جواز البكاء بعد الموت ٤ / ٧٠.

- وعن ابن عباس قال: لما مات عثمان بن مظعون قالت امرأة: هنيئاً لك الجنة عثمان بن مظعون، فنظر رسول الله ﷺ إليها نظراً غضباً فقال: وما يذكرك؟ قالت: يا رسول الله فارسك وصاحبك، فقال رسول الله ﷺ: والله إني رسول الله وما أدري ما يفعل بي فأشفق الناس على عثمان، فلما ماتت زينب ابنة رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: ألحقني بسلفنا الصالح الخير عثمان بن مظعون فبكت النساء، فجعل عمر يضربهن بسوطه، فأخذ رسول الله ﷺ بيده، وقال: مهلاً يا عمر ثم قال: ابكين وإياكن وتعيق الشيطان ثم قال: إله مهمما كان من العين والقلب؛ فمن الله عز وجل، ومن الرحمة، وما كان من اليد واللسان؛ فمن الشيطان (١).

وحافظ الرسول ﷺ على مشاعر أسماء بنت عميس عندما أحزنها عمر ﷺ بقوله سبقناكم بالهجرة، فواساها الرسول ﷺ بما يطمئن خاطرها ويعلى شأنها هي ومن كان معها:

- فعن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال: لما قدم جعفر من أرض الحبشة لقي عمر بن الخطاب أسماء بنت عميس فقال لها: سبقناكم بالهجرة ونحن أفضل منكم، قالت: لا أرجع حتى آتي رسول الله ﷺ، فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله! لقيت عمر فزعم أنه أفضل منا وأهم سبقونا بالهجرة، فقال النبي ﷺ: بل أنتم هاجرتم مرتين. قال إسماعيل: فحدثني سعيد بن أبي بردة قال قالت يومئذ لعمر: ما هو كذلك، كنا مطرودين بأرض البعداء والبغضاء وأنتم عند رسول الله ﷺ يعظ جاهلكم ويطعمم جائعكم (٢).

وقد طبق الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ منهج الرسول ﷺ في الحفاظ على مشاعر المرأة بطريقة مثالية تدل على رقي الحضارة الإسلامية وسمو مبادئها بما يسبق كل الحضارات المعاصرة التي تحافظ على أهواء المرأة ونزعاتها فقط ولا تأخذ بها إلى مدارج الرقي المعنوي.

- عن سفيان بن سلمة قال: لما مات خالد بن الوليد اجتمع نسوة بنى المغيرة في دار خالد يكيبن عليه، فقيل لعمر: إنهن قد اجتمعن في دار خالد وهن خلقاء أن يسمعنك بعض ما تكره فأرسل إليهن فأنهين، فقال عمر: وما عليهن أن يرقن من دموعهن على أبي سليمان ما لم يكن نقعا أو لقلقة (٣).

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٣٧/١.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٣٨٠/٦، وأبو يعلى في مسنده ٣٠٤/١٣، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٢٠٢/١١.

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الصغير ٤٦/١، والذهبي في سير أعلام النبلاء ٣٨٣/١.

وحافظ عمر بن الخطاب رضي الله عنه على مشاعر السيدة عائشة رضي الله عنها فأرسل يستأذن أن يدفن مع الرسول ﷺ وأبي بكر في حجرهما:

- فَعَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ الْأَوْدِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ اذْهَبْ إِلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رضي الله عنها فَقُلْ: يَقْرَأُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَيْكَ السَّلَامَ، ثُمَّ سَلَهَا أَنْ أُدْفَنَ مَعَ صَاحِبِي، قَالَتْ: كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي، فَلَا وَثَرَتُهُ الْيَوْمَ عَلَى نَفْسِي، فَلَمَّا أَقْبَلَ قَالَ لَهُ: مَا لَدَيْكَ؟ قَالَ: أَذْنْتُ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: مَا كَانَ شَيْءٌ أَهَمَّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَضْجَعِ، فَإِذَا قَبِضْتُ فَأَحْمِلُونِي، ثُمَّ سَلَمُوا، ثُمَّ قُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَإِنْ أَذْنْتُ لِي فَأَدْفُونِي، وَإِلَّا فَرُدُّونِي إِلَى مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ؛ إِنِّي لَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَحَقَّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ هَؤُلَاءِ الثَّغَرِ الَّذِينَ تُؤْفَى رِسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ، فَمَنْ اسْتَخْلَفُوا بَعْدِي فَهُوَ الْخَلِيفَةُ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا، فَسَمِيَ عُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَوَلَجَ عَلَيْهِ شَابٌّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: أَبَشِّرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِبُشْرَى اللَّهِ، كَانَ لَكَ مِنَ الْقَدَمِ فِي الْإِسْلَامِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، ثُمَّ اسْتَخْلَفْتَ فَعَدَلْتَ، ثُمَّ الشَّهَادَةُ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ، فَقَالَ: لَيْتَنِي يَا ابْنَ أَخِي وَذَلِكَ كَفَافًا لَا عَلَيَّ وَلَا لِي، أَوْصَى الْخَلِيفَةُ مَنْ بَعْدِي بِالْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ خَيْرًا؛ أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَأَنْ يَحْفَظَ لَهُمْ حُرْمَتَهُمْ، وَأَوْصِيهِ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا (الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ) أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَيُعْفَى عَنْ مُسِيئَتِهِمْ وَأَوْصِيهِ بِذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُوفَى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَأَنْ لَا يَكْلَفُوا فَوْقَ طَاقَتِهِمْ(١).

سابعاً - حق المرأة في الحفاظ على كرامتها عرضها

إن ذلك الحق للمرأة يأخذ في الشريعة الإسلامية أبعاداً تختلف كلية عن القوانين الغربية لأن الحفاظ على العرض يحتل مكانة أساس في الشريعة حيث تحيط عرض المرأة بسياج منيع يحمي كل امرأة من همزات الشياطين، وافتراء المفترين، بعكس الحضارة الغربية؛ التي تؤمن بالحرية المنفلتة عن كل المبادئ والقيم ونعرض فيما يلي الاتجاهات المتعددة للشريعة في الحفاظ على عرض المرأة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهم (١٣٩٢)

ومالك في الموطأ، كتاب الجنائز (٥٤٨). (الآيات من سورة الحشر ٩)

تحرم الشريعة الاعتداء القولى قبل الفعلى ، وذلك حماية للمرأة وصيانة لعرضها ، قال تعالى : (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلَدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (النور: ٤) ، (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (النور: ٢٣) .

ومن هذا المنطلق نجد الخليفة عمر بن الخطاب كان ينفذ ذلك الحكم بكل أمانة:

— فعن عبيد الله بن عبد الله أن عمر بن الخطاب كان يجلد من يفترى على نساء أهل

المدينة (١).

وقد حافظ النبي ﷺ ، والخلفاء الراشدون من بعده على أعراض النساء في الحياة المدنية والحربية ، وكانت تعاليمه ﷺ دقيقة في احترام النساء وصيانتهم من كل ما يחדش الحياء أو يعرض كرامتهن أو أعراضهن للإمتهان:

— ونهى النبي ﷺ أن يمشى الرجل بين المرأتين (٢).

— وعن الشعبي قال: جاءت امرأة إلى عمر فقالت: يا أمير المؤمنين! إني وجدت صبيًا

ووجدت قبطية فيها مائة دينار ، فأخذته واستأجرت له ظئرا وإن أربع نسوة يأتينه ويقبلنه ، لا أدرى أيتهن أمه! فقال لها: إذا هن أتينك فأعلميني ، ففعلت ، فقال لامرأة منهن: أيتكن أم هذا الصبي؟ فقالت: والله ما أحسنت ولا أجهلت يا عمر! تعمد إلى امرأة ستر الله عليها فتريد أن تهتك سترها! قال: صدقت ، ثم قال للمرأة: إذا أتينك فلا تسألين عن شيء وأحسنى إلى صبيهن؛ ثم انصرف (٣).

— وعن هرمز بن عبد الرحمن بن رافع بن خديج عن أبيه عن جده لما كان يوم الخندق

لم يكن حصن أحصن من حصن بنى حارثة ، فجعل النبي ﷺ النساء والصبيان والذراري فيه فقال: إن ألم بكن أحد فألمعن بالسيف فجاءهن رجل من بنى ثعلبة بن سعد يقال له بخدان أحد بنى حجاج على فرس حتى كان في أصل الحصن ، ثم جعل يقول للنساء: انزلن إلى خير لكن فحركن السيف فأبصره أصحاب النبي ﷺ فابتدر الحصن قوم فيهم رجل من بنى حارثة يقال له ظهير بن رافع فقال: يا بخدان ابرز فبرز إليه فحمل عليه فقتله وأخذ رأسه فذهب به إلى رسول الله ﷺ (٤).

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى كتاب الحدود (٢٥٣/٨).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٥٢٧٣).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط ٣١١/٨ — (الظئر: الموضة غير ولدها ويقع على الذكر والأنثى النهاية ١٥٤/٣).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٦٨/٤.

واحترم الخليفة أبو بكر رغبة ابنته فاطمة رضي الله عنها في الحفاظ على حرمتها بعد الموت:

- وعن أم جعفر أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: يا أسماء! إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء، إنه يطرح على المرأة الثوب فيصفها، فقالت أسماء: يا بنت رسول الله! ألا أريك شيئا رأيته بأرض الحبشة، فدعت بجرائد رطبة فحنتها ثم طرحت عليها ثوبا، فقالت فاطمة: ما أحسن هذا وأجمله! يعرف به الرجل من المرأة، فإذا أنا مت فاغسليني أنت وعلى ولا يدخل على أحد، فلما توفيت جاءت عائشة تدخل فقالت أسماء: لا تدخل، فشكت إلى أبي بكر فقالت: إن هذه الخنعية تحول بيني وبين ابنة رسول الله ﷺ وقد جعلت لها مثل هودج العروس، فجاء أبو بكر فوقف على الباب وقال: يا أسماء! ما حملك على أن منعت أزواج النبي ﷺ يدخلن على ابنة رسول الله ﷺ وجعلت لها مثل هودج العروس؟ فقالت: أمرتني أن لا يدخل عليها أحد ورأيتهما هذا الذي صنعت وهي حية فأمرتني أن أصنع ذلك لها، فقال أبو بكر: فاصنعي ما أمرتك، ثم غسلها على وأسماء(١)..
وجعلت الشريعة حرمة نساء المجاهدين كحرمة أمهات القاعدين، حفاظاً عليهن من

كل النفوس الشاردة الطامعة:

- حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ مَرْثَدٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة، فقليل له: هذا قد خلفك في أهلك بسوء فخذ من حسناته ما شئت، فيأخذ من عمله ما شاء، فما ظنكم؟ ما أرى يدع من حسناته شيئاً(٢).

ووضعت الشريعة ضوابط في الدخول على المغيبات التي سافر أزواجهن للجهاد:

- وقال: ﷺ: لا يدخلن رجل بعد يومي هذا على مغيبة إلا ومعه رجل أو اثنان(٣).
- وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال عمر بن الخطاب: لا يدخل رجل على مغيبة فقال: إن أخا لي أو ابن عم لي خرج غازياً وأوصاني فأدخل عليهم فضره بالدرة فقال: إذن كذا إذن دونك لا تدخل وقم على الباب، فقل لكم حاجة أتريدون شيئاً(٤).

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٠٤/٩، والسيوطي في جمع الجوامع (٤٧١٠).

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، باب حرمة نساء المجاهدين وإثم من خانهم فيهن (١٨٩٧).

(٣) أخرجه مسلم كتاب السلام رقم (٢١٧٣). ومعنى المغيبة: هي التي غاب عنها زوجها.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٣٧/٧، وذكره البيهقي في السنن الكبرى ١٠٤/٥.

وحرصت الشريعة على ألا تسافر المرأة بمفردها ، فلا بد أن يكون معها من محارمها من يصونها ويحفظها من أخطار الطريق ، حرصاً على كمال دينها وطهارة قلبها ، وهذا تكريم للمرأة وليس تقييداً لحريتها كما يدعى بعض مقلدى الغرب ، الذين أهانوا المرأة بتعريضها لمخاطر كثيرة تحت دعاوى مضللة:

— عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : لَا يَحِلُّ لِمَرْأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تُسَافِرُ مَسِيرَةَ ثَلَاثِ لَيَالٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ (١).

ووضع النبي ﷺ آداب إطلاق النظر أوقات اختلاط الرجال بالنساء في الاجتماعات العامة والصلاة في المساجد، وهذا يشمل نظرة الرجال إلى النساء، وكذلك نظرة النساء إلى الرجال:

— فعن ابن عباس قال: كان الفضل بن عباس رديف النبي ﷺ يوم عرفة وكان الفتى يلاحظ النساء فجعل النبي ﷺ يصرف وجهه بيده ويقول: ابن أخي إن هذا يوم من غمض فيه بصره وحفظ فرجه ولسانه غفر له (٢).

— وقال ﷺ : يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة (٣).

— وقال ﷺ : يا معشر النساء إذا سجد الرجال فاغضضن أبصاركن لا ترين عورات الرجال من ضيق الأزور (٤).

ووضع الرسول ﷺ قواعد أخلاقية متينة تحمي أعراض النساء في المجتمع الإسلامي لله، وطبقها الخلفاء الراشدون بكل أمانة:

— عن أبي أمامة أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن في الزنا؟ فهم من كان قرب النبي ﷺ أن يتناولوه فقال النبي ﷺ : دعوه، ثم قال له النبي ﷺ : أتحب أن يفعل هذا بأختك؟ قال: لا، قال: فيأبتك؟ قال: لا، فلم يزل يقول فبكذا فبكذا كل ذلك يقول: لا، فقال النبي ﷺ فأكره ما كرهه الله وأحب لأخيك ما تحب لنفسك (٥).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره (١٣٣٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣٢٩/١.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک كتاب النکاح (١٩٤/٢) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي على التصحيح. ورواه الترمذي كتاب الأدب باب ما جاء في نظرة المفاجأة رقم (٢٧٧٧) وقال: حسن غريب.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/٣، والبيهقي في السنن الكبرى ١٦/٢.

(٥) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ١٦١/٩.

- وقال: ﷺ : ليس للنساء وسط الطريق (١).

- وعن يحيى بن جعدة أن عمر بن الخطاب خرجت امرأة على عهده متطية فوجد ريحها، فعلاها بالدرة ثم قال: تخرجن متطيبات فيجد الرجال ريحكن! وإنما قلوب الرجال عند أنوفهم، اخرجن تفلات (٢).

وفي حالة الاعتداء على العرض أو الدفاع عنه فإن أحكام الشريعة تحمي المرأة إلى أبعد الحدود وتملك من قوة الردع ما يحافظ على أعراض النساء. ومن أحكام السنة التطبيقية:

- وعن عكرمة قال: قضى عمر بن الخطاب في المرأة إذا غلبت على نفسها فافتضت أو ذهبت عذرهما بثلاث ديتها (٣).

- وعن السائب بن يزيد أن رجلاً أراد امرأة على نفسها فرفعت حجراً فقتلته . فرفع ذلك إلى عمر ، فقال: ذلك قتيل الله! لا يودى أبداً (٤) ..

- وعن عبيد الله بن عبد الله أن عمر بن الخطاب كان يجلد من يفترى على نساء أهل المدينة (٥).

(١) ذكره ابن عدي في الكامل ١٣٢١/٤، والألباني في السلسلة الصحيحة (٨٥٦).

(٢) أخرجه أبو داود في سنن ١٥٥/١ - (تفلات: أي تاركات للطيب. أ هـ ١٥٣/١ النهاية.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٢٤٥/١٠، ٢٤٦.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٤٣٥/٩.

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى كتاب الحدود (٢٥٣/٨).

الباب الثالث

قضايا وهمية تحجب الحقائق الإيمانية

الفصل الأول

القضايا المثارة حول أهلية المرأة.

- قضية الميراث
- قضية: شهادة المرأة نصف شهادة الرجل
- قضية: النساء ناقصات عقل ودين
- قضية: المرأة خلقت من ضلع أعوج

الفصل الثاني

قضايا تتعلق بأيجابية المرأة في الحياة

- قضية وقرن في بيوتكن
- قضية عمل المرأة
- قضية لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة

الفصل الثالث

قضايا تتعلق بالحياة الزوجية

- قضية القوامة
- قضية تعدد الزوجات

الفصل الرابع

قضايا تتعلق بالكيان الشخصي للمرأة.

- قضية الحجاب
- قضية ختان الإناث

الباب الثالث

قضايا وهمية تحجب الحقائق الإيمانية

نحاول أن نستعرض في هذا الجزء ما يسمى بـ قضايا المرأة . وهذا المفهوم أو بمعنى أصح تلك القضايا لم تثر إلا في عصرنا الحاضر، حيث ظلت المرأة منذ بعثة النبي ﷺ تعترز بالإسلام وتلتزم بأوامره، وتجتنب نواهيه، راضية خاشعة في محراب ربها.. أما مع المدنية الحديثة، وسيطرة الأفكار الغربية على مجتمعاتنا، فقد أصبحت أقلامنا تحاول أن تدافع جاهدة عما يوجه الغرب لدينا مدعيا أنه ينتقص حرية المرأة أو يعود بها أدراجها القهقري إلى عصور التخلف.

وكلمة حق يجب أن تقال في هذا المقام: وهي أن الغرب لم يتجرأ علي مهاجمة الإسلام إلا بتقصير أهله في تطبيق مبادئ هذا الدين القيم واقعا حيا يعيشونه، واجتمع الغربي لا يؤمن إلا بالواقع المادي وبالتالي فهو يحكم علي الإسلام من واقع أهله وليس من واقع مبادئه وإذا قارنا بين فاعلية المرأة في عصرنا الحالي ثم في عصر النبوة، وجدنا الفرق شاسعا من حيث قوة العقيدة وعظم الهمة في ترجمة ما تؤمن به واقعا إيجابيا يساهم في رقي الأمة ونهضتها بما يبهر العقول والأبصار ويجذب كل من يعيش في الظلمات إلى أنوار الشريعة الغراء.. إن ما يجب أن توجه إليه أصبح الاهتمام حقا هو سلوكياتنا وليس مبادئ ديننا وسنحاول في هذا الباب إلقاء نظرة سريعة علي قضايا المرأة في الحضارة الحديثة ثم نرد علي ما يسمونه قضايا المرأة المسلمة.

الفرق بين الحرية المطلقة والحرية الملتزمة

في الحقيقة من أفضل المراجع التي يمكن الرجوع إليها لمزيد من التفاصيل في هذا المجال، هو كتاب المفكر الهندي الكبير (وحيد الدين خان)(١) حيث يتكلم عن نتائج الحضارة الحديثة، والمشاكل التي نتجت عن الحرية المطلقة، التي نادى بها الحضارة الغربية، واعتنقها الشباب تحرراً من القيم والأخلاق. وكلامه ليس نابعاً من هوى نفسه بل نقلاً عن أبحاث الغربيين أنفسهم، ومحاولتهم إيجاد مخرج من تلك المهاوى التي انزلت إليها الغرب، نتيجة الإباحية الجنسية، والتحلل من قيود الأسرة، والمساواة غير الطبيعية بين النساء والرجال، حيث نتج عن ذلك أمراض خطيرة، أهمها الإيدز، وهو كفيل بالقضاء على الأمة بأسرها،

(١) المرأة بين الشريعة الإسلام والحضارة الغربية - دار الصحوة للنشر.

ونتح أبناء غير شرعيين، يعانون من مرض خطير يسمى قزمية الحرمان يؤدي إلى القضاء على الإنسان نفسه، كما نتجت أسر مشتتة وصراعات عائلية هائلة، وأمراضاً اجتماعية لا حصر لها، تشيع القلق والذعر بين أفراد المجتمع، كما نتج عن ذلك زيادة حالات الانتحار وخاصة بين الشباب، كوسيلة لإهاء الألم، وحل المشكلة أو المأزق الذي يجدون أنفسهم فيه.

وهكذا تصادمت الحرية المطلقة مع الطبيعة، وخلق هذا الانتهاك للنظام التكويني الطبيعي، أنواعاً من المشكلات المستعصية على الحل، مما حمل الناس على إعادة النظر في موقفهم، فأصبحوا يعارضون أسلوب التحرر الجنسي، بعد أن أيدوه بشدة فيما مضى. وأصبحت العفة الآن مبدأ أساسياً حتى في نظر الغرب، لإنشاء علاقات زوجية صحية، بعد أن كانت في نظرهم قيداً من قيود الدين، الذي يمنعهم من لذة تذوق الحياة.

نظرة علي حركات تحرير المرأة في الغرب

تعترف زعيمة الحركة النسائية جيرمان غريار في حديثها إلى صحيفة إنديان إكسبريس: بأن حماسها للحركة في عنفوان شبابها، لم يكن يطابق الواقع. فتقول: الأمر الذي يقلقني اليوم هو نتائج حركة التحرر الجنسي، فعدد الفتيات اللواتي يستخدمن أقراص منع الحمل، منذ بلوغهن الثانية عشرة والثالثة عشرة من أعمارهن، وعدد المراهقات اللاتي تحملن عند بلوغهن الخامسة عشرة والسادسة عشرة من أعمارهن في تزايد مستمر. ما الذي يحدث هن؟ الجنس يعني شيئاً مختلفاً بالنسبة إلى الرجال، فيمكنهم أن يمارسوا الحب وينصرفوا، ويمكنهم حين يحين وقت الذهاب إلى الجامعة، أن يبدؤوا دراساتهم بكل سهولة. أما النساء فأحاسيسهن مختلفة، فهن يمارسن الحب بعقولهن وقلوبهن وأجسادهن، وهن يتحطمن بتحطم قصة حب واحدة. وقد رأيت هذا يحدث لنسوة قريبات مني، وهو شيء مروع. وتقول: ربما تكمن المشكلة في أننا لم نشرك معنا أمهاتنا، وخلفناهن وراءنا، باعتبارهن من الطراز العتيق. ولكننا بعد أن أصبحت غالبيتنا أمهات ولنا بنات مراهقات، نتناول المشكلات حالياً بوجهة نظر مغايرة. وربما أصبح الآن بالإمكان، أن نقدّر مواقف أمهاتنا بطريقة أفضل. ذلك ما وصلت إليه زعيمة حركة التحرر النسائية في الغرب، بعدما قضت سنوات شبابها في الدعوة إلى حرية المرأة، لدرجة أنها دعت إلى إهاء مؤسسة الزواج التقليدي، وألفت كتابها الأنثى المخصية (١).

(١) صحيفة إنديان إكسبريس ١٤ يناير ١٩٨٧، وهي كاتبة استرالية جريئة.

وتقول بعد الخبرة والنضج لمراسل جريدة أخرى: لا يملك الغرب أى حل لمشكلة عدم المساواة بين الرجل والمرأة. وتعتقد المرأة الغربية خطأ أن الحجة تعانى من كبت الحرية، وأن اللائي يستخدم من مساحيق التجميل والحاسرات منهن أكثر تحراً وتقدمية. فأمثال تلك الآراء ينبغي وضعها جانباً. فحوادث تعرض النساء للضرب، قد تفشت فيما يسمى بالغرب المتحضر. إن ٢٥ في المائة من الجرائم التى تقع في إنجلترا، هى حوادث عنف ضد النساء. وتعرض (١٥) في المائة من النساء للضرب، من قبل أزواجهن وعشاقهن في الولايات المتحدة (١).

أما السيدة غزاله حليمى الخامية الفرنسية التونسية المولدة، والتى كانت فى طليعة المناضلات لأجل حقوق المرأة فى فرنسا، مع سيمون دى بوفوار فتقول: إن الحركة النسائية الجديدة تمر بمرحلة حرجة. فقد تحققت للنساء كافة مطالبهن، بأسرع ما كن يعتقدن، كحقوق منع الحمل والإجهاض والطلاق. إلا أن مشكلة المرأة لم تحل بعد. فالنساء يمتلكن قيماً وأخلاقيات معينة، وجهة نظر متباينة إزاء البشرية. وليس معناها أنها أفضل من وجهة نظر الرجال، بل تعنى فقط أنها مغايرة. وعلى النساء أن يؤدبن دورهن كنساء، لا أن يترعن إلى تقمص دور الرجال بصورة مصطنعة (٢).

وهكذا تنجح البشرية الشقية إلى البحث عن بر الأمان، بعدما شقيت بالحرية المطلقة.. ونجد القيادات النسائية البارزة فى الغرب، فى حريف أعمارهن يؤيدن الدور النموذجى السابق للمرأة، بعد أن قضين شباهن كداعيات متحمسات، لأجل الدور النموذجى الحديث للمرأة. ونحن النساء المسلمات: نسعد بأن الإسلام حفظنا من تيارات الحرية المطلقة، القائمة على أوهام وأهواء طائشة، سرعان ما تجر أصحابها إلى مهاوى الشقاء والتعاسة، وتفكك العقد الاجتماعى للأمة. ونفخر بالحرية التى منحتها لنا الشريعة، لتتوجنا بمكارم الأخلاق الحميدة، وتحيطنا بسياج من الطهر والشرف، يحفظ لنا عزتنا وكرامتنا قال تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (البقرة ٢٥٦).

(١) جريدة تلغراف (كلكتوتا) ١٨ أكتوبر ١٩٨٧.

(٢) صحيفة الانديان اكسپريس ١٤ يناير ١٩٨٧.

المرأة الغربية تعيش وهم الشعارات

في التقرير الشامل الذي نشرته مجلة تايم الأمريكية في مارس سنة ١٩٧٢ عن أوضاع المرأة الأمريكية الجديدة، أجمعت آراء الخبراء وعلماء الطبيعة على أن الرجل هو الجنس المهيمن، وأن المرأة الأمريكية مازالت تراوح مكانها رغم كفاح دام قرناً، وأن الرجل ما زال هو الجنس المسيطر من الناحية العملية من جراء عوامل بيولوجية ونفسية وليس بدوافع اجتماعية كما كان يعتقد حتى الآن. فأصحاب المصانع من أجل اجتذاب المرأة من البيت إلى المصنع واستغلال طاقاتها اقتصادياً، رفعوا شعارات حقوق المرأة، الاستقلال الاقتصادي للمرأة، حرية المرأة، مساواة المرأة بالرجل في الحقوق، وكان هؤلاء الرأسماليين الصفة الرسمية القانونية في مراكز القرار آنذاك، مما كان سبباً في تحقيق مرادهم وتحرير الموضوع كله بغته وسمينه، وكانت الضحية في الحقيقة هي المرأة ذاتها حيث تم تحت هذه الشعارات تحقيق مراد أصحاب المصانع، فاستبدلوا للمسكينة تحت شعار التحرير قيلاً بقيد ووثاقاً بوثاق حيث في هذه النهضة حل (التساوي) محل (التشابه) (والمساواة) محل (التماثل) واختفت الكيفية في ظل الكمية (كون المرأة إنسان أدى إلى نسيان كونها امرأة). ولم يكتف الطرح الغربي في جرها ليلاً ونهاراً إلى المصانع لتفقد أنوثتها تحت الأهمال الثقيلة بأجر زهيد، وإنما استخدمها أيضاً في فتح شهية المستهلك واسترافه بألف حجة، والعقلية الربحية تفهم بالطبع أن زيادة الإنتاج لابد أن يقابلها ويزيد عليها زيادة في الاستهلاك، وإلا توقفت المصانع وسكت الآلات، فالزيادة في الإنتاج مستمرة وهي فوق ما يحتاجه واقع الإنسان، والرغبة في الربح الكثير بأجر زهيد فتقت أذهان العابرة هناك لدور جيد وجديد للمرأة لا يقل أهمية عن دورها أمام الآلة في زيادة الإنتاج، وهذا الدور يستعمل هذه المرة كل وسائل الإغراء فيها، قدرتها السحرية على تسخير الفكر والإرادة، جمالها، جسدها، حركتها، جاذبيتها وتخليها عن شرفها وكرامتها، واستغلال ذلك كله في فرض السلع على المستهلك وسلب إرادته، عبر كل وسائل الإعلام والتسويق السمعية والبصرية والفكرية والشعورية والذوقية والفنية والشهوانية، وبديهي أن يكون عنوان ذلك كله أيضاً الحرية والمساواة (١).

(١) المرأة بين حضارتين الإسلامية والغربية. أ د إبراهيم أبو محمد. سلسلة قضايا إسلامية. تصدر عن المجلس

والسياسة بدورها لم تكن غافلة عن استعمال هذا العامل حتى غدت المرأة أداة لتنفيذ مآرب الرجل تحت ذاك الشعار: حيث يشير ول ديورانت في الفصل التاسع من كتاب مباهج الفلسفة بعد أن يذكر عن أرسطو ونييتشه وشوبنهاور وبعض الكتب اليهودية المقدسة، الآراء التي تحتقر المرأة إلى أن الثورة الفرنسية بالرغم من حديثها عن تحرر المرأة إلا أن تغيرا عمليا لم يحدث، فيقول:

" حتى حدود عام ١٩٠٠م لم يكن القانون ليجبر الرجل على احترام المرأة، وتحرر المرأة كان أثرا من آثار الثورة الصناعية كانت العاملات أقل أجرا من العمال، وكان أصحاب المعامل يفضلونهن على الرجال لكثرة تمردهم، قبل قرن من الزمان كان الحصول على عمل في إنكلترا أمرا عسيرا على الرجال، لكن الإعلانات كانت تدعو الرجال إلى إرسال نسائهم وأطفالهم إلى المصانع.. وكانت أول خطوة على طريق تحرير جداتنا تتمثل في قانون عام ١٨٨٢م، إذ بموجب هذا القانون أصبحت نساء بريطانيا العظمى يتمتعن بميزة لم يسبق لها مثيل، هي أن من حقهن الاحتفاظ لأنفسهن بالمال الذي يكسبهن، هذا القانون المسيحي الأخلاقي، وضعه أصحاب المعامل في مجلس العموم من أجل أن يجتذبوا نساء إنكلترا إلى المعامل، ومنذ ذلك الحين وحتى الآن أدى البحث عن الربح الذي لا يقاوم إلى أن تتحرر النساء من العذاب والاستعداد في البيت لتصبح رهن العذاب في المتجر والمعمل" (١).

وننتقل إلى مناقشة الادعاءات الغربية حول ما يسمى قضايا المرأة بأسلوب يتفق ولغة العصر، مرتكزين على ذلك البنين المتين الذي يركز على دعائم الدين من القرآن الكريم وأقوال النبي الأمين ﷺ واجتهاد العلماء المتقين على مدار السنين.. حتى يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود من فجر الشريعة الوضاء الذي يحنو على المرأة ويحيطها بسياج منيع من الرعاية.. فهي حقا عطايا وليست قضايا. وما يوجه من انتقاد للإسلام في تلك المجالات ناتج عن سوء فهم الشريعة فكل التشريعات هي في جوهرها تدعو إلى الحرية الحقيقية للمرأة بصون كرامتها، وأنوثتها، ومشاعرها المرفهة الحساسة، ويرتفع بها من هاوية الشحنة والبغضاء والصراعات إلى مدارج الصفاء والنقاء والوفاء والإخلاص.

الفصل الأول

القضايا المثارة حول أهلية المرأة

أولاً - قضية الميراث

تعتبر قضية أن الذكر يرث مثل حظ الأنثيين من القضايا الخطيرة التي لم تعد تواجه أقالما من الغرب فقط، بل أصبحت تجد مرتعا خصبا في نفوس النساء الثائرات على شريعة رهن في المجتمعات الإسلامية نتيجة أنانية بعض الرجال وتقصيرهم في الإنفاق ورعاية أخواتهم من الإناث والوقوف بجانبهم في الشدائد والأزمات، مما يجعل النساء يتساءلن: لماذا إذن يحصل الرجل علي ضعف نصيب المرأة؟، وقد بدأت تلك الاعتراضات حديث نفسي، ولكنها بدأت تخرج إلى الحيز الإعلامي في المؤتمرات والندوات وكثير من وسائل الإعلام، معترضين على أن ميراث الأنثى نصف ميراث الذكر، وهذا في الحقيقة ناتج عن قصور في فهم الحقيقة الكلية؛ أي معرفة قوانين توزيع الميراث بصفة عامة؛ حيث المتبع لها يجد أعلى مثال لعدالة توزيع الثروات في المجتمعات.

قال أ.د. محمد عمارة توضيحا ودفاعا عن هذه القضية (١): صحيح وحق أن آيات الميراث في القرآن الكريم قد جاء فيها قول الله سبحانه وتعالى: (لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ) (النساء: ١١) لكن كثيرين من الذين يثرون الشبهات حول أهلية المرأة في الإسلام، متخذين من التمايز في الميراث سبيلا إلى ذلك، لا يفقهون أن توريث المرأة على النصف من الرجل ليس موقفاً عاماً ولا قاعدة مطردة في توريث الإسلام لكل الذكور وكل الإناث. فالقرآن الكريم لم يقل: يوصيكم الله في الموارث والوارثين للذكر مثل حظ الأنثيين.. إنما قال: (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ).. أي أن هذا التمييز ليس قاعدة مطردة في كل حالات الميراث، وإنما هو في حالات خاصة، بل ومحدودة من بين حالات الميراث.

فقه فلسفة الإسلام في الميراث:

إن الفقه الحقيقي لفلسفة الإسلام في الميراث تكشف عن أن التمايز في أنصبة الوارثين والوارثات لا يرجع إلى معيار الذكورة والأنوثة.. وإنما لهذه الفلسفة الإسلامية في التوريث حكم إلهية ومقاصد ربانية قد خفيت عن الذين جعلوا التفاوت بين الذكور والإناث في

(١) شبهات وإجابات حول مكانة المرأة في الإسلام - سلسلة دراسات إسلامية تصدر في منتصف كل شهر عربي عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. العدد (٧٣) ص ٩٥ : ٩٩.

بعض مسائل الميراث وحالاته شبهة على كمال أهلية المرأة في الإسلام. وذلك أن التفاوت بين أنصبة الوارثين والوارثات في فلسفة الميراث الإسلامي - إنما تحكمه ثلاثة معايير: **أولها:** درجة القرابة بين الوارث ذكرًا كان أو أنثى وبين المُوَرِّث المتوفى فكلما اقتربت الصلة.. زاد النصيب في الميراث.. وكلما ابتعدت الصلة قل النصيب في الميراث دونما اعتبار لجنس الوارثين..

وثانيها: موقع الجيل الوارث من التابع الزمني للأجيال.. فالأجيال التي تستقبل الحياة، وتستعد لتحمل أعبائها، عادة يكون نصيبها في الميراث أكبر من نصيب الأجيال التي تستدبر الحياة؛ وتتخفف من أعبائها، بل وتصبح أعباؤها - عادة - مفروضة على غيرها، وذلك بصرف النظر عن الذكورة والأنوثة للوارثين والوارثات.. فبنت المتوفى تترث أكثر من أمه - وكلتاهما أنثى - وترث البنت أكثر من الأب! حتى لو كان الأب هو مصدر الثروة التي للابن، والتي تنفرد البنت بنصفها!.. وكذلك يرث الابن أكثر من الأب وكلاهما من الذكور. وفي هذا المعيار من معايير فلسفة الميراث في الإسلام حُكْمٌ إلهية بالغة ومقاصد ربانية سامية يخفى على الكثيرين وهي معايير لا علاقة لها بالذكورة والأنوثة على الإطلاق.

وثالثها: العبء المالي الذي يوجب الشرع الإسلامي على الوارث تحمله والقيام به حيال الآخرين.. وهذا هو المعيار الوحيد الذي يثمر تفاوتًا بين الذكر والأنثى.. بل ربما كان العكس هو الصحيح!..

ففي حالة ما إذا اتفق وتساوى الوارثون في درجة القرابة.. واتفقوا وتساووا في موقع الجيل الوارث من تابع الأجيال - مثل أولاد المتوفى، ذكورا وإناثا - يكون تفاوت العبء المالي هو السبب في التفاوت في أنصبة الميراث.. ولذلك لم يعمم القرآن الكريم هذا التفاوت بين الذكر والأنثى في عموم الوارثين، وإنما حصره في هذه الحالة بالذات، فقالت الآية القرآنية: (يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ).. ولم تقل: يوصيكم الله في عموم الوارثين.. والحكمة في هذا التفاوت، في هذه الحالة بالذات، هي أن الذكر هنا مكلف بإعالة أنثى - هي زوجته - مع أولادهما.. بينما الأنثى الوارثة أخت الذكر، إعالتها، مع أولادها، فريضة على الذكر المقترب بها.. فهي مع هذا النقص في ميراثها بالنسبة لأخيها، الذي ورث ضعف ميراثها، أكثر حظًا وامتيازًا منه في الميراث.. فميراثها - مع إعفائها من الإنفاق الواجب - هو ذمة مالية خالصة ومدخرة، لجبر

الاستضعاف الأنثوي، ولتأمين حياتها ضد المخاطر والتقلبات.. وفي ذلك حكمة إلهية قد تخفى على الكثيرين..

وإذا كانت هذه الفلسفة الإسلامية في تفاوت أنصبة الوارثين والوارثات وهي التي يغفل عنها طرفا الغلو، الديني واللا ديني، الذين يحسبون هذا التفاوت الجزئي شبهة تلحق بأهلية المرأة في الإسلام؛ فإن استقراء حالات مسائل الميراث - كما جاءت في علم الفرائض (الموارث) يكشف عن حقيقة قد تذهل الكثيرين عن أفكارهم المسبقة والمغلوطه في هذا الموضوع.

فهذا الاستقراء لحالات ومسائل الميراث، يقول لنا:

- ١- إن هناك أربع حالات فقط ترث فيها المرأة نصف الرجل.
 - ٢- وهناك حالات أضعاف هذه الحالات الأربع ترث فيها المرأة مثل الرجل تماماً.
 - ٣- وهناك حالات عشر أو تزيد ترث فيها المرأة أكثر من الرجل.
 - ٤- وهناك حالات ترث فيها المرأة ولا يرث نظيرها من الرجال. أي أن هناك أكثر من ثلاثين حالة تأخذ فيها المرأة مثل الرجل، أو أكثر منه، أو ترث هي ولا يرث نظيرها من الرجال، في مقابلة أربع حالات محددة ترث فيها المرأة نصف الرجل (١)!!..
- تلك هي ثمرات استقراء حالات ومسائل الميراث في علم الفرائض (الموارث) التي حكمتها المعايير الإسلامية التي حددتها فلسفة الإسلام في التوريث، والتي لم تقف عند معيار الذكورة والأنوثة، كما يحسب الكثيرون والذين لا يعلمون!..

ثانياً - قضية شهادة المرأة نصف شهادة الرجل

تعتبر تلك القضية حول أهلية المرأة وانتقاص مكانتها في الإسلام، وقد تكلم علماء كثيرون لإزالة الغبار الذي يعلق بالأفهام، ولكن تصير العقول علي العناد وتشير الأصابع بالاتهام الشريعة خيراً الأنام التي لا يأتيها الباطل من أي اتجاه.

ونسجل رأي د. محمد عمارة في تلك القضية؛ حيث يقول (٢):

إن الشبهة الزائفة التي تثار حول موقف الإسلام من شهادة المرأة.. التي يقول مشيروها: إن الإسلام قد جعل المرأة نصف إنسان، وذلك عندما جعل شهادتها نصف

(١) د. صلاح الدين سلطان " ميراث المرأة وقضية المساواة " ص ١٠، ٤٦، طبعة القاهرة، دار نهضة مصر سنة

١٩٩٩م " سلسلة في التنوير الإسلامي ".

(٢) شبهات وإجابات حول مكانة المرأة في الإسلام مرجع سابق.

شهادة الرجل، مستدلين على ذلك بآية سورة البقرة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (البقرة: ٢٨٢)

الفرق بين الشهادة والإشهاد:

يعد مصدر الشبهة التي حسب مشروها أن الإسلام قد انتقص من أهلية المرأة، بجعل شهادتها على النصف من شهادة الرجل؛ وذلك في قوله تعالى (فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ) هو الخلط بين الشهادة وبين الإشهاد الذي تتحدث عنه هذه الآية الكريمة.

فالشهادة التي يعتمد عليها القضاء في اكتشاف العدل المؤسس على البينة، واستخلاصه من ثنايا دعاوى الخصوم، لا تتخذ من الذكورة أو الأنوثة معياراً لصدقها أو كذبها، ومن ثم قبولها أو رفضها.. وإنما معيارها تحقق اطمئنان القاضي لصدق الشهادة بصرف النظر عن جنس الشاهد، ذكراً كان أو أنثى، وبصرف النظر عن عدد الشهود.. فالقاضي إذا اطمأن ضميره إلى ظهور البينة أن يعتمد شهادة رجلين، أو امرأتين، أو رجل وامرأة، أو رجل وامرأتين، أو امرأة ورجلين، أو رجل واحد أو امرأة واحدة.. ولا أثر للذكورة أو الأنوثة في الشهادة التي يحكم القضاء بناء على ما تقدمه له من البينات..

أما آية سورة البقرة، والتي قالت: (وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) (البقرة: ٢٨٢) فإنها تتحدث عن أمر آخر غير الشهادة أمام القضاء.

أما الإشهاد: فهو الذي يقوم به صاحب الدين للاستيثاق من الحفاظ على دينه، وليس عن الشهادة التي يعتمد عليها القاضي في حكمه بين المتنازعين، فهذه -الآية- موجهة لصاحب الحق -الدين- وليس إلى القاضي الحاكم في النزاع، بل إن هذه الآية لا تتوجه إلى كل صاحب حق -دين- ولا تشترط ما اشترطت من مستويات الإشهاد

وعدد الشهود في كل حالات الدين.. وإنما توجهت بالنصح والإرشاد - فقط النصح والإرشاد - إلى دائن خاص، وفي حالات خاصة من الديون، لها ملابسات خاصة نصت عليها الآية.. فهو دين إلى أجل مسمى، ولا بد من كتابته، ولا بد من عدالة الكاتب. ويحرم امتناع الكاتب عن الكتابة، ولا بد من إملاء الذي عليه الحق، وإن لم يستطع فليملل وليه بالعدل، والإشهاد لا بد أن يكون من رجلين من المؤمنين، أو رجل وامرأتين من المؤمنين، وأن يكون الشهود ممن ترضى عنهم الجماعة، ولا يصح امتناع الشهود عن الشهادة، وليست هذه الشروط بمطلوبة في التجارة الحاضرة ولا في المبيعات. ثم إن الآية ترى في هذا المستوى من الإشهاد الوضع الأقسط والأقوم، وذلك لا ينفي المستوى الأدنى من القسط..

رأي العلماء في هذه الحقيقة:

لقد فقه هذه الحقيقة - حقيقة أن هذه الآية إنما تتحدث عن الإشهاد في دين خاص، وليس عن الشهادة، وإنما نصيحة وإرشاد لصاحب الدين - ذي المواصفات والملابسات الخاصة - وليست تشريعاً موجهاً إلى القاضي - الحاكم - في المنازعات.. فقه ذلك العلماء المجتهدون.

ومن هؤلاء العلماء الفقهاء الذين فقهوا هذه الحقيقة، وفصلوا القول شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١-٧٢٨هـ / ١٢٦٣-١٣٢٨م] وتلميذه العلامة ابن القيم [٦٩١-٧٥١هـ / ١٢٩٢-١٣٥٠م] من القدماء، والأستاذ الإمام محمد عبده [١٢٦٥-١٣٢٣هـ] والإمام الشيخ محمود شلتوت [١٣١٠-١٣٨٣هـ / ١٨٩٣-١٩٦٣م] من المحدثين والمعاصرين.

فقال ابن تيمية فيما يرويه عنه ويؤكد عليه ابن القيم: قال عن البينة التي يحكم القاضي بناء عليها، والتي وضع قاعدتها الشرعية والفقهية حديث رسول الله ﷺ: "البينة على المدعي، واليمين على المدعي عليه" ^(١).

إن البينة في الشرع، اسم لما يبين الحق ويظهره، وهي تارة تكون أربعة شهود، وتارة ثلاثة، بالنص في بينة المفلس، وتارة شاهدين، وشاهد واحد، وامرأة واحدة، وتكون نكولاً (٢)، ويمينا أو خمسين يمينا أو أربعة أيمان، وتكون شاهد الحال. فقول له ﷺ:

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الأحكام (١٣٤١) باب ما جاء في أن البينة على المدعي واليمين على

المدعي عليه (١٣٤٠) وقال: وفي الباب عن عمر وابن عباس وعبد الله بن عمرو والأشعث بن قيس، قال

أبو عيسى: حديث، وإثل بن حجر حديث حسن صحيح

(٢) النكول: هو الامتناع عن اليمين.

البينة على المدعي، أي أن يظهر ما يبين صحة دعواه، فإذا ظهر صدقه بطريق من الطرق حُكِمَ له (١).

فكما تقوم البينة بشهادة الرجل الواحد أو أكثر، تقوم بشهادة المرأة الواحدة، أو أكثر، وفق معيار البينة التي يطمئن إليها ضمير الحاكم القاضي.

ولقد فصل ابن تيمية القول في التمييز بين طرق حفظ الحقوق، التي أرشدت إليها ونصحت بها آية الإِشهاد - الآية ٢٨٢ من سورة البقرة - وهي الموجهة إلى صاحب الحق - الدين وبين طرق البينة التي يحكم الحاكم القاضي بناء عليها.. وأورد ابن القيم تفصيل ابن تيمية هذا تحت عنوان " الطرق التي يحفظ بها الإنسان حقه " .. فقال: إن القرآن لم يذكر الشاهدين، والرجل والمرأتين في طرق الحكم التي يحفظ بها الإنسان حقه، وذلك كما جاء في سورة البقرة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَنْخَسِ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (البقرة: ٢٨٢)

فأمرهم سبحانه بحفظ حقوقهم بالكتاب (٢)، وأمر من عليه الحق أن يعلي الكاتب، فإن لم يكن ممن يصح إملاؤه أملى عنه وليه، ثم أمر من له الحق أن يستشهد على حقه رجلين، فإن لم يجد فرجل وامرأتان، ثم نهى الشهود المتحلمين للشهادة عن التخلف عن إقامتها إذا طلبوا لذلك، ثم رخص لهم في التجارة الحاضرة ألا يكتبوها، ثم أمرهم بالإِشهاد عند التبايع، ثم أمرهم إذا كانوا على سفر ولم يجدوا كاتباً، أن يستوثقوا بالرهان المقبوضة.

(١) ابن القيم. الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص ٣٤. تحقيق محمد جميل غازي. طبعة القاهرة سنة

١٩٧٧م.

(٢) أي الكتابة.

كل هذا نصيحة لهم، وتعليم وإرشاد لما يحفظون به حقوقهم وما تحفظ به الحقوق شيء وما يحكم به الحاكم (القاضي) شيء، فإن طرق الحكم أوسع من الشاهد والمرايين، فإن الحاكم يحكم بالنكول، واليمين المردودة ولا ذكر لهما في القرآن - وأيضاً فإن الحاكم يحكم بالقرعة بكتاب الله وسنة رسوله الصريحة الصحيحة..

- واعتبار المراتين في الاستيثاق كالرجل الواحد ليس لضعف عقلها، الذي يتبع نقص إنسانيتها ويكون أثراً له، وإنما هو لأن المرأة - كما قال الشيخ محمد عبده: ليس من شأنها المعاملات المالية ونحوها من المعاوضات، ومن هنا تكون ذاكرتها فيها ضعيفة، ولا تكون كذلك في الأمور المترتبة التي هي شغلها، فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل، ومن طبع البشر عامة أن يقوي تذكرهم للأمور التي تهمهم ويمارسونها، ويكثر اشتغالهم بها. والآية جاءت على ما كان مألوفاً في شأن المرأة، ولا يزال أكثر النساء كذلك، لا يشهدن مجالس المداينات ولا يشتغلن بأسواق المبيعات، واشتغال بعضهن بذلك لا ينافي هذا الأصل الذي تقضي به طبيعتها في الحياة.

وإذا كانت الآية ترشد إلى أكمل وجوه الاستيثاق، وكان المتعاملون في بيئة يغلب فيها اشتغال النساء بالمبيعات وحضور مجالس المداينات، كان لهم الحق في الاستيثاق بالمرأة على نحو الاستيثاق بالرجل متى اطمئنوا إلى تذكرها وعدم نسيانها على نحو تذكر الرجل وعدم نسيانه.

- هذا وقد نص الفقهاء على أن من القضايا ما تقبل فيها شهادة المرأة وحدها، وهي القضايا التي لم تجر العادة باطلاع الرجال على موضوعاتها، كالولادة والبكارة، وعيوب النساء والقضايا الباطنية. وعلى أن منها ما تقبل فيها شهادة الرجل وحده، وهي القضايا التي تثير موضوعاتها عاطفة المرأة ولا تقوى على تحملها، على أنهم قدروا قبول شهادتها في الدماء إذا تعينت طريقاً لثبوت الحق واطمئنان القاضي إليها. وعلى أن منها ما تقبل شهادتها معاً.

مساواة شهادة المرأة بالرجل في اللعان

وما لنا نذهب بعيداً، وقد نص القرآن على أن المرأة كالرجال - سواء بسواء - في شهادات اللعان، وهو ما شرعه القرآن بين الزوجين حينما يقذف الرجل زوجته وليس له على ما يقول شهود (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ

الْكَاذِبِينَ وَيَذَرُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (النور: ٦ - ٩).

أربع شهادات من الرجل، يعقبها استمطار لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ويقابلها ويطل عذلها، أربع شهادات من المرأة يعقبها استمطار غضب الله عليها إن كان من الصادقين.. فهذه عدالة الإسلام في توزيع الحقوق العامة بين الرجل والمرأة، وهي عدالة تحقق أهما في الإنسانية سواء (١).

هكذا وضحت صفحة الإسلام.. وصفحات الاجتهاد الإسلامي في قضية مساواة شهادة المرأة وشهادة الرجل، طالما امتلك الشاهد أو الشاهدة مقومات ومؤهلات وخبرة هذه الشهادة؛ لأن الأهلية الإنسانية بالنسبة لكل منهما واحدة، ونابعة من وحدة الخلق، والمساواة في التكليف، والتناصر في المشاركة بحمل الأمانة التي حملها الإنسان، أمانة استعمار وعمران هذه الحياة.

مساواة شهادة المرأة بالرجل في بلاغ الشريعة ورواية السنة الشريفة

وأخيرا - وليس آخرا - فإن ابن القيم يستدل بالآية القرآنية (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) (البقرة: ١٤٣)، على أن المرأة كالرجل في هذه الشهادة على بلاغ الشريعة ورواية السنة النبوية.. فالمرأة كالرجل في رواية الحديث، التي هي شهادة على رسول الله ﷺ.

وإذا كان ذلك مما أجمعت عليه الأمة، ومارسته روايات الحديث النبوي جيلا بعد جيل والرواية شهادة فكيف تقبل الشهادة - من المرأة - على رسول الله ﷺ ولا تقبل على واحد من الناس؟ إن المرأة العدل - بنص عبارة ابن القيم - كالرجل في الصدق والأمانة والديانة (٢).

ويحكم بالقافة - بالسنة الصريحة الصحيحة - التي لا معارض لها - ويحكم بالقافة بالسنة الصحيحة الصريحة ويحكم بشاهد الحال إذا تداعى الزوجان أو الصانعان متاع البيت والدكان، ويحكم، - عند من أنكر الحكم -، بالشاهد واليمين، بوجود الآجر في الحائط، فيجعله للمدعي إذا كان جهته - وهذا كله ليس في القرآن، ولا حكم به رسول الله ﷺ، ولا أحد من أصحابه..

(١) الإسلام عقيدة وشريعة - ص ٢٣٩ - ٢٤١. طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠ هـ - سنة ١٩٨٠ م.

(٢) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص ٢٣٦، ٢٤٤.

فإن قيل: فظاهر القرآن يدل على أن الشاهد والمرأتين يدل عن الشاهدين، وأنه لا يُقضى بهما إلا عند عدم الشاهدين.. قيل: القرآن لا يدل على ذلك، فإن هذا الأمر لأصحاب الحقوق بما يحفظون به حقوقهم، فهو سبحانه أرشدهم إلى أقوى الطرق، فإن لم يقدروا على أقواها انتقلوا إلى ما دونها.. وهو سبحانه لم يذكر ما يحكم به الحاكم، وإنما أرشدنا إلى ما يحفظ به الحق، وطرق الحكم أوسع من الطرق التي تُحفظ بها الحقوق..

وبعد إيراد ابن القيم لهذه النصوص - نقلا عن شيخه وشيخ الإسلام ابن تيمية - علق عليها، مؤكدا إياها، فقال: قلت - أي ابن القيم -: وليس في القرآن ما يقتضي أنه لا يُحكم إلا بشاهدين، أو شاهد وامرأتين، فإن الله سبحانه إنما أمر بذلك أصحاب الحقوق أن يحفظوا حقوقهم بهذا النصاب، ولم يأمر بذلك الحكام أن يحكموا به، فضلا عن أن يكون قد أمرهم ألا يقضوا إلا بذلك. ولهذا يحكم الحاكم بالنكول، واليمين المردودة، والمرأة الواحدة، والنساء المنفردات لا رجل معهن، وبمعاهد القمط (١)، ووجوه الآجر، وغير ذلك من طرق الحكم التي تُذكر في القرآن.. فطرق الحكم شيء، وطرق حفظ الحقوق شيء آخر، وليس بينهما تلازم، فتحفظ الحقوق بما لا يحكم به الحاكم مما يعلم صاحب الحق أنه يحفظ به حقه، ويحكم الحاكم بما لا يحفظ به صاحب الحق حقه، ولا خطر على باله (٢)...

فطرق الإشهاد، في آية سورة البقرة - التي تجعل شهادة المرأتين تعدل شهادة رجل واحد - هي نصيحة وإرشاد لصاحب الدين - ذي الطبيعة الخاصة -.. وليست التشريع الموجه إلى الحاكم - القاضي - والجامع لطرق الشهادات والبيئات.. إنما خاصة بدين له مواصفاته وملابساته، وليست التشريع العام في البيئات التي تُظهر العدل فيحكم به القضاة.

الحالات التي يجوز للقاضي الحكم بناء عليها:

وبعد هذا الضبط والتمييز والتحديد.. أخذ ابن تيمية يعدد حالات البيئات والشهادات التي يجوز للقاضي - الحاكم - الحكم بناء عليها.. فقال: إنه لا يجوز للحاكم [القاضي] الحكم بشهادة الرجل الواحد إذا عرف صدقه، في غير الحدود، ولم يوجب الله على الحاكم ألا يحكم إلا بشاهدين أصلاً، وإنما أمر صاحب الحق أن يحفظ حقه بشاهدين،

(١) مفرداً قمطاً - بكسر القاف وسكون الميم -: ما تشد به الأشخاص ومكونات البناء ولبناته.

(٢) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ص ١٩٨.

أو بشاهد وامرأتين، وهذا لا يدل على أن الحاكم لا يحكم بأقل من ذلك، بل قد حكم رسول الله ﷺ، بالشاهد واليمين، وبالشاهد فقط، وليس ذلك مخالفاً لكتاب الله عند من فهمه، ولا بين حكم الله وحكم رسوله خلاف.. وقد قبل النبي شهادة الأعرابي وحده على رؤية هلال رمضان، وتسمية بعض الفقهاء ذلك إخباراً، لا شهادة، أمر لفظي لا يقدر في الاستدلال، ولفظ الحديث يرد قوله وأجاز ﷺ شهادة الشاهد الواحد في قضية السلب^(١)، ولم يطالب القاتل يشاهد آخر، ولا استحلّه، وهذه القصة [وروايتها في الصحيحين] صريحة في ذلك.. وقد صرح الأصحاب: أنه تُقبل شهادة الرجل الواحد من غير يمين عند الحاجة، وهو الذي نقله الخرقي [٣٣٤هـ - ٩٤٥م] في مختصره، فقال: وتقبل شهادة الطبيب العدل في الموضحة إذا لم يقدر على طبيين، وكذلك البيطار في داء الدابة^(٢).

شهادة النساء في الحدود

وكما تجوز شهادة الرجل الواحد - في غير الحدود - وكما تجوز شهادة الرجال وحدهم، في الحدود، تجوز - عند البعض - شهادة النساء وحدهن في الحدود.. وعن ذلك يقول ابن تيمية، فيما نقله ابن القيم: وقد قبل النبي ﷺ شهادة المرأة الواحدة في الرضاع، وقد شهدت على فعل نفسها، ففي الصحيحين عن عقبة ابن الحارث: أنه تزوج أم يحيى بنت أبي إهاب، فجاءت أمة سوداء، فقالت: قد أرضعتكما. فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فأعرض عني، قال: فتنحيت فذكرت ذلك له، قال: فكيف؟ وقد زعمت أن أرضعتكما!

وقد نص أحمد على ذلك في رواية بكر بن محمد عن أبيه، قال: في المرأة تشهد على مالا يحضره الرجال من إثبات استهلال الصبي^(٣)، وفي الحمام يدخله النساء، فتكون بينهن جراحات.

وقال إسحاق بن منصور: قلت لأحمد في شهادة الاستدلال: تجوز شهادة امرأة واحدة في الحيض والعدة والسقط والحمام، وكل مالا يطلع عليه إلا النساء؟، فقال: تجوز شهادة

(١) السُّب - بفتح السين مشددة، وفتح اللام -: هو متاع وعدته، يأخذه قاتله.. وفي الحديث: "من قتل قتيلاً فله سلبه".

(٢) الموضحة: هي الجراحات التي هي دون قتل النفس.

(٣) استهلال الصبي: هو أن يحدث منه ما يدل على حياته - ساعة الولادة - من رفع صوت أو حركة عضو أو عين، وهو شرط لتمتعته بحقوق الأحياء.

امراة إذا كانت ثقة، ويجوز بشهادة النساء منفردات في غير الحدود والقصاص عند جماعة من الخلف والسلف. وعن عطاء [٢٧-١١٤هـ / ٦٤٧-٧٣٢م] أنه أجاز شهادة النساء في النكاح. وعن شريح [٧٨هـ / ٦٩٧م] أنه أجاز شهادة النساء في الطلاق. وقال بعض الناس: تجوز شهادة النساء في الحدود: قال أحمد بن حنبل: قال أبو حنيفة: تجوز شهادة القابلة وحدها، وإن كانت يهودية أو نصرانية^(١).

ذلك أن العبرة هنا - في الشهادة - إنما هي الخبرة والعدالة، وليست العبرة بجنس الشاهد - ذكرا أو أنثى - ففي مهن مثل الطب.. والبيطرة. والترجمة أما القاضي.. تكون العبرة بمعرفة أهل الخبرة^(٢)؛ بل لقد ذكر ابن تيمية - في حديثه عن الإشهاد الذي تحدث عنه آية سورة البقرة - أن نسيان المرأة، ومن ثم حاجتها إلى أخرى تذكرها (أَنْ تُضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) ليس طبعاً ولا جبلة في كل النساء، وليس حتماً في كل أنواع الشهادات.. وإنما هو أمر له علاقة بالخبرة والمران أي أنه مما يلحقه التطور والتغيير.. وحكى ذلك عنه ابن القيم فقال:

قال ابن تيمية، رحمه الله تعالى: قوله تعالى: (فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) (البقرة: ٢٨٢) فيه دليل على أن استشهاد امرأتين مكان رجل واحد إنما هو لإذكار إحداهما الأخرى، إذا ضلت، وهذا إنما يكون فيما فيه الضلال في العادة، وهو النسيان وعدم الضبط.. فما كان من الشهادات لا يُخاف فيه الضلال في العادة لم تكن فيه على نصف الرجل...

فحتى في الإشهاد، يجوز لصاحب الدين أن يحفظ دينه - وفق نصيحة وإرشاد آية سورة البقرة - بإشهاد رجل وامراة، أو امرأتين، وذلك عند توافر الخبرة للمرأة في موضوع الإشهاد.. فهي - في هذا الإشهاد - ليست شهادتها دائماً على النصف من شهادة الرجل..

(١) الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية ص ١١٥- ١١٧.

(٢) المصدر السابق. ص ١٨٨، ١٩٣.

البينة اسم لكل ما يبين الحق:

لقد كرر ابن القيم - وأكد - هذا الذي أشرنا إلى طرف منه، في غير كتابه "الطرق الحكمية في السياسة الشرعية" فقال في كتابه "إعلام الموقعين عند رب العالمين" أثناء حديثه البينة وحديث رسول الله ﷺ: البينة على المدعي واليمين على من أنكر - خلال شرحه لخطاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري [٢١-٤٤هـ / ٦٠٢-٦٦٥م] في قواعد القضاء وآدابه - قال: إن البينة في كلام الله ورسوله، وكلام الصحابة اسم لكل ما يبين الحق.. ولم يختص لفظ البينة بالشاهدين.. وقال الله في آية الدين (وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ) فهذا في التحمل والوثيقة التي يحفظ بها صاحب المال حقه، لا في طرق الحكم وما يحكم به الحاكم، فإن هذا شيء وهذا شيء، فذكر سبحانه ما يحفظ به الحقوق من الشهود، ولم يذكر أن الحكام لا يحكمون إلا بذلك.. فإن طرق الحكم أعم من طرق حفظ الحقوق.. وقال سبحانه: (مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ) لأن صاحب الحق هو الذي يحفظ ماله بمن يرضاه.

وعلى ابن تيمية كون شهادة المرأتين - في هذه الحالة - تعدلان شهادة الرجل الواحد، بأن المرأة ليست مما يتحمل عادة مجالس وأنواع هذه المعاملات.. لكن إذا تطورت خبراتها وممارساتها وعاداتها، كانت شهادتها - حتى في الإشهاد على حفظ الحقوق والديون - مساوية لشهادة الرجل.. فقال:

ولا ريب أن هذه الحكمة في التعدد هي في التحمل، فأما إذا عقلت المرأة، وحفظت وكانت ممن يوثق بدينها فإن المقصود حاصل بخبرها بأخبار الديانات، ولهذا تُقبل شهادتها وحدها في مواضع، ويُحكم بشهادة امرأتين ويمين الطالب في أصح القولين، وهو قول مالك [٩٣-١٧٩هـ / ٧١٢-٧٩٥م] وأحد الوجهين في مذهب أحمد.. والمقصود أن الشارع لم يقف الحكم في حفظ الحقوق البتة على شهادة الذكركين، لا في الدماء ولا في الأموال ولا في الفروج ولا في الحدود.. وسر المسألة ألا يلزم من الأمر بالتعدد في جانب الحكم والثبوت، فالخبر الصادق لا تأتي الشريعة برده أبداً (١).

وهذا الذي قاله ابن تيمية وابن القيم - في حديثيهما عن آية سورة البقرة - هو الذي ذكره الإمام محمد عبده، عندما أرجع تميز شهادة الرجال على هذا الحق - الذي تحدثت عنه الآية - على شهادة النساء، إلى كون النساء - في ذلك التاريخ - كن

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/٩٠: ٩٢، ٩٤: ٩٥، ١٠٣، ١٠٤. طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م.

بعيدات عن حضور مجالس التجارات، ومن ثم بعيدات عن تحصيل التحمل والخبرات في هذه الميادين.. وهو واقع تاريخي خاضع للتطور والتغير، وليس طبيعة ولا جيلة في جنس النساء على مر العصور.. ولو عاش الإمام محمد عبده إلى زماننا هذا، الذي زخر ويزخر بالمتخصصات في المحاسبة والاقتصاد وإدارة الأعمال، وبـ سيدات الأعمال اللاتي ينافسن رجال الأعمال لأفاض وتوسع فيما قال، ومع ذلك، فحسبه أنه قد تحدث - قبل قرن من الزمان - في تفسيره لآية سورة البقرة هذه رافضا أن يكون نسيان المرأة جيلة فيها وعاما في كل موضوعات الشهادات، فقال: تكلم المفسرون في هذا، وجعلوا سببه المزاج، فقالوا إن مزاج المرأة يعتريه البرد فيتبعه النسيان، وهذا غير متحقق، والسبب الصحيح أن المرأة ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاولات، فلذلك تكون ذاكرتها ضعيفة، ولا تكون كذلك في الأمور المتزلية التي هي شغلها، فإنها أقوى ذاكرة من الرجل، يعني أن من طبع البشر، ذكرانا وإناثا، أن يقوى تذكرهم للأمر الذي همهم ويكثر اشتغالهم بها.

ولقد سار الشيخ محمود شلتوت - الذي استوعب اجتهادات ابن تيمية وابن القيم ومحمد عبده - مع هذا الطريق، مضيفا إلى هذه الاجتهادات علما آخر عندما لفت النظر إلى تساوي شهادة الرجل في اللعان .. فكتب يقول - عن شهادة المرأة، وكيف أنها دليل على كمال أهليتها، وذلك على العكس من الفكر المغلوط الذي يحسب موقف الإسلام من هذه القضية انتقاصا من إنسانيتها.. كتب يقول: إن قول الله سبحانه وتعالى: (فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ) ليس واردا في مقام الشهادة التي يقضي بها القاضي ويحكم، وإنما هو في مقام الإرشاد إلى طريق الاستيثاق والاطمئنان على الحقوق بين المتعاملين وقت التعامل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ) إلى أن قال: (وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى) (البقرة: ٢٨٢).

فالمقام مقام استيثاق على الحقوق، لا مقام قضاء بها. والآية ترشد إلى أفضل أنواع الاستيثاق الذي تطمئن به نفوس المتعاملين على حقوقهم. وليس معنى هذا أن شهادة المرأة الواحدة أو شهادة النساء اللاتي ليس معهن رجل، لا يثبت بها الحق، ولا يحكم بها القاضي، فإن أقصى ما يطلبه القضاء هو البينة.

وقد حقق العلامة ابن القيم أن البينة في الشرع أعم من الشهادة، وأن كل ما يتبين به الحق ويظهره، هو بينة يقضي بها القاضي ويحكم. ومن ذلك: القاضي بالقرائن القطعية، ويحكم بشهادة غير المسلم متى وثق بها واطمأن إليها. ذلكم هو منطق شريعة الإسلام - وكلها منطق - وهذا هو عدلها بين النساء والرجال - وكلها عدل - وكما يقول ابن القيم: وما أثبت الله ورسوله قط حكما من الأحكام يُقطع ببطلان سببه حسا أو عقلا، فحاشا أحكامه سبحانه من ذلك، فإنه لا أحسن حكما منه، سبحانه وتعالى، ولا أعدل. ولا يحكم حكما يقول العقل: ليته حكم بخلافه، بل أحكامه كلها مما يشهد العقل والفطر بحسنها، ووقوعها على أتم الوجوه وأحسنها، وأنه لا يصلح في موضعها سواها (١). هذا.. ولقد تعمدا في إزالة هذه الشبهة أمران: **أولهما:** أن ندع نصوص أئمة الاجتهاد الإسلامي هي التي تبدد غيوم هذه الشبهة، لا نصوصنا نحن.. وذلك حتى لا ندع سبيلا لشبهات جديدة في هذا الموضوع!

وثانيهما: أن تكون هذه النصوص للأئمة المبرزين في إطار السلف والسلفيين.. وذلك حتى نقطع الطريق على أدعياء السلفية الذين حملوا العادات الراكدة لمجتمعاتهم على دين الإسلام، فاستبدلوا هذه العادات بشريعة الإسلام!.. وحتى نقطع الطريق - كذلك - على غلاة العلمانيين والعلمانيات، الذين استبدلوا البدع الفكرية الوافدة بحقائق وحقيقة الإسلام، والذين يتحسسون مسدساتهم إذا ذكرت مصطلحات السلفية والسلفيين!..

فإنصاف المرأة، وكمال واكتمال أهليتها هو موقف الإسلام، الذي نزل به الروح الأمين على قلب الصادق الأمين.. وهو موقف كل تيارات الاجتهاد الإسلامي، على امتداد تاريخ الإسلام (٢).

ثالثا - قضية النساء ناقصات عقل ودين

- عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ خطب الناس فوعظهم ثم قال: "يا معشر النساء تصدقن فإنكن أكثر أهل النار"، فقالت امرأة منهن: ولم ذاك يا رسول الله؟ قال: "لكثرة لعنكن يعني وكفركن العشير قال: وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذوي الألباب وذوي الرأي منكن" قالت امرأة منهن: وما نقصان دينها وعقلها؟ قال: "شهادة امرأتين منكن بشهادة رجل، ونقصان دينكن: الحيضة تمكث إحداكن الثلاث والأربع لا تصلي" (٣).

(١) المصدر السابق ص ٣٢٩.

(٢) د محمد عمارة "شبهات وإجابات حول مكانة المرأة في الإسلام" سلسلة دراسات إسلامية. تصدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. العدد (٧٣).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان (٢٦١٣) وفي الباب عن أبي سعيد وابن عمر قال أبو عيسى هذا حديث صحيح غريب حسن من هذا الوجه.

وهذا الحديث يدل على عظمة النبوة وأنه لا ينطق عن الهوى، حيث يثبت أن الرسول ﷺ قد سبق العلم الحديث بأشعته وأدواته التشريحية منذ ما يقرب من أربعة عشر قرناً، فقد أثبت العلم الحديث أن مخ الإنسان يتكون من نصفين: النصف الأيمن، والنصف الأيسر، ولكل منهما وظيفة خاصة به.. فالنصف الأيمن: يستخدم في وظائف تحتاج إلى أشياء ينظر إليها ككل، فهو يختص بالخيال المنظور والخلق والأحلام والإلهام والرموز والأحاسيس والمشاعر.. بينما النصف الأيسر: يتعلق بالمنطق والتعقل والتفكير الحسابي والكلام.

وثبت أيضاً في العلم الحديث أن النصف الأيمن في المرأة أكبر من النصف الأيسر، والعكس صحيح في الرجل، لقيام كل منهما بما يتناسب مع طبيعة وظيفته في الحياة.. فالمرأة هي نبع الأحاسيس والمشاعر في الأمة، والرجل خلق للتفكير الحسابي والمنطق والتعقل لخوض الصراعات المادية(١).

وهنا يظهر مفهوم الحديث جلياً: فالرسول ﷺ يتعجب من غلبة المرأة الرجل بسلب عقله ووجدانه رغم أنه يتمتع بتفوق النصف العقلي المختص بالتعقل والتفكير، ورغم أنها تنقص عنه في هذا الشق إلا أنها تتفوقها في النصف الأيمن الخاص بالمشاعر والأحاسيس، قد استطاعت أن تسلب الرجل لبه بأنوثتها التي افتقدتها في العصر الحديث نتيجة طوفان المادية والحسابات العقلية وانحسار العواطف الإنسانية، ولعل هذا هو السر في حالة العنوسة التي تعاني منها في العصر الحاضر نتيجة توقف الشوق عند الرجال وعدم سلب عقولهم من النساء اللاتي زاد عندهن النصف الأيسر الذي يتعلق بالتفكير الحسابي، ونقص النصف الأيمن الذي يتعلق بالعواطف وبالتالي تحققت المساواة الفعلية بالرجال، وهي ليست في صالح النساء بأي حال من الأحوال.

وقد علق د. محمد عمارة على حديث النساء ناقصات عقل ودين: فيبين أن المجال الذي ذكر فيه الحديث يبين المقصود منه، وقال: فوقت الحديث في عيد الأضحى ترشح ألفاظه وأوصافه لأن يكون المقصود من ورائها المدح وليس الذم، فالذين يعرفون خلق من صنعه الله على عينه، حتى جعله صاحب الخلق العظيم (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم: ٤)..

(١) الإنسان والوجود. د. حسن عباس زكي - تحقيق وتقديم د. خديجة النبراوي - مركز الكتاب للنشر.

تفجير الطاقات الكامنة في الإنسان. د. حسن عباس زكي تحقيق وتقديم د. خديجة النبراوي.

والذين يعرفون كيف جعل الرسول ﷺ من العيد - الذي قال فيه هذا الحديث فرحة أشرك في الاستمتاع بها - مع الرجال - كل النساء، حتى الصغيرات، بل وحتى الحُيْض والنفساء!.. الذين يعرفون صاحب هذا الخلق العظيم، ويعرفون رفقه بالقوارير، ووصاياه بمن حتى وهو على فراش المرض يودع هذه الدنيا.. لا يمكن أن يتصوروه ﷺ ذلك الذي اختار يوم الزينة والفرحة ليجابه كل النساء ومطلق جنس النساء بالذم والتقريع والحكم المؤبد عليهن بنقصان الأهلية، لنقصانهن في العقل والدين!

وإذا كانت المناسبة - يوم العيد والزينة والفرحة - لا ترشح أن يكون الدم والغم والحزن والتبكيك هو المقصود.. فإن ألفاظ الحديث تشهد على أن المقصود إنما كان المديح، الذي يستخدم وصف الواقع الذي تشترك في التحلي بصفاته غالبية النساء.. إن لم يكن كل النساء..

فالحديث يشير إلى غلبة العاطفة والرقّة على المرأة، وهي عاطفة ورقة صارت سلاحا تغلب به هذه المرأة أشد الرجال حزما وشدة وعقلا.. وإذا كانت غلبة العاطفة إنما تعني تفوقها على الحسابات العقلية المجردة والجامدة، فإننا نكون أمام عملة ذات وجهين، تمثلها المرأة.. فعند المرأة تغلب العاطفة على العقلانية، وذلك على عكس الرجل، الذي تغلب عقلانيته وحساباته العقلانية عواطفه.. وفي هذا التمايز نعمة إلهية، وحكمة بالغة، ليكون عطاء المرأة في ميادين العاطفة بلا حدود وبلا حسابات.. وليكون عطاء الرجل في مجالات العقلانية المجردة والجامدة مكتملا لما نقص عند الشق اللطيف والراقي!

فنقص العقل - الذي أشارت إليه كلمات الحديث النبوي الشريف - هو وصف لواقع تنزّين به المرأة السوية وتفخر به؛ لأنه يعني غلبة عاطفتها على عقلانيته المجردة.. ولذلك، كانت مداعبة صاحب الخلق العظيم - الذي آتاه ربه جوامع الكلم - للنساء، في يوم الفرحة والزينة، عندما قال لهن: إنهن يغلبن بسلاح العاطفة وسلطان الاستضعاف أهل الحزم والألباب من عقلاء الرجال، ويخترقن بالعواطف الرقيقة أمنع الحصون! ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن.

فهو مدح للعاطفة الرقيقة التي تذهب بحزم ذوي العقول والألباب.. ويا بؤس وشقاء المرأة من شرف امتلاك هذا السلاح الذي فطر الله النساء على تقلده والتنزّين به في هذه الحياة!.. بل - وأيضا - يا بؤس أهل الحزم والعقلانية - من الرجال - الذين حرموا - في هذه الحياة - من الهزيمة أمام هذا السلاح.. سلاح العاطفة والاستضعاف!

وإذا كان هذا هو المعنى المناسب واللائق - بالقائل وبالمخاطب وبالمناسبة - وأيضاً الخجب لكل النساء والرجال معا - الذي قصدت إليه ألفاظ نقص العقل في الحديث النبوي الشريف.. فإن المراد بنقص الدين: وصف الواقع غير المذموم؛ بل إنه الواقع المحمود والممدوح!

فعندما سألت النسوة رسول الله ﷺ عن المقصود من نقصهن في الدين، تحدث عن اختصاصهن برخص في العبادات تزيد على الرخص التي يشاركن فيها الرجال.. فالنساء يشاركن الرجال في كل الرخص التي رخص فيها الشارع - من إفطار الصائم في المرض والسفر.. إلى الصلاة وجمعها في السفر.. إلى إباحة المحرمات عند الضرورات إلخ.. ثم يزدن عن الرجال في رخص خاصة بالإناث، مثل سقوط فرائض الصلاة والصيام عن الحيض والنفساء.. وإفطار المرضع عند الحاجة في شهر رمضان.. إلخ.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى، يحب أن تُؤتى رخصه كما يحب أن تُؤتى عزائمه، فإن التزام النساء بهذه الرخص الشرعية في الصلاة والصيام والحج والعمرة والزكاة وغيرها على النصف من تكاليف الرجال... ولكنها الرخصة التي يؤجر عليها المتزعمون بها والمتزمات، كما يؤجرون جميعاً عندما ينهضون بعزائم التكاليف.. إن النقص المذموم - في أي أمر من الأمور - هو الذي يمكن إزالته وجبره وتغييره، وإذا تغير والنجر كان محموداً.. ولو كانت الرخص التي شرعت للنساء - بسقوط الصلاة والصيام للحائض، والنفساء مثلاً - نقصاً مذموماً لكان صيامهن وصلاتهن وهي حيض ونفساء أمراً مقبولاً ومحموداً ومأجوراً.. لكن الحال ليس كذلك، بل إنه على العكس من ذلك.

وأخيراً فهل يعقل عاقل.. وهل يجوز في أي منطق أن يعهد الإسلام، وتعيد الفطرة الإلهية بأهم الصناعات الإنسانية والاجتماعية - صناعة الإنسان، ورعاية الأسرة، وصياغة مستقبل الأمة - إلى ناقصات العقل والدين، بهذا المعنى السليبي، الذي ظلم به غلاة الإسلاميين وغلاة العلمانيين الإسلام، ورسوله الكريم، الذي حرر المرأة تحريره للرجل، عندما بعثه الله بالحياة والإحياء لمطلق الإنسان (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) (الأنفال: ٢٤) هو الواجب المطلوب والمحمود، وفيه لمن الأجر والثواب ولا يمكن أن يكون بالأمر المردول والمذموم.. ووصف واقعه - في هذا الحديث النبوي - مثله كمثل وصف الحديث لغلبة العاطفة الرقيقة الفياضة على العقلانية الجامدة

عند النساء هو وصف لواقع محمود.. ولا يمكن أن يكون ذماً للنساء، ينتقص من أهلية المرأة ومساواتها للرجال، بأي حال من الأحوال.

إن العقل ملكة من الملكات التي أنعم الله بها على الإنسان، وليس هناك إنسان رجلاً كان أو امرأة يتساوى مع الآخر مساواة كمية ودقيقة في ملكة العقل ونعمته.. ففي ذلك يتفاوت الناس ويختلفون بل إن العقل الواحد وضبطه -ذكراً كان أو أنثى- يتفاوت، زيادة ونقصان بمرور الزمن، وبما يحتسب من المعارف والعلوم والخبرات.. وليست هناك جيلة ولا طبيعة تفرق بين الرجال والنساء في هذا الموضوع..

وإذا كان العقل - في الإسلام - هو مناط التكليف، فإن المساواة بين النساء والرجال في التكليف والحساب والجزاء شاهدة على أن التفسيرات المغلوطة لهذا الحديث النبوي الشريف، هي تفسيرات ناقصة لمنطق الإسلام في المساواة بين النساء والرجال في التكليف في الصلاة والصيام والحج والعمرة والزكاة وغيرها على النصف من تكاليف الرجال(١).

رابعاً - خلقت المرأة من ضلع أعوج

قال رسول الله ﷺ: "استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً"(٢). وقد فهم هذا الحديث فهماً خاطئاً، وشاع اعتقاد خاطئ بأن الاعوجاج من صفات المرأة الأساسية، وأنها لن تحقق الاستقامة مهما قدم لها زوجها ما يسميه تضحيات. وبذلك أصبح هذا الفهم سبباً في عدم تحقيق المودة والرحمة في الحياة الزوجية، وبالتالي عدم تحقيق السكن المطلوب بين الزوجين. ويعلق فضيلة الشيخ الشعراوي على هذا قائلاً: بعض الناس يأخذ هذا الحديث على أنه انتقاص من شأن المرأة وإهانة لها، والحقيقة أن هذا الحديث قد فسر بما لا يتفق مع واقعها فالضلع مخلوق في صورة مقوسة ليؤدي مهمته في الحياة، لأنه لو استقام لما أدى مهمته في أن يحمي الصدر.. إذن ففي حالة خلقه أعوج، يعني أنه خلق صالحاً لأن يؤدي مهمته في الحياة، وأن يحافظ على الصدر ويحميه من أم يصاب بسوء، فالمرأة مخلوق يملأه الحنان؛ ليحافظ على أثمن شيء في الوجود وهو الأولاد، فإذا أردت أن تعدله لا ينفع ويتحطم، ومن تمام خلق المرأة، أنها خلقت من ضلع أعوج، لتحنو على طفلها وتربيته دون ملل ودون ضيق، فالعوج في الضلع ليس عيباً

(١) د محمد عمارة " شبهات وإجابات حول مكانة المرأة في الإسلام. مرجع سابق.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب الوصية بالنساء (٥١٨٦) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله

عليه وسلم قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤدي جاره واستوصوا بالنساء خيراً... به.

ولكنه ميزة، تماماً كالسنارة التي نصطاد بها السمك، فمن تمام أداء مهمتها ألها معوجة، ولو أن إنساناً جاء فجعلها مستقيمة، فلن تؤدي مهمتها، ولن تصطاد سمكة واحدة.

فالأعوجاج هنا من تمام الخلق، ومن تمام كمال مهمة المرأة في الحياة، وليس عيباً فيها، فالرجل والمرأة متشابهان، ولكنهما مختلفان عند توزيع الطاقات كما جاء في المرأة في القرآن الكريم لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي.

- وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت، واستوصوا بالنساء؛ فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه؛ إن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، استوصوا بالنساء خيراً (١).

- عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة؛ فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها؛ وكسرهما طلاقها (٢). ونلقي مزيداً من الضوء على المقصود من أحاديث الرسول ﷺ حيث إذا نظرنا إلى هذين الحديثين سنجد أنهما يتضمنان عدة أمور:

١ - توصية عامة بالنساء في قوله صلى الله عليه وسلم: "استوصوا بالنساء" وقيل معناه. تواصلوا بهن، والباء للتعدية، والاستفعال بمعنى الإفعال كالاستجابة بمعنى الإجابة (٣).

٢ - تعليل هذه الوصية بأمر يتصل بخلقة المرأة وذلك في قوله ﷺ: "فإن المرأة خلقت من ضلع وأعوج ما في الضلع أعلاه" فهي أولاً متميزة عن خلقة الرجل، ثم إن بها بعض عوج. والرسول ﷺ لم يبين مجال هذا العوج ولا مداه، وإنما أشار إلى أثر العوج الخلقي في بعض سلوك المرأة مما يضيق به الرجل. فهل يمكن بناء علي الواقع المشاهد أن نفسر العوج بسرعة الانفعال وشدة أو بفرط الحساسية أو بتقلب المزاج؟ والعوج أصلاً يقابل الاستقامة، فإذا كان ضبط الإنسان لعواطفه استقامة فغلبة العاطفة عليه عوج. والمرأة - بخاصة - قد تغلبها العاطفة فتفوقها الحكمة في اتخاذ قرار أو يكون منها ما لا يجمل من قول أو فعل. وقد ينتج من سرعة انفعالها تقلب في المزاج. وصدق رسول الله ﷺ: "لن تستقيم لك علي طريقة" وهذا التقلب مما يكدر خاطر الرجل ويثير غضبه. ويرجح هذا التفسير ما قاله الرسول ﷺ في عظمته للنساء: "تكثرن اللعن وتكفرن العشير"، فهذا سلوك عادة ما يكون ساعة غضب أي نتيجة سرعة الانفعال وشدة. أما إذا أراد البعض أن يفسر (العوج) بأن المرأة ذات طبيعة ملتوية (٤) والالتواء هنا يعني المكر

(١) أخرجه مسلم في كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء (١٤٦٨) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ... به.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء (١٤٦٨) عن أبي هريرة قال: قال: رسول الله ﷺ: ... به.

(٣) فتح الباري ٧ / ١٧٧.

(٤) خصائص الأنوثة ل محمد سلامة جبر ص ٥٣ - دار البحوث العلمية - الكويت.

والخدعية، فإننا نعتقد أن هذا القول يعد غلوا وتجريحا لعموم النساء يعارض النصوص المتكاثرة عن حياة الصحابيات التي تدل علي براءتهن من المكر والخدعية والالتواء ويخالف الواقع المشاهد بين أمهاتنا وأخواتنا وزوجاتنا.

وهل يعقل أن نوكل الإشراف علي تربية أولادنا إلي إنسان ذي طبيعة ملتوية؟.

٣ - وفي الحديث توجيه الرجل إلي الصبر علي ما يصدر من المرأة من سلوك مبعثه ذاك (العوج) وذلك قوله ﷺ: "وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها" وعلي الرجل أن يتذكر أنها لا تعتمد هذا السلوك لمضايقته وإحراجها فإنما هو نتيجة ما قدره الله علي المرأة من طبيعة خاصة تتميز بسرعة الانفعال وشدته، فليصبر، وليكن سمحا كريما، وليعلم أن هذه الخاصية من خصائص المرأة يمكن أن يكون لها أثر طيب في إقدارها علي أداء مهمتها الأساس من حمل وإرضاع وحضانة إذ تحتاج إلي عاطفة بالغة وحساسية مرهفة. ثم ليعلم الرجل أيضا أنه إذا حاول الوقوف عند كل خطأ من زوجه - نتيجة انفعالها البالغ - مؤاخذا ومعابها فإن هذا لن يسفر عن شيء سوى مزيد من التباعد والشقاق؛ ثم يقع الفراق والطلاق. وأخيرا ليذكر الرجل أن لزوجه من الفضائل والחסن ما قد يعوض هذا العيب، وصدق رسول الله ﷺ في قوله الحكيم الذي فيه علاج عندما يبدر من المرأة ما يبدر: " لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها آخر " (١).

٤ - ولتأكيد الفرق بالنساء ينهي الرسول ﷺ حديثه بقوله: (فاستوصوا بالنساء)، تماما كما بدأه ﷺ. وفي شرح هذا القول قال الطيبي: (السين في قوله " فاستوصوا" للطلب وهو للمبالغة أي اطلبوا الوصية من أنفسكم في حقهن أو اطلبوا من غيركم بهن... وقيل معناه: اقبلوا وصيتي فيهن واعملوا بها وارفقوا بهن وأحسنوا عشرتهن). قال الحافظ ابن حجر: وهذا القول الأخير أوجه الأوجه في نظري وليس مخالفا لما قال الطيبي (٢). وهكذا فإن ما يوجه من انتقادات للإسلام ليست ناتجة عن قصور في تشريعاته، ولكنها ناتجة عن قصور في فهم كلماته التي يفيض بها مصدرى التشريع العظيمين وهما القرآن والسنة..

(١) أخرجه مسلم في كتاب الرضاع باب الوصية بالنساء (٤ / ١٧٨).

(٢) فتح الباري ٧ / ١٧٧.

الفصل الثاني

قضايا تتعلق بأيجابية المرأة في الحياة

أولاً - قضية (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) (الأحزاب: ٣٣)

تعتبر تلك القضية من العوامل التي تعوق حركة المرأة وفعاليتها في الحياة، نتيجة كثرة تردادها في غير محلها عن فهم خاطئ لمغزاها وأبعادها، لدرجة أن بعض العلماء يستدلون بتلك الآية فيرون أنه لا يجوز للمرأة أن تدع بيتها إلا لضرورة أو حاجة؛ فلا يجوز للمرأة أن تدع بيتها إلا لضرورة أو حاجة.

ويرد على هذا د يوسف القرضاوي بقوله (١): إن هذا الدليل غير ناهض للأسباب التالية:

أولاً: لأن الآية تخاطب نساء النبي ﷺ كما هو واضح من السياق، ونساء النبي هن من الحرمة وعليهن من التغليظ ما ليس على غيرهن. ولهذا كان أجر الواحدة منهن إذا عملت صالحاً مضاعفاً، كما جعل عذابها إذا أساءت مضاعفاً أيضاً. ونساء النبي هن أحكام خاصة من حيث مضاعفة العذاب لمن تأتي بفاحشة مبينة، ومضاعفة الأجر لمن تعمل صالحاً، وتحريم نكاحهن بعد رسول الله ﷺ. وقد قال القرآن في نفس السياق: (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ) (الأحزاب: ٣٢).

وثانياً: أن المرأة قد خرجت من بيتها بالفعل، وذهبت إلى المدرسة والجامعة، وعملت في مجالات الحياة المختلفة، طبيبة ومعلمة ومشرفة وإدارية وغيرها، دون نكير من أحد يعتد به، مما يعتبره الكثيرون إجماعاً على مشروعية العمل خارج البيت للمرأة بشروطه.

وثالثاً: أن الحاجة تقتضي من المسلمات الملتزمات أن يدخلن معركة بناء الحياة في مواجهة المتحولات والعلمانيات اللاتي يزعمن قيادة العمل النسائي، والحاجة الاجتماعية والسياسية قد تكون أهم وأكبر من الحاجة الفردية التي تجيز للمرأة الخروج إلى الحياة العامة.

ورابعاً: أن حبس المرأة في البيت لم يعرف إلا أنه كان في فترة من الفترات - قبل استقرار التشريع - عقوبة لمن ارتكبت الفاحشة: (فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا) (النساء: ١٥) فكيف يظن أن يكون هذا من الأوصاف اللازمة للمرأة المسلمة في الحالة الطبيعية؟

(١) فقه الدولة في الإسلام. د يوسف القرضاوي دار الشروق.

خامسا: على أن الآية الكريمة: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) لم تمنع أم المؤمنين، أئمة نساء الأمة، عائشة رضي الله عنها، أن تخرج من بيتها، بل من المدينة المنورة، وأن تسافر إلى البصرة على رأس جيش فيه الكثير من الصحابة، وفيهم اثنان من العشرة المبشرين بالجنة، ومن الستة المرشحين للخلافة، أصحاب الشورى: طلحة والزبير، تطالب بما تعتقد أنه حق وصواب، من المبادرة بالقصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه. وما يقال من أنها ندمت على هذا الخروج، فهذا ليس لأن خروجها كان غير مشروع، بل لأن رأيها في السياسة كان خطأ. وهذا أمر آخر.

على أن بعضهم اتخذ من آية: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) حجة عامة على أن المرأة لا يجوز لها أن تخرج من بيتها إلا لضرورة أو حاجة تنزل منزلة الضرورة، حتى التعليم في المدرسة والجامعة توقفوا فيه! ولا عجب أن حرموا عليها أن تشترك في الانتخابات بالتصويت، بأن تقول: نعم أو لا. وبهذا يعطل نصف الأمة عن الشهادة في هذا الجانب المهم. وإن شئت التعبير عن الواقع، قلت: تعطل الصالحات من النساء عن أداء هذه الشهادة، على حين تذهب الأخريات لإعطاء أصواتهن للعلمانيين والمعادين لشرعية الإسلام.

وقد نسي هؤلاء أن بقية الآية الكريمة تدل بمفهومها على شرعية الخروج للمرأة من بيتها إذا التزمت الحشمة والأدب ولم تتبرج تبرج الجاهلية الأولى، فالنهي عن التبرج يفيد أن ذلك خارج البيت، فالمرأة في بيتها لا حرج عليها أن تتزين وتبرج، فالنهي المنهي عنه إذن لا يكون خارج البيت (١).

وسوف نعرض في الباب القادم مساهمة المرأة وفعاليتها في الحياة في عصر النبوة، حيث شاركت المرأة في البيعة مثل الرجال، وشاركت في الحروب، وشاركت في العمل الاجتماعي، مما يسجل صفحات مضيئة للمرأة في التاريخ الإسلامي، وهذا يعتبر سبقاً حضارياً لكل شعوب الأرض.

ثانياً - قضية عمل المرأة

تعتبر قضية عمل المرأة تبعاً لما سبقها من القضايا الخطيرة التي هز كيان المجتمع، لأنها تحرمه من رافد مهم من روافد بناء الأمة وهو المرأة بفكرها ومواهبها التي أودعها الله فيها حيث هي والرجل يكملان بعضهما البعض في بناء الأسرة والأمة معاً.

(١) انتهى كلام د يوسف القرضاوي بتصرف. فقه الدولة. مرجع سابق.

وتتميز قضية عمل المرأة بحساسية خاصة.. حيث الاختيار صعب بين بديلين لا ثالث لهما:

الأول: أن تتوظف المرأة بأجر، وهذا يسبب لها القلق والإجهاد وضيق الوقت؛ لأنها مشتتة بين وظيفتها الفطرية كزوجة وأم وبين وظيفتها المهنية وما تدره عليها من أجر ومكانة اجتماعية.

الثاني: تكتفي المرأة بالعمل داخل المنزل من رعاية الزوج والأولاد، ورغم أن هذا يستغرق من وقتها الكثير إلا أنه لا يعطيها العائد المادي والاجتماعي، ولكنه يعطيها الرضا بطاعة ربها.

وهنا لابد أن تبرز العقيدة الإيمانية لتعوض المرأة عما تفتقده إذا اتجهت إلى الاختيار الثاني.. ولذلك يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالي تحت عنوان: لا تكونوا من وظيفة ربة البيت (١):

إن الإسلام عندما أوجب على الرجل نفقة البيت، كان في الحقيقة يعطي المرأة عوضاً عن تفرغها لإدارة منزلها، وتنشئة أولاده، واتجاهها الكامل إلى أداء رسالتها الطبيعية.. والذين يزدرون وظيفة ربة البيت جهال بخطورة هذا المنصب وآثاره البعيدة في حاضر الأمم ومستقبلها الأخلاقي والاجتماعي.. وأعباء هذا المنصب داخل البيت تكافئ أعمال الرجل الشاقة خارجه، وقد وجهت الشريعة كلا الجنسين إلى ما يليق به، ويتفوق فيه. ويقول د يوسف القرضاوي في ذلك: ويستند المعارضون لعمل المرأة إلى قاعدتين أساسيتين:

أولاً: سد الذرائع:

حيث هناك من ينظر إلى الأمر من زاوية سد الذرائع. فالمرأة عندما تعمل ستعرض للاختلاط بالرجال وربما الخلوة بهم، وهذا حرام، وما أدى إلى الحرام فهو حرام. ولا شك أن سد الذرائع مطلوب، ولكن العلماء قرروا أن المبالغة في سد الذرائع كالمبالغة في فتحها، وقد يترتب عليها ضياع مصالح كثيرة، أكبر بكثير من المفسد المخوفة. وهذا الدليل يمكن أن يستند إليه من يرى منع المرأة من المساهمة في فاعلية الحياة خشية الفتنة والفساد، وبهذا تضيع على أهل الدين منافع كثيرة، كان يمكن أن تكون في

(١) سر تأخر العرب والمسلمين. الشيخ محمد الغزالي - دار الريان للتراث.

صفهم ضد قوى البغي والطغيان؛ لأن المرأة المؤمنة لها من الطاقات ما يمكن أن تواجه به الأمة كثيراً من التحديات.

وقد وقف بعض العلماء يوماً في وجه تعليم المرأة، ودخلوها المدارس والجامعات من باب سد الذرائع حتى قال بعضهم: تتعلم القراءة لا الكتابة! حتى لا تستخدم القلم في كتابة الرسائل الغرامية ونحوها! ولكن غلب التيار الآخر ووجد أن التعلم في ذاته ليس شراً، بل ربما قادها إلى خير كثير.

ومن هنا نقول: إن المسلمة الملتزمة - إذا كانت في ميدان العمل - يجب أن تحتفظ في ملاقاتها للرجل من كل ما يخالف أحكام الإسلام، من الخضوع بالقول، أو التبرج في اللبس، أو الخلوة بغير محرم، أو الاختلاط بغير قيود. وهو أمر مفروغ منه من قبل المسلمات الملتزمات.

ثانياً: العوارض الطبيعية للمرأة:

ويستند المانعون للنساء من العمل بأن المرأة تعرض لها عوارض طبيعية من الدورة الشهرية وآلامها، والحمل وأوجاعه، والولادة وأسقامها، والإرضاع ومتاعبه، والأمومة وأعبائها... كل هذا مما يجعلها غير قادرة بدنياً ولا نفسياً ولا فكرياً، على تحمل تبعات العمل وأعبائه التي تحتاج إلى بذل الجهد والإتقان.

ونقول: إن هذا صحيح، وليست كل امرأة صالحة للقيام بعبء النيابة، فالمرأة المشغولة بالأمومة ومتطلباتها لن تزج بنفسها في معترك الترشيح لهذه المهام، ولو فعلت لكان على الرجال والنساء أن يقولوا لها: لا، أطفالك أولى بك.. ولكن المرأة التي لم ترزق الأطفال وعندها فضل قوة ووقت وعلم وذكاء، والمرأة التي بلغت الخمسين أو قاربت، ولم نعد تعرض لها العوارض الطبيعية المذكورة، وتزوج أبناًؤها وبناتها، وبلغت من نضج السن والتجربة ما بلغت، وعندها من الفراغ ما يمكن أن تشغله في عمل عام. ما الذي يمنع من مساهمتها في دفع حركة الحياة وتنميتها(١).

ثالثاً: قضية: لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة

استند البعض في منع المرأة أن تكون ناضجة أو عضواً في مجلس نيابي إلى الحديث الذي رواه البخاري وغيره عن أبي بكر أن النبي ﷺ حين بلغه أن الفرس ولوا على ملكهم بنت كسرى بعد موته، فقال ﷺ: " لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة"، وهذا شكل عقبة أمام

انطلاق المرأة المسلمة في العصر الحديث إلى المشاركة الفعالة في التعبير عن الرأي وإرساء قواعد التقدم في الأمة مما جعل الأصابع تشير إلى اضطهاد الإسلام للمرأة وإعاقتها عن التطور، والإسلام بريء من هذا؛ حيث أعطى للمرأة حق المشاركة في جميع المجالات لتأسيس أمة الإسلام وبناء حضارتها العريقة. وننقل هنا رد د. يوسف القرضاوي على من استندوا إلى هذا الحديث ومنعوا المرأة من العمل النيابي؛ حيث يقول: لنا مع هذا الاستدلال وقفات:

الأولى: هل يؤخذ الحديث على عمومته أو يوقف به عند سبب وروده؟ على معنى أنه أراد أن يخبر عن عدم فلاح الفرس، الذين فرض عليهم نظام الحكم الوراثي أن تحكمهم بنت الإمبراطور، وإن كان في الأمة من هو أكفأ منها وأفضل ألف مرة؟ صحيح أن أغلب الأصوليين قالوا: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولكن هذا غير مجمع عليه، وقد ورد عن ابن عباس وابن عمر وغيرهما ضرورة رعاية أسباب التزول، وإلا حدث التخبط في الفهم، ووقع سوء التفسير، كما تورط في ذلك الحنابلة من الخوارج وأمثالهم، الذين أخذوا الآيات التي نزلت في المشركين فعمموها على المؤمنين^(١) فدل هذا على أن سبب نزول الآية ومن باب أولى سبب ورود الحديث، يجب أن يرجع إليه في فهم النص، ولا يؤخذ عموم اللفظ قاعدة مسلمة.

يؤكد هذا في هذا الحديث خاصة: أنه - لو أخذ على عمومته - لعارض ظاهر القرآن، فقد قص علينا القرآن قصة امرأة قادت قومها أفضل ما تكون القيادة، وحكمتهم أعدل ما يكون الحكم، وتصرفت بحكم ورشد أحسن ما يكون التصرف، ونجوا بحسن رأيها من التورط في معركة خاسرة، يهلك فيها الرجال، وتذهب الأموال، ولا يجنون من ورائها شيئا. وكان حكمها يقوم على الشورى (مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ) (النمل: ٣٢) ومع هذا فوضوا إليها الأمر (قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ) (النمل: ٣٣).

تلك هي بلقيس - ملكة سبأ - التي ذكر الله قصتها في سورة النمل مع نبي الله سليمان، وانتهى بها المطاف إلى أن قالت: (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (النمل: ٤٤). فقادت قومها إلى خيري الدنيا والآخرة.

كما يؤكد صرف الحديث عن العموم: الواقع الذي نشهده، وهو أن كثيرا من النساء قد كن لأوطأهن خيرا من كثير من الرجال. وإن بعض هؤلاء النساء هن أرجح في ميزان

(١) للشاطبي بحث مفيد في ذلك في كلامه عن (القرآن) في (الموافقات): انظر: (كيف نتعامل مع القرآن

العظيم؟) د. يوسف القرضاوي.

الكفاية والمقدرة السياسية والإدارية من كثير من حكام العرب والمسلمين المذكور ولا أقول الرجال!

الثانية: أن علماء الأمة قد اتفقوا على منع المرأة من الولاية الكبرى أو الإمامة العظمى، وهي التي ورد في شأنها الحديث، ودل عليها سبب ورودها، كما دل عليها لفظه ولوا أمرهم وفي رواية تملكهم امرأة فهذا إنما ينطبق على المرأة إذا أصبحت خليفة لعموم المسلمين! وهو ما لا يوجد اليوم، بعد أن هدمت قلعة الخلافة على يد أتاتورك سنة ١٩٢٤م. وقد يرى بعض العلماء أن يقيس على ذلك ما إذا أصبحت ملكة أو رئيسة دولة ذات إرادة نافذة في قومها، لا يرد لها حكم، ولا يبرم دورها أمر، وبذلك يكونون قد ولوها أمرهم حقيقة، أي أن أمرهم العام قد أصبح بيدها وتحت تصرفها، ورهن إشارتها.. وقد يخالفهم آخرون بأن رئاسة (الدولة القطرية) في عصرنا: أشبه ما تكون بولاية الولاية قديما على أحد الأقاليم كما كان الولاية على مصر والشام والحجاز واليمن وغيرها. أما ما عدا الإمامة والخلافة وما في معناها من رئاسة الدولة - فهو مما يختلف فيه وهو يتسع للاجتهاد والنظر.. فيمكن بهذا أن تكون وزيرة، ويمكن أن تكون قاضية، ويمكن أن تكون محتسبة احتسابا عاما.. وقد ولي عمر بن الخطاب الشفاء بنت عبد الله العدوية على السوق تحتسب وتراقب، وهو ضرب من الولاية العامة. وينبغي الأخذ بالتدرج في هذا، وفق ظروف المجتمع ودرجة نموه وتطوره، فتعطى المرأة ما يناسبها من الوزارات، وتقضي في مجال الأسرة أولا، ثم في الأمور المدنية وهكذا.

الثالثة: أن المجتمع المعاصر في ظل النظم الديمقراطية حين يولي المرأة منصبا عاما كالوزارة أو الإدارة أو النيابة، أو نحو ذلك، فلا يعني هذا أنه ولاها أمره بالفعل، وقلدها المسؤولية عنه كاملة. فالواقع المشاهد أن المسؤولية جماعية والولاية مشتركة، تقوم بأعبائها مجموعة من المؤسسات والأجهزة، والمرأة إنما تحمل جزءا منها مع من يحملها.

وبهذا نعلم أن حكم تاتشر في بريطانيا، أو أنديرا غاندي في الهند، أو جولدا مائير في فلسطين المحتلة، ليس هو - عند التحقيق والتأمل - حكم امرأة في شعب، بل هو حكم المؤسسات والأنظمة الحكيمة، وإن كان فوق القمة امرأة! إن الذي يحكم هو مجلس الوزراء بصفته الجماعية وليست رئيسة مجلس الوزراء. (ومثل ذلك: مجلس الشورى أو مجلس النواب، ونحوهما).. فليست هي الحاكمة المطلقة التي لا يعصى لها أمر، ولا يرفض لها طلب، فهي إنما تترأس حزبا يعارضه غيره، وقد تجري هي انتخابات فتسقط فيها بجدارة، كما حدث لأنديرا غاندي في الهند، وهي في حزبا لا تملك إلا صوتها، فإذا عارضتها الأغلبية غدا رأيها ك رأي أي إنسان في عرض الطريق(١).

(١) فقه الدولة في الإسلام. د يوسف القرضاوي - ط دار الشروق.

الفصل الثالث

قضايا تتعلق بالحياة الزوجية

أولاً: قضية القوامة

في المدينة المنورة نزلت آيات "القوامة" - قوامة الرجال علي النساء - وفي ظل المفهوم الصحيح لهذه القوامة تحررت المرأة المسلمة من تقاليد الجاهلية الأولى، وشاركت الرجال في العمل العام - مختلف ميادين العمل العام - فكان مفهوم القوامة حاضراً طوال عصر ذلك التحرير، ولم يكن عائفاً بين المرأة وبين هذا التحرير، ولحكمة إلهية قرن القرآن الكريم - في آيات القوامة - بين مساواة النساء للرجال وبين درجة القوامة التي للرجال علي النساء، بل وقدم هذه المساواة علي تلك الدرجة، عاطفاً الثانية علي الأولى بـ "واو" العطف، دلالة على المعية والاقتران؛ أي أن المساواة والقوامة صنوان مقترنان، يرتبط كل منهما بالآخر، وليسا نقيضين، حتى يتوهم واهم أن في القوامة نقيض ينتقض من المساواة؛ لحكمة إلهية جاء ذلك في القرآن الكريم، عندما قال الله سبحانه وتعالى في الحديث عن شئون الأسرة وأحكام النساء: (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (البقرة: ٢٢٨).

- وفي سورة النساء جاء البيان لهذه الدرجة التي للرجال علي النساء في سياق الحديث عن شئون الأسرة، وتوزيع العمل والأنصبة بين طرفي الميثاق الغليظ الذي قامت به الأسرة - الرجل و المرأة - فإذا بآية القوامة تأتي تالية للآيات التي تتحدث عن توزيع الأنصبة والحظوظ والحقوق بين النساء وبين الرجال، دونما غبن لطرف، أو تمييز يخل بمبدأ المساواة، وإنما وفق الجهد والكسب الذي يحصل به كل طرف ما يستحق من ثمرات (وَلَا تَمْنُنَوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيحَتَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا * الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أُنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا) (النساء: ٣٢ - ٣٤)

ولقد فقه حبر الأمة، عبد الله بن عباس [٣ ق هـ - ٦٨ هـ / ٦١٩ - ٦٨٧ م] الذي دعا له الرسول ﷺ أن يفقهه في الدين، فهم الحكمة الإلهية في اقتران المساواة بالقوامة، فقال في تفسيره لقول الله، سبحانه وتعالى: (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ) تلك العبارة الإنسانية، والحكمة الجامعة: "إنني لأتزين لامرأتي، كما تتزين لي، لهذه الآية" (١)!

- وفهم المسلمون قبل عصر التراجع الحضاري، الذي أعاد بعضاً من التقاليد الجاهلية الراكدة إلى حياة المرأة المسلمة مرة أخرى أن درجة القوامة هي رعاية ربان الأسرة - الرجل - لسفينتها، وأن هذه الرعاية هي مسئولية وعطاء.. وليست ديكتاتورية ولا استبداداً ينقص أو ينتقص من المساواة التي قرنها القرآن الكريم بهذه القوامة، بل وقدمها عليها.

- ولم يكن هذا الفهم الإسلامي لهذه القوامة مجرد تفسيرات أو استنتاجات، وإنما كان فقهاً محكوماً بمنطق القواعد القرآنية الحاكمة لمجتمع الأسرة، وعلاقة الزوج بزوجه.. فكل شئون الأسرة تدار، وكل قراراتها تتخذ بالشورى، أي بمشاركة كل أعضاء الأسرة في صنع واتخاذ هذه القرارات، لأن هؤلاء الأعضاء مؤمنون بالإسلام والشورى صفة أصلية من صفات المؤمنين والمؤمنات، في كل ميادين التدبير وصناعة القرار، والأسرة هي الميدان التأسيسي والأول في هذه الميادين.. وتجب هذه الشورى، ويلزم هذا التشاور في مجتمع الأسرة لتأسس التدابير والقرارات علي الرضا، الذي لا سبيل إليه إلا بالمشاركة الشورية في صنع القرارات.. يستوي في ذلك الصغير والخطير من هذه التدابير والقرارات.. حتى لقد شاعت الحكمة الإلهية أن ينص القرآن الكريم علي تأسيس قرار الرضاعة للأطفال - أي سقاية المستقبل وصناعة الغد - علي الرضا الذي تثمره الشورى؛ ففي سياق الآيات التي تتحدث عن حدود الله في شئون الأسرة. تلك الحدود المؤسسة علي منظومة القيم، والمعروف، والإحسان، وعدم المضارة والظلم والعدوان، في هذا السياق ينص القرآن الكريم علي أن تكون الشورى هي آلية الأسرة في صنع كل القرارات: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا

(١) شبهات وإجابات حول مكانة المرأة في الإسلام. د محمد عمارة. مرجع سابق. والأثر ذكره القرطبي في

وَلَا مَوْلُودَ لَهُ يُولَدُ لَهُ يُولَدُ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (البقرة: ٢٣٣).

هكذا فهم المسلمون معنى القوامه.. فهي مسئولية وتكاليف للرجل، مصاحبة لمساواة النساء بالرجال، وبعبارة الإمام محمد عبده: "إنها تفرض علي المرأة شيئا وعلي الرجل أشياء". فالمعصوم ﷺ الذي حمله ربه الحمل الثقيل في الدين، والدولة، والأمة، واجتمع - هو الذي كان في خدمة أهله - أزواجه - وكانت شورا هن معه وله صفة من صفات بيت النبوة، في الخاص والعام من الأمور والتدابير. ويكفي أن هذه السنة العملية قد تجسدت تحريراً للمرأة، وشاركت فيه الرجال في كل ميادين الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية.. وحتى القتال.. كما كان ﷺ دائم التأكيد علي التوصية بالنساء خيرا؛ فحريتهن حديثه العهد، وهن قريبات من عبودية التقاليد الجاهلية، واستضعافهن يحتاج إلي دوام التوصية بهن والرعاية لهن، وعنه ﷺ تروي أقرب زوجاته إليه - عائشة رضي الله عنها - عندما سئلت: ما كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ قالت: "كان بشيرا من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه" (١).

يفعل ذلك، وهو القوام علي الأمة كلها، في الدين والدولة و الدين جميعا! هكذا فهمت القوامه في عصر التزليل؛ فكانت قيادة للرجل في الأسرة، اقتضتها مؤهلاته ومسئوليته في البذل والعطاء، وهي قيادة محكومة بالمساواة و التناصر والتكافل بين الزوج وزوجه في الحقوق والواجبات ومحكومة بالشورى التي يسهم بها الجميع ويشاركون في تدبير شئون الأسرة.. هذه الأسرة التي قامت علي "الميثاق الغليظ" ميثاق الفطرة والذي تأسس علي المودة والرحمة، حتى غدت المرأة فيه السكن والسكنى لزوجه، أفضي بعضهم إلي بعض، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن، فهي بعض الرجل و الرجل بعض منها قال تعالى (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ) (آل عمران: ١٩٥).

وإذا كانت القوامه ضرورة من ضروريات النظام والتنظيم في أية وحدة من وحدات التنظيم الاجتماعي، لأن وجود القائد الذي يحسم الاختلاف والخلاف، هو مما لا يقوم النظام والانتظام إلا به. فلقد ربط القرآن هذه الدرجة في الريادة والقيادة بالمؤهلات و

بالعطاء، وليس بمجرد "الجنس" فجاء التعبير: (الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) وليس كل رجل قوام علي كل امرأة.. لأن إمكانيات القوامة معهودة في الجملة والغالب لدي الرجال، فإذا تخلفت هذه الإمكانيات عند واحد من الرجال، كان الباب مفتوحاً أمام الزوجة - إذا امتلكت من هذه المقومات أكثر مما لديه لتدير دفة الاجتماع الأسري - علي نحو ما هو حادث في بعض الحالات!.

هكذا كانت القوامة - في الفكر والتطبيق - في عصر صدر الإسلام؛ لكن الذي حدث بعد القرون الأولى وبعد الفتوحات التي أدخلت إلي المجتمع الإسلامي شعوباً لم يذهب الإسلام عادتها الجاهلية، في النظر إلي المرأة والعلاقة بها، قد أصاب النموذج الإسلامي بتراجعات وتشوهات أشاعت تلك العادات والتقاليد الجاهلية في المجتمعات الإسلامية من جديد(١).

ويكفي أن نعرف أن كلمة "عوان" التي وصف الرسول ﷺ بها النساء، في خطبة حجة الوداع، والتي تعني في لسان العرب: "النصف والوسط"؛ أي الخيار، وتعني ذات المعني في موسوعات مصطلحات الفنون. قد أصبحت تعني في عصر التراجع الحضاري: أن المرأة أسيرة لدي الرجل، وأن النساء أسري عند الرجال، وأن القوامة هي لون من "القهر" لأولئك النساء الأسيرات!! حتى وجدنا إماماً عظيماً مثل ابن القيم، يعبر عن واقع عصره - العصر المملوكي - فيقول هذا الكلام الغريب والعجيب: "إن السيد قاهر لمملوكة، حاكم عليه، مالك له. والزوج قاهر لزوجته، حاكم عليها، وهي تحت سلطانه وحكمه شبه الأسير!!"

وهو فهم لمعني القوامة، وعلاقة الزوج بزوجه، يمثل انقلاباً جذرياً علي إنجازات الإسلام في علاقة الأزواج بالزوجات!!.. انقلاباً جذرياً للعادات والتقاليد الجاهلية التي ارتدت تغالب قيم الإسلام في تحرير المرأة ومساواة النساء للرجال.

ووجدنا كذلك في - عصور التقليد والجمود الفقهي - تعريف بعض "الفقهاء" لعقد النكاح، فإذا به: "عقد تملك بضع الزوجة!!" وهو انقلاب علي المعاني القرآنية السامية لمصطلحات "الميثاق الغليظ" و"المودة.. والرحمة.. والسكن والسكينة.. وإفشاء كل طرف إلي الطرف الآخر، حتى أصبح كل منهما لباساً للآخر"..

(١) شبهات وإجابات حول مكانة المرأة في الإسلام. د محمد عمارة. مرجع سابق.

هكذا حدث الانقلاب، في عصور التراجع الحضاري لمسيرة أمة الإسلام.. ولذلك، كان من مقتضيات البعث الحضاري، الحديث والمعاصر، لنموذج الإسلام في تحرير المرأة وإنصافها، كبديل للنموذج الغربي - الذي اقتحم عالم الإسلام في ركاب الغزوة الاستعمارية الغربية لبلادنا - والذي شققت وتشقى به المرأة السوية في الغرب ذاته وكان من مقتضيات ذلك إعادة المفاهيم الإسلامية الصحيحة لمعنى قوامة الرجال علي النساء.. وهي المهمة التي نهضت بها الاجتهادات الإسلامية الحديثة والمعاصرة لأعلام علماء مدرسة الإحياء والتجديد.

- هذه الدرجة التي رفع النساء إليها لم يرفعهن إليها دين سابق ولا شريعة من الشرائع، بل لم تصل إليها أمة من الأمم قبل الإسلام ولا بعده.

لقد خاطب الله تعالى النساء بالإيمان والمعرفة والأعمال الصالحة، في العبادات والمعاملات، كما خاطب الرجال، وجعل لهن مثل ما جعل عليهن، وقرن أسماءهن بأسمائهم في آيات كثيرة، وبإيع النبي ﷺ المؤمنات كما بإيع المؤمنين، وأمرهن بتعلم الكتاب والحكمة كما أمرهم، وأجمعت الأمة علي ما مضى به الكتاب والسنة من أنهن مجزيات علي أعمالهن في الدنيا والآخرة.

وأما قوله تعالى: (وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) فهو يوجب علي المرأة شيئا، وذلك أن هذه الدرجة درجة الرياسة والقيام علي المصالح، المفسرة بقوله تعالى (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَلْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ) إن الحياة الزوجية حياة اجتماعية، ولا بد لكل اجتماع من رئيس؛ لأن المجتمعين لا بد أن تختلف آراؤهم ورغباتهم في بعض الأمور، ولا تقوم مصلحتهم إلا إذا كان لهم رئيس يرجع إلي رأيه في الخلاف، لئلا يعمل كل ضد الآخر فتفصم عروة الوحدة الجامعة ويختل النظام، والرجل أحق بالرياسة؛ لأنه أعلم بالمصلحة، وأقدر علي التنفيذ بقوته وماله، ومن ثم كان هو المطالب شرعا بحماية المرأة والنفقة عليها، وكانت هي مطالبة بطاعته في المعروف.

- إن المراد بالقيام "القوامة" هنا هو الرياسة التي يتصرف فيها المرءوس بإرادته واختياره، وليس معناه أن يكون المرءوس مقهورا مسلوب الإرادة لا يعمل عملا إلا ما يوجهه إليه رئيسه.

إن المرأة من الرجل والرجل من المرأة بمنزلة الأعضاء من بدن الشخص الواحد، فالرجل بمنزلة الرأس والمرأة بمنزلة البدن.

أما الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة في بيوتهم، فإنما يلدون عبيدا لغيرهم!

وإذا كانت عصور التراجع الحضاري - كما سبق و أشرنا - قد استبدلت بالمعاني السامية لعقد الزواج المودة، والرحمة، والسكن، والميثاق الغليظ "ذلك المعنى الغريب" عقد تمليك بضع الزوجة "١" وعقد أسر وقهرا. فلقد أعاد الاجتهاد الإسلامي الحديث والمعاصر الاعتبار إلى المعاني القرآنية السامية. بل إننا نضيف، للذين يرون في القوامة استبدادا بالمرأة وقهرا لها سواء منهم غلاة الإسلاميين الذين ينظرون للمرأة نظرة دونية، ويعطلون ملكاتها وطاقاتها بالتقاليد أو غلاة العلمانيين، الذين حسبوا ويحسبون أن هذا الفهم المغلوط هو صحيح الإسلام وحقيقته، فيطلبون تحرير المرأة بالنموذج الغربي.. بل وتحريرها من الإسلام!

أقول لهؤلاء جميعا: إن هذه الرعاية التي هي القوامة، لم يجعلها الإسلام للرجل بإطلاق.. ولم يحرم منها المرأة بإطلاق.. وإنما جعل للمرأة رعاية أي "قوامة" في الميادين التي هي فيها أبرع وبها أخبر من الرجال. ويشهد علي هذه الحقيقة نص حديث رسول الله ﷺ "كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمر الذي علي الناس راع عليهم، وهو مسئول عنهم، والرجل راع علي بيته، وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية علي بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم.. ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته" (١).

فهذه الرعاية "القوامة" هي في حقيقتها "تقسيم للعمل" تحدد الخبرة والكفاءة ميادين الاختصاص فيه. فالكل راع ومسئول، وليس فقط الرجال هم الرعاة والمسئولون وكل صاحب أو صاحبة خبرة وكفاءة هو راع وقوام أو راعية وقوامة علي ميدان من الميادين وتخصص من التخصصات. وإن تميزت رعاية الرجال وقوامتهم في الأسر والبيوت والعائلات وفقا للخبرة والإمكانات التي يتميزون بها في ميادين الكد والحماية؛ فإن لرعاية المرأة تميزا في إدارة مملكة الأسرة و في تربية الأبناء والبنات. حتى نلمح ذلك في حديث الرسول ﷺ الذي سبق إيراداه عندما جعل الرجل راعيا ومسئولا علي "أهل بيته" بينما جعل المرأة راعية ومسئولة علي "بيت بعلها وولده"؛ فهي "القوامة" توزيع العمل، تحدد الخبرة والكفاءة ميادينه... وليست قهرا ولا قسرا ولا تملكا ولا عبودية، بحال من الأحوال.. هكذا وضحت قضية القوامة.. وسقطت المعاني الزائفة و المغلوطة لآخر الشبهات التي يتعلق بها الغلاة - غلاة الإسلاميين - وغلاة العلمانيين (٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاستقراض وأداء الديون، باب العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه (٢٤٠٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ... به.

(٢) شبهات وإجابات حول مكانة المرأة في الإسلام. د محمد عمارة . ص ١٥٩ - ١٧٦ بتصرف - إصدارات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

مفهوم القوامة من وحي السنة الشريفة:

القوامة التي تبينها السنة هي الإيثار والتضحية ورعاية النساء ماديا وعلميا والغيرة الحسنة التي تؤدي إلى الحفاظ عليهن، والأخذ بأيديهن إلى طريق الرشاد والفلاح ونرى ملامح تلك القوامة وقواعدها في الأحاديث التالية:

- وعن المدائني قال: قال علي بن أبي طالب: لا يكون الرجل قيم أهله حتى لا يبالي أي ثوبه لبس ولا ما سد به فورة الجوع (١).

- عن علي رضي الله عنه قال: ألم يبلغني عن نسائكم أنهن يزاحن العلوج في الأسواق؟ ألا تغارون؟ من لم يغر فلا خير فيه (٢).

ثانياً - قضية تعدد الزوجات

إن قضية تعدد الزوجات من القضايا التي توجه لها دائما إصبع الاتهام من المشككين في عدالة الشريعة وحكمتها. ويعتبرون أن هذا إجحاف للمرأة، وهم يتناسون أن هذا التعدد له أهدافه، وفي نفس الوقت له ضوابطه التي لا تبيحه علي إطلاقه؛ أي أنه علاج لحالات اجتماعية طارئة وليس أصلا يجب تنفيذه علي الوجوب، كما أن هؤلاء الذين يعيبون علي الإسلام التعدد لا ينظرون إلي المجتمعات التي ينتشر فيها الزنا وهو أكثر وطأة علي مشاعر المرأة من التعدد المشروط بالعدل، فإذا انتفت قدرة الزواج علي هذا العدل فعليه بوحدة فقط. ويدافع فضيلة الشيخ الشعراوي رحمه الله عن الوجهة الإسلامية في تلك القضية فيقول: هناك سؤال يتبادر إلى الذهن وهو: هل الأصل في التعدد الوجوب أم الإباحة؟ بمعنى: هل الإسلام يوجب أن يتزوج الرجل بأكثر من زوجة؟ أم أنه يبيح ذلك فقط؟ والإجابة على ذلك: أن الأصل في التشريع هو الإباحة وليس الوجوب. أي أن الإسلام لا يوجب على الرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة، ولكنه يبيح له ذلك إذا رأى أن حياته محتاجة إليه.

والمقصود من التعدد ما يلي:

- ألا تبقى امرأة في المجتمع بلا زوج، حتى لا تحدث انحرافات وينتشر الانحلال والحرام؛ فالمعارك والحروب يتحملها الرجال، وحياة الرجل وسعيه للرزق يجعله يتعرض لمخاطر أكثر من المرأة؛ مما يؤدي إلى زيادة نسبة النساء في المجتمعات.

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية ٦/٣٠٦.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/١٣٣ - (العلج: الرجل القوي الفخم وكذا (يريد بالعلج) بالعلج الرجل من كفار العجم وغيرهم، والأعلاج: جمعه، ويجمع على علوج. النهاية في غريب الحديث (٣/٢٨٦). انتهى.

- ما دام الزواج للتكاثر وإنجاب النسل، فلا شك أن التعدد أحيانا يكون واجبا في حالة عقم الزوجة أو مرضها، أو دخولها سن اليأس.

- أحيانا التعدد يكون ضرورة في حالة استحالة العشرة بين الزوجين، ولكنه يبقى عليها لأنه لا عائل لها غيره. ونرى ذلك في الحديث التالي:

- عن خالد بن عريرة قال: سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: في قوله (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا) قال: هو الرجل تكون عنده امرأتان فتكون إحدهما قد عجزت أو تكون دميمة، فيريد فراقها فتصالحه على أن يكون عندها ليلة وعند الأخرى ليالي ولا يفارقها، فما طابت به نفسها فلا بأس به، فإن رجعت سوى بينهما^(١).

- وإن الذي يسمع ذلك المهجوم على تعدد الزوجات في المجتمع الإسلامي يظن أنها مسألة وبائية، ولكن الإحصائيات تقول إن المتزوجين بأكثر من واحدة لا تزيد نسبتهم على ٣٪، وهذا معناه أن هذه الضجة بما يصاحبها من تهويل، هو تصوير خاطئ وكاذب عن عمد وافتراء، هدفه تصوير المجتمع الإسلامي على غير حقيقته. ا.هـ^(٢).

رحمة الرسول ﷺ بمشاعر المرأة في حالة التعدد:

إن المتأمل بحق لإباحة تعدد الزوجات يوقن بأنه محاط بسياج منيع يكون أقرب إلى المنع منه إلا في الحالات التي تستوجب ذلك، فالشريعة التي تتفجر من ينابيع الرحمة، تحنو على مشاعر المرأة أكثر من المدعين بأنهم أنصار الدفاع عنها ونرى كيف حرص الرسول ﷺ مثلا الحرص على نفسية المرأة في حالة الزواج عليها، وذلك في الأحاديث التالية:

- عن عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة القرشي التيمي أن المسور بن مخرمة حدثه أنه سمع رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول: إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب، فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم إلا أن يحب ابن أبي

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧ / ٢٩٧).

(٢) المرأة في القرآن الكريم لففضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي. ط أخبار اليوم. مرجع سابق.

طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما ابنتي بضعة مني يربني ما رابها ويؤذيني ما آذاها^(١).

- إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلا آذن ثم لا آذن، إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما هي بضعة مني، يربيني ما يربيهها ويؤذيني ما آذاها^(٢).

- وعن المسور بن مخرمة قال: قال رسول الله ﷺ: "إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها وينصبني ما أنصبها"^(٣).

- وعن سويد بن غفلة قال: خطب علي ابنة أبي جهل إلى عمها الحارث بن هشام فاستشار النبي ﷺ، فقال: أعن حسبها تسألني؟ قال علي: قد أعلم ما حسبها، ولكن أأمرني بها؟ قال: لا، فاطمة بضعة مني ولا أحب أنما تحزن أو تجزع، فقال علي: لا آتي شيئاً تكرهه^(٤).

وفي مجال حرص الرسول ﷺ على مشاعر المرأة؛ فإنه يوصي الرجال بالنساء خيراً، فهو يأمر بالآلا يؤذين في مشاعرهن بالطلاق أو بالزواج عليهن ويضرب لهم ﷺ المثل بالرجل من أهل الكتاب الذي يتزوج المرأة صغيرة جداً (ما تعلق يداها الخيط) ويظل حريصاً عليها وفيها لها مدي الحياة.

- فعن المقدم بن معدي كرب: أن رسول الله ﷺ قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله يوصيكم بالنساء خيراً، إن الله يوصيكم بالنساء خيراً، فإنهن أمهاتكم وبناتكم وخالاتكم، إن الرجل من أهل الكتاب يتزوج المرأة وما تعلق يداها الخيط فما يرغب واحد منهما عن صاحبه^(٥).

ضوابط التعدد في الشريعة:

وضع القرآن الكريم شروطاً مهماً لهذا التعدد وهو العدل بين الزوجات، قال تعالى: (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَالْكَفُّ مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا) (النساء: ٣). وقد بين الرسول ﷺ بالمنهاج القولي والفعلية كيفية العدل بين الزوجات، وخاصة

(١) أخرجه مسلم في الفضائل، باب فضائل فاطمة بنت النبي عليه الصلاة والسلام (٢٤٤٩).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الطلاق باب الشقاق ٦١/٧.

(٣) أخرجه الترمذي كتاب المناقب باب فضل فاطمة... رقم ٣٨٦٩ وقال حسن صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٣٨٨/٦.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠ / ٢٧٤).

في التصرفات المادية الملموسة، أما الميل القلبي فيجب ألا يترجم واقعا حيا يؤدي مشاعر المرأة ويثير فيها كوامن الغيرة أو الحرمان أو الإحساس بالنقص والظلم:

فمن السنن القولية:

— قال صلى الله عليه وسلم: " إن كانت عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما، جاء يوم القيامة وشقه ساقط" (١).

ومن السنن الفعلية:

— أنه كان ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها، خرج بها معه (٢). وكان ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: " اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك" (٣). وعن جعفر عن أبيه قال: لما ثقل النبي صلى الله عليه وسلم قال: أين أكون غدا؟ قالوا: عند فلانة، قال: أين أكون بعد غد؟ قالوا: عند فلانة، فعرفن أزواجه أنه إنما يريد عائشة، فقلن: يا رسول الله قد وهبنا أيامنا لأختنا عائشة (٤). وعن سعيد بن المسيب قال: أعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم قوة بضع خمسة وأربعين رجلا، وإنه لم يكن يقيم عند امرأته يوما تاما، كان يأتي هذه الساعة ويأتي هذه الساعة، ينتقل بينهن كذلك اليوم، حتى إذا كان الليل قسم لكل امرأة منهن ليلتها (٥). وقال ﷺ لأُم سلمة عند الزواج بها: " ليس بك هوان على أهلك، إن شئت سبعت عندك، وإن سبعت لك سبعت لنسائي، وإن شئت ثلثت ثم درت" (٦). وقال ﷺ لأُم سلمة أيضا: إني لا أنقصك شيئا مما أعطيت فلانة: رحاتين وجرتين ومرفقة حشوها ليف، إن سبعت لك سبعت لنسائي (٧). وبين الإمام علي رضي الله عنه أن من دواعي العدل إكرام المرأة بمراعاة مستواها الاجتماعي وكرامتها فلا يتزوج عليها الرجل امرأة دون مستواها مما يعني الخط من شأنها وشأن أولادها: وعن علي قال: إذا تزوجت الحرة على الأمة قسم لها يومين وللأمة يوما، إن الأمة لا ينبغي لها أن تزوج على الحرة (٨).

(١) أخرجه الترمذي في السنن ٤٤٧/٣، والحاكم في المستدرک ٢/٢٠٣.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الشهادات باب تعديل النساء بعضهم بعضا وذلك من حديث طويل (٢٢٧/٣).

(٣) أخرجه الترمذي كتاب النكاح باب ما جاء في التسوية بين الضرائر رقم (١١٤٠).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٤٣٠/٧.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٥٠٧/٧.

(٦) أخرجه مسلم كتاب الرضاع باب قدر ما تستحقه رقم ٤٨.

(٧) أخرجه الحاكم في المستدرک ١٩٥/٢.

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٤٨/٤، والبيهقي في السنن الكبرى ١٧٥/٧.

الفصل الرابع

قضايا تتعلق بالكيان الشخصي للمرأة

أولاً: قضية الحجاب (الاحتشام)

يواجه الحجاب بهجوم شديد من بعض الناس حيث يتهمون الإسلام بأنه يقيد حرية المرأة وحركتها في الحياة، وهم بذلك يغفلون عن حقيقة أساس وهي أن الدوافع المحركة للمرأة ليس في ملابسها ولكن فيما تتمتع به من قدرات عقلية ونفسية وحقائق إيمانية، فالمرأة لا يعوقها مظهرها الخارجي عن الإيجابية في الحياة والمشاركة في بناء الأمة، وإنما يعوقها قصور الفهم وضعف الإرادة، وفتر الهممة، بلادة المشاعر، والسلبية.. ونعرض فيما يلي حكمة الإسلام فيما فرضه علي النساء من الاحتشام.

الفرق بين الحجاب والاحتشام:

صار موضوع الحجاب شائعاً على ألسنة الناس، ويعنون به اللباس الشرعي حيث يطلقون لفظ محجبة على المرأة المتزمة بهذا اللباس، وهو يختلف عن معنى الحجاب الوارد في القرآن والسنة. وهو ما سنحاول شرحه بإيجاز فيما يلي:

بعض الآيات القرآنية التي وردت فيها كلمة الحجاب:

قال تعالى: (إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ) (١) (ص: ٣١، ٣٢).

وقال تعالى: (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ) (فصل: ٥).

وقال تعالى: (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا) (الإسراء: ٤٥). وقال تعالى: (وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا) (مريم: ١٦، ١٧). وقال تعالى: (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُجَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا) (الأحزاب: ٥٣).

(١) الصافات: الخيل، الجياد: جمع جواد وهو السابق.. أي الخيل السبابة، توارت بالحجاب: توارت الشمس واستترت بما يحجبها عن الأبصار.

بعض الأحاديث التي وردت فيها كلمة الحجاب:

- عن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب (١).

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء عمي من الرضاعة فاستأذن عليّ فأبيت أن أذن له حتى أسأل رسول الله ﷺ.. وذلك بعد أن ضرب علينا الحجاب (وفي رواية قال: أتحتجبن مني وأنا عمك؟ وفي رواية مسلم: استأذن عليها فحجبتة فأخبرت رسول الله ﷺ فقال لها: لا تحتجبي منه (٢).

- وعن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث قال:.. فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر سبقناه (أي عبد المطلب والفضل بن العباس) إلى الحجرة، فقمنا عندها حتى جاء فأخذ بآذاننا.. فسكت طويلاً حتى أردنا أن نكلمه، وجعلت زينب تلمع إلينا (٣) من وراء الحجاب أن لا تكلمناه (٤).

- وعن أنس رضي الله عنه قال: أقام النبي ﷺ بين خير والمدينة ثلاثاً يُبني عليه بصفية بنت حبي، فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه، فقالوا: إن حجبها فهي من أمهات المؤمنين، وإن لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه، فلما ارتحل وطأ لها (٥) خلفه ومد الحجاب بينها وبين الناس (٦).

نخلص من ذلك إلى أن معنى الحجاب كما ورد في التشريع الإسلامي هو: أنه يعني شيئاً يحجز بين طرفين، فلا يرى أحدهما الآخر، أي تنعدم معه الرؤية، ولا يمكن أن يعني لباساً يلبسه إنسان؛ لأن اللباس أياً كان قدره ونوعه، لو ستر جميع بدن المرأة، حتى وجهها فلن يمنع هذه المرأة أن ترى الناس من حولها، ولن يمنع الناس أن يروا شخص المرأة، وإن تسربلت بالسواد من قمة رأسها -مع وجهها- حتى أخص قدمها. فالحجاب الوارد في قوله تعالى: (فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) هو الستر الذي يكون في البيت ويُرخي ليفصل بين مجلس الرجال ومجلس النساء.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير سورة الأحزاب (١٠/١٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب النكاح.. باب الوليمة حتى (١١/١٣٨)، ومسلم في كتاب النكاح باب زواج

زينب بنت جحش (٤/١٥٠).

(٣) تلمع إلينا: أي تشير إلينا.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة باب ترك استعمال آل النبي ﷺ على الصدقة (٣/١١٨).

(٥) وطأ لها: مهد لها.

(٦) أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب اتخاذ السراري (١١/٣٠)، ومسلم في كتاب النكاح باب إعتاقه

أمته ثم يتزوجها (٤/١٤٧).

أما ما ورد في الشريعة بشأن لباس المرأة فهو يعني الاحتشام، ويجب أن تتوفر فيه الشروط التالية:

- ١- ستر جميع البدن عدا الوجه والكفين.
 - ٢- التزام العفة فلا يكون شفافا ولا وصافا.
 - ٣- أن يكون مما تعارف عليه المسلمين ومخالفا في مجموعه لما تتميز به الكافرات.
 - ٤- أن يكون مخالفا في مجموعه للباس الرجال.
 - ٥- أن يحفظ قلب المرأة وكرامتها فلا يثير الفتنة (١).
- وهذا اللباس الشرعي للمرأة هو المقصود في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ) (الأحزاب: ٥٩).

ونرى شروط الاحتشام في الأحاديث التالية:

- عن دحية أن رسول الله ﷺ أتى بقباطي فأعطاني منه ثوبا فقال: "اصدعه صدعين: صدعا تجعله قميصا، وصدعا تختمر به امرأتك، فلما وليت قال: قل لها: تجعل تحته شيئا لا يصفها (٢).

- وعن عمر قال: إذا اشترى أحدكم جملا فليشتره عظيما طويلا، فإن أخطأه خيره لم يخطئه سوقه، ولا تلبسوا نساءكم القباطي، فإنه إن لم يشف فإنه يصف، وأصلحوا مئاويكم، وأخيفوا أهوام أن تخيفكم، فإنه لا يبدو لكم منهن مسلم (٣).

اختلاف النتائج المترتبة على كل من الحجاب واللباس:

ترتب على اختلاف مفهوم الحجاب واللباس عدة نتائج أحدثت ثغرة في البناء الفكري للمسلمين عامة، سمحت تلك الثغرة بنفاذ من يريد الطعن في الإسلام لا للبناء ولكن للهدم.. وتلك النتائج هي:

- إن الحجاب يمنع رؤية الرجال للنساء، وفي الوقت نفسه يمنع رؤية النساء للرجال.. وهذا خاص بأمهات المؤمنين زيادة في علو درجاتهن وطهارة لقلوبهن، وفي الوقت نفسه فالباب مفتوح لمن أرادت التشبه بأمهاتهن، ولها أجرها. أما اللباس الشرعي: فهو للحفاظ

(١) موسوعة "تحرير المرأة في عصر الرسالة" دراسة جامعة لنصوص القرآن الكريم وصحاحي البخاري ومسلم

للأستاذ عبد الحليم أبو شقة دار القلم للنشر والتوزيع - دبي - وهي في ستة أجزاء.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن ٦٤/٤.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٦٤/٥.

على المرأة من الفتنة، وتميزاً وتكريماً لها بستر كل ما يكون مدعاة لإثارة شهوات من في قلبه مرض، وهذا اللباس لا يمنع من رؤية الرجال حتى مع تغطية الوجه.

- إن الحجاب بمفهومه الشرعي أدب خاص بنساء النبي ﷺ في تعاملهن مع الرجال داخل البيوت، وذلك تميزاً لهن عن بقية نساء المؤمنين، وتكريماً وتشريفاً لرسول الله ﷺ، وقد جاء هذا الأدب متمماً ومكملاً لأدب آخر وهو القرار في البيوت الوارد في قوله تعالى: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) (الأحزاب: ٣٣)، والأدبان كلاهما فيه صيانة متميزة لنساء النبي ﷺ تمهيداً لتبتلن وخطر النكاح عليهن بعد الرسول ﷺ، وذلك تحقيقاً لقوله تعالى في خاتمة آية الحجاب: (وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَرْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا) (الأحزاب: ٥٣).

- إن ذلك الخلاف بين الحجاب واللباس خلق ثغرة ينفذ منها الطاعنون في دين الله ويصدقهم الغافلات، وذلك أن بعض المتبرجات يدعين أنه لا يوجد آية في القرآن تأمر النساء المسلمات بالحجاب وأن هذا الأمر خاص بنساء النبي فقط، ونحن نقول لكل من كان لها قلب وتريد اتباع الحق:

إن الحجاب المقصود به نساء النبي هو قوله تعالى: (وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ)، وهذا هو أشد أنواع الحجاب الذي يؤدي إلى الزهد والتبتل حقاً. أما اللباس الشرعي الذي يطلق عليه تجاوزاً في عصرنا الحاضر بالحجاب فقد ورد فيه أمر قرآني، للنساء المؤمنات بصفة عامة منذ عصر النبوة وحتى قيام الساعة وذلك في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَرْوَاجُكِ وَبَنَاتُكِ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) (الأحزاب: ٥٩).

وعن ضوابط سلوكيات المرأة قال تعالى: (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) (النور: ٣١).

وقد تدرت على اختلاف المفهوم بين الأوامر الخاصة بنساء النبي ﷺ والأوامر الخاصة بنساء المؤمنين عامة اختلاف كثير من الاجتهادات الفقهية بعمل المرأة ومساهمتها في الحياة، مما أدى إلى حيرة النساء وسط تلك الاختلافات أيهما تتبع وأيها تترك؟ بحيث لا تضع أمر دينها أو دنياها. ولا شك أن تلك الحيرة وتلك الخلافات الفقهية كانت من عوامل تخلف الأمة الإسلامية؛ لأنه كما يقول الشيخ الغزالي رحمه الله: إن القرآن يقطع بأن الإنسانية تطير بجناحين، الرجل والمرأة معاً، وأن

انكسار أحد الجناحين يعني التوقف والهبوط (١). ترتب كذلك على هذا اللبس في المفاهيم، اجتهد كل امرأة بنفسها لمرضاة ربها مما خلق أنواعا متعددة من اللباس الشرعي لأغطية الرأس (الحجاب - الحمار - النقاب) وتعصب كل فئة من النساء لما ترتديه والدفاع عنه بكل قوتها ونقد الباقيات، مما عرض النساء لنوع من الفرقة الاجتماعية والبعد عن الوحدة الإيمانية، التي يحتاج المسلمون إليها أشد الاحتياج لتحقيق السلام الاجتماعي والتكافل الاجتماعي وكل أنواع المشاعر والمعاني النبيلة التي تخلق جوا من المحبة والود والتآلف بين أبناء الوطن الواحد.

ويقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي عن فضل الحجاب للمرأة وللأمة بأسرها:

- إن الله سبحانه وتعالى قد وضع من القواعد والضوابط ما يمنع الفتنة للمرأة والرجل حفاظا على استقرار الأسرة وأمنها وأمانها، وحرمة أي شيء يمكن أن تكون فيه فتنة من امرأة لرجل غريب عنها، ولذلك حرم إبداء الزينة إلا لحارم المرأة، والمرأة التي تتضرر من الحجاب بزعم أنه يقيد من حريتها بستر ما أمر الله من مفاتها، عليها ألا تعترض على منح هذه الحرية لغيرها، فإن أباحت لنفسها أن تتزين وتكشف عن مفاتها، لتجذب إنسانا وتفتنه، فعليها ألا تعترض على قيام غيرها بكشف زينتها ومفاتها لتجذب زوج هذه المرأة أو ابنها.

- ولو أن الله سبحانه وتعالى لم يفرض الحجاب، لكان على المرأة أن تطالب به؛ لأنه أكبر تأمين لها ولحياتها؛ ذلك أن نضارة المرأة موقوتة، وفترة جهاها - لو حسبناها - فلن تزيد على خمسة عشر عاما، ثم بعد ذلك تبدأ في الذبول. هب أن امرأة بدأت في الذبول، وزوجها مازال محتفظا بنضارته، قادرا على الزواج، وخرج إلى الشارع، ووجد فتاة في مقتبل العمر وفي أتم نضارتها وقد كشفت عن زينتها.. ماذا سيحدث؟ إما أن يفتن بهذه الفتاة ويترك زوجته ويتزوجها، وإما أنه عندما يعود إلى المنزل ويلحظ الفرق الكبير بين امرأته وهذه الفتاة، فيزهد في زوجته، ويبدأ في الانصراف عنها. إن كل ما في الدنيا من جمال مباح للإنسان أن ينظر إليه ويتمتع بجماله، إلا المرأة، فالنظرة إليها محرمة، والنظر إليها والتأمل في جهاها من غير زوجها إثم، وكذلك نظرة المرأة للرجل، وتأملها في ملامح رجولته إثم ولذلك قال تعالى: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) (النور: ٣٠، ٣١)، وقد حرمت النظرة لأنها بداية النزوع بالنسبة للرجل والمرأة مما يقود إلى المعصية.

— إن الله سبحانه وتعالى يريد أن تعتدل الموازين في كونه، ويريد للعقل الذي ميز به الإنسان أن يعطي حرية الاختيار دون أية مؤثرات؛ حتى تستقيم الأمور، وإظهار المرأة لمفاتها يجعل الميزان يختل.. لماذا؟ لأن المرأة إذا تعمدت إغراء رجل غريب بإظهار زينتها، والكشف عن جسدها تتدخل في عمل العقل؛ لأنه في هذه الحالة قد يتخذ قراراً ويعلم أنه باطل لينال من هذه المرأة أو يرضيها، وبذلك يقضي الإنسان بغير الحق، ويختل ميزان الحكم، فالعقل هو الحكم الأساس في مسائل أمور الدنيا (١).

ثانياً: قضية ختان الإناث

كثيراً ما تشير الدعاية الخبيثة إلى وحشية الإسلام في ختان الإناث. وتعرض أفلاماً تصور العملية على أنها الإسلام. والحقيقة أن تلك القضية ليست شريعة تعبدية بل هي بالنسبة للإسلام قضية تجميلية حيث بعث الرسول ﷺ والختان عادة قديمة بين العرب، فهذه الشريعة بما يتناسب مع حضارة الإسلام وحرصه على أنوثه المرأة وجهالها وفي نفس الوقت قدرتها على الاستمتاع بالإشباع الجنسي. ونعرض قضية الختان في منهاج السنة الشريفة؛ حيث تبين الأحاديث أن الختان ليس فرضاً واجباً للنساء ولكنه مظهر من مظاهر الجمال الذي تحتاجه المرأة، وذلك من خلال الحديث التالي: عن أبي أيوب قال: قال النبي ﷺ: الختان سنة للرجال ومكرمة للنساء (٢). كما تبين الأحاديث التالية مواصفات الختان التي تحافظ على جمال المرأة وتحببها إلى الرجل؛ بحيث لا يكون في عملية التهذيب جور:

— عن الضحّاك بن قيس قال: كانت بالمدينة امرأة تخفض النساء يقال لها أم عطية فقال لها رسول الله ﷺ: اخفضي ولا تنهكي فإنه أنضر للوجه وأحظى عند الزوج (٣).

— وعن أم عطية الأنصارية: أن امرأة كانت تختن بالمدينة فقال لها النبي ﷺ: إذا اختنت فلا تنهكي، فإن ذلك أحظى للمرأة وأحب إلى البعل (٤).

كما تبين الأحاديث تدخل الدولة في حالة التعدي في الختان بما يخل بموازين الجمال وقدرة المرأة على الاستمتاع في حياتها الزوجية: فعن أبي قلابة: أن امرأة كانت تخفض الجوّاري فأعتنت، فضمنها عمر وقال: ألا أبقيت كذا (٥).

(١) المرأة في القرآن الكريم لفَضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي. ط أخبار اليوم.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٣١٧/٥، وذكره البيهقي في السنن الكبرى ٣٢٤/٨.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک ٥٢٥/٣، والطبراني في الكبير ٣٥٨/٨ - (اخفضي: الخفض للنساء كالختان للرجل. النهاية ٥٤٢/٢. ب) - (لا تنهكي: لا تبالي في استقصاء الختان. النهاية ١٣٧/٥).

(٤) أخرجه أبو داود في السنن ٣٦٨/٤.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٤٢١/٥ - (تخفض: وفي حديث أم عطية (إذا خفضت فأشفي) الخفض للنساء كالختان للرجال. أ ه ٥٤/٢) النهاية.

الباب الرابع

الدور المرتقب للمرأة في إحياء

الثقافة الإسلامية

نعرض في هذا الباب الواقع الإيجابي المشرق الذي عاشته المرأة في عصر النبوة، وكيف ساهمت في دعم أصول الثقافة الإسلامية قولاً وفعلاً في جميع المجالات، وكيف أنها اندفعت بكل ما وهبها الله من طاقات إلى إعلاء كلمة الحق في المجتمعات، فساهمت في السعي نحو المعرفة المتكاملة، وساهمت بإيجابية في الحياة الاجتماعية، وساهمت بدورها في النقد البناء الذي يصحح المفاهيم، ويرفع الظلم عن المظلومين، ويحقق الرقي الروحي والفكري في الأمة، وساهمت في عملية التنمية، وشاركت في الحياة السياسية، وبذلت غاية جهدها في الدفاع عن الأمة، سواء بالنفس أو المال، هذا علاوة على دورها في تربية الأبناء؛ لأنهم الدعامة الأساس التي يقوم عليها بنيان الأمة، وهم يعلو البنيان وتحقق الأهداف والغايات.

ونحن إذ نعرض كل هذا، نحاول أن نستنهض إرادة المرأة وعزيمتها في نهج خطوات النساء في عصر النبوة، لإحياء إشراقة الحضارة الإسلامية، بكل ما تحمله تلك الكلمة من معانٍ وقيم ومبادئ، لتحقيق للأمة ما تهدف إليه من استعادة هويتها وملامح شخصيتها، التي تميعت مع طوفان المادية واندثار المعاني الإنسانية التي تهفو إليها البشرية جمعاء.

الفصل الأول

دورها في السعي نحو المعرفة المتكاملة

إن المتبع لعصور الإسلام الأولى، ليزهله ذلك الشوق العارم للنساء لتلقي العلم من نبع النبوة العذب، لمعرفة أصول العقيدة السامية، ونهج الشريعة الراقية في كل خطوة من خطوات الحياة، وبذلك يتعرف الدارس على أسباب تحقيق الحضارة الإسلامية، بذلك الانتشار العظيم والتنوع المتميز في العلوم، في أسرع زمن وأوسع مدى، بما لم تحققه أية حضارة أخرى على مدار التاريخ (١)؛ فالنساء هن صناع الرجال، ويوم تحرص المرأة على تلقي العلم بذلك الشغف والحرص على متطلبات الشريعة الغراء، فلا بد أن تلك الهمة والعزيمة سوف تسري مع الأجيال، تلقنهم حب العلم والسعي الحثيث لتلقيه ونشره، وتشحذ عزائمهم نحو مدارج العلا والرفي الحقيقي.. والذين يصمون الشريعة بأنها السبب وراء تخلف المرأة المسلمة يقعون في خطأ كبير؛ لأنهم يحكمون على الشريعة من واقع المرأة المعاصر حيث فرطت كثير من النساء في تلك الملكة الغالية من السعي نحو المعرفة الحققة والاعتراف من ينابيع الشريعة العذبة، والتفتت النساء إلى علوم المدنية الحديثة التي ينقصها ارتواء الروح وصقل الجوارح والوجدان.

النساء يطالبن الرسول ﷺ بمزيد من فرص التعليم:

تسجل السنة الشريفة شغف النساء وحرصهن على تلقي العلم في أحاديث متعددة نختار منها هذا الحديث: عن أبي سعيد الخدري قال: قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال لهن: "ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجابا من النار"، فقالت امرأة: واثنين؟ فقال: واثنين (٢).

قال الحافظ ابن حنبل: (وفي الحديث ما كان عليه نساء الصحابة من الحرص على تعلم أمور الدين) (٣).

(١) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى: الإسلام والقوى الدولية. د. حامد ربيع. دار الموقف العربي؛ حيث يبين أن الحضارة الإسلامية بلغت أقصى مدى لها خلال قرن من الزمان، في حين أن الحضارة الرومانية رغم سلاحها وعنادها لم تستطع أن تصل إلى نفس الاتساع الذي وصلت إليه حضارة الإسلام التي استغرقت في امتدادها ما يقرب من قرنين من الزمان.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم (١٠٢) عن أبي سعيد الخدري... به.

(٣) فتح الباري ١/٢٠٧.

حقاً إنه حرص بالغ من النساء؛ لم يكتفين بمشاركة الرجال في سماع أحاديث الرسول ﷺ فأردن أن يكون لهن حديث خاص بهن، ثم إنه تقرير من الرسول ﷺ لهن على هذا الحرص، واستجابة كريمة وسريعة لمطلب النساء.

ونعرض فيما يلي نماذج من أحاديث تبين دور نساء بيت النبوة، وعامة نساء المؤمنين في السعي نحو المعرفة المتكاملة، وتلك الأحاديث هي قبس مما تفيض به السنة الشريفة:

السيدة عائشة تسأل الرسول ﷺ عن دقائق معاني القرآن لتستزيد من العلم النافع: - فقد ورد عنها أنها سألت النبي ﷺ عن هذه الآية (مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ) قال: يا عائشة ذلك مثابة الله العبد بما يصيبه من الحمى والكبر والبضاعة يضعها في كفه فيفزع لها فيجد في كفه حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر من الكير (١).

- وقال ﷺ: أما علمت يا عائشة أن المؤمن تصيبه النكبة والشوكة فيكافأ بأسوء عمله، ومن حوسب عذب، قالت أليس الله يقول: (فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيرًا) قال: ذلکم العرض يا عائشة من نوقش الحساب عذب (٢).

والسيدة فاطمة رضي الله عنها تتشوق إلى تعلم أصول الذكر من نبع النبوة العذب لتزداد قرباً من الله:

- قال ﷺ لفاطمة رضي الله عنها: "ألا أعلمك بأكثر مما سبحت به؟ فقلت بلى علمني فقال: قولي: سبحان الله عدد خلقه" (٣).

أمرأة مسلمة تفخر باستقائها سورة من سور القرآن من الرسول ﷺ نفسه وهو المعلم الأكبر للبشرية:

- عن أم هاشم قالت ما أخذت (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) إلا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يقرأها على الناس في كل يوم جمعة إذا خُطبهم (٤).

وبلغ من حرص السيدة عائشة على المعرفة أنها كانت تلاحظ خلجات الرسول ﷺ وكلماته وتساءل عنها:

(١) أخرجه الترمذي في السنن ٢٢١/٥، وأبو يعلى في مسنده ٣٣٦/٨.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن ١٨٤/٣.

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٥٤)، والمنذري في الترغيب ٤٣٩/٢.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٤٥٠/١.

- روي عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكا حتى أرى منه لهواته؛ إنما كان يتبسم قالت: وكان إذا رأى غيما أو ريحا عرف في وجهه، قالت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية فقال: "يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا: (هذا عارض ممطرنا)" (١).

- وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرنني في زمرة المساكين يوم القيامة، فقالت عائشة: لم يا رسول الله قال: إنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفا، يا عائشة لا ترددي المساكين ولو بشق تمره يا عائشة أحبي المساكين وقربهم فإن الله يقربك يوم القيامة (٢).

- وعن عائشة قالت: أتى رسول الله ﷺ رجل فقال: أقبل في رمضان؟ قال: نعم، ثم أتاه آخر فقال: أقبل في رمضان؟ قال: لا، فقلت يا رسول الله أذنت لذلك ومنعت هذا، قال: إن الذي أذنت له شيخ كبير يملك إربه، والذي منعت رجلا شاب لا يملك إربه فلذلك منعت (٣).

وتسأل السيدة عائشة الرسول ﷺ عن مات في الجاهلية وكان يتحلى بمكارم الأخلاق هل ينفعه ذلك؛ فيعلمنا رد النبي الأمين ﷺ أن صدق التوجه إلى الله ضروري لقبول الأعمال:

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله بن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعه؟ قال: لا ينفعه؛ إنه لم يقل يوما: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين (٤).

كما تسأل السيدة عائشة عن يوم الحشر وتستنكر كيف يحشر الناس حفاة عراة ينظر بعضهم إلى بعض؛ فيخبرها الرسول ﷺ أن الأمر أشد من ذلك:

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن، باب قوله فلما رأوه عارضا مستقبلا أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو

ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم (٤٨٢٩) عن عائشة رضي الله عنها: ... به، ومسلم في الاستسقاء (١٦).

(٢) رواه الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء: إن فقراء المهاجرين رقم (٢٣٥٢) وقال: هذا حديث غريب.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢٣٢/٤.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل (٢١٤) عن

عائشة قالت: ... به.

- وعن عائشة أيضاً قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً"، قالت عائشة: يا رسول الله! الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض! قال: "يا عائشة! الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض" (١).
وتسأل السيدة عائشة عن تفسير رؤياها مما جعلها ينبوع من ينابيع العلم الذي يستقي منه كبار الصحابة فيما بعد:

- فعن أبي بكرة أن عائشة قالت: يا نبي الله! رأيت كأن ثلاثة أقمار هوين في حجرتي، قال: "إن صدقت رؤياك دفن في بيتك أفضل أهل الجنة" (٢).
وهناك نماذج متعددة من عامة نساء المؤمنات يسألن عما يواجههن من أحداث الحياة؛ حرصاً على معاشة الشريعة منهاجاً وتطبيقاً؛ فهاهي امرأة تسأل عما يواجهها من نجاسة في طريقها إلى المسجد وكيف تتصرف لتحافظ على طهارة ثوبها:

- روي عن موسى بن عبد الله بن يزيد عن امرأة من بني عبد الأشهل أنها سألت النبي ﷺ أن يبيّن وبين المسجد طريقاً قدراً قال: فبعدها طريق أنظف منها؟ قالت: نعم قال: هذه بهذه (٣). وها هي أم سليم تسأل في أدق الأمور الشخصية ولم يمنعها الحياء أن تتكلم بمطلق الحرية لتستفقه في أمور دينها ودنياها:

- روي عن عبد الرحمن ومجاهد وعطاء قالوا: دخلت أم سليم على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ترى في منامها كما يرى الرجل أفيجب عليها الغسل؟ قال: هل تجد شهوة؟ قالت: لعله قال: وهل تجد بللاً؟ قالت: لعله قال: فلتغتسل، فلقبها نسوة فقلن لها: يا أم سليم فضححتنا عند رسول الله ﷺ. قالت: ما كنت أنتهي حتى أعلم أي حلال أنا أم في حرام (٤).

النساء يسألن عن أمور الطهارة من الحيض؛ حرصاً على صلاتهن في طهر واطمئنان:
- عن أم سلمة أنها سألت النبي ﷺ فقالت: إني امرأة شديدة ضفر الرأس فكيف أصنع إذا اغتسلت؟ قال: "احفني على رأسك ثلاثاً، ثم اغمري على إثر كل حفنة غمرة" (٥).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظه وسنده كتاب اللجنة رقم ٢٨٥٩.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ٦٣/٣، والطبرانی في الكبير ٤٨/٢٣.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٣٨٨/١، وابن أبي شيبة في مصنفه ٥٩/١.

(٤) أخرجه الدارمي في السنن ٢١٥/١.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧٣/١.

- وعن عائشة أن أسماء بنت شكل، سألت النبي ﷺ عن غسل المخيض فقال: "تأخذ إحداكن ماءها وسدرتها فتطهر فتحسن الطهور، ثم تصب على رأسها فتدلكه دلكا شديدا حتى تبلغ شئون رأسها ثم تصب عليها الماء ثم تأخذ فرصة ممسكة فتطهر بها" فقال أسماء: وكيف تطهر بها فقال: سبحان الله تطهرين بها" فقالت عائشة: "كأنها تخفي ذلك: تتبعين أثر الدم". وسألته عن غسل الجنابة فقال: تأخذ ماء فتطهر فتحسن الطهور، أو تبلغ الطهور ثم تصب على رأسها فتدلكه حتى تبلغ شئون رأسها ثم تفيض عليها الماء فقالت عائشة: نعم النساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين^(١).

- وعن عائشة قالت: جاءت فاطمة بنت أبي حبيش إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إني امرأة أستحاض فلا أطهر فأدع الصلاة؟ قال: لا إنما ذلك عرق وليس بالحيضة اجتنب الصلاة أيام حيضتك ثم اغتسلي وتوضأي لكل صلاة، ثم صلي وإن قطر الدم على الحصى^(٢).

النساء يسألن عن إمكانية التزين في فترة العدة؛ فيرفض النبي ﷺ ويبين كيف لا كانت فترة الحداد قاسية في الجاهلية، وكيف أن شريعة الإسلام انتشلت المرأة من قسوة تلك الأحكام الجائرة:

- عن أم سلمة قالت: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن ابنتي توفي زوجها وقد اشتكت عينها أفأكحلها؟ قال: لا مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول: لا ثم قال: إنما هي أربعة أشهر وعشرا، وقد كانت إحداكن ترمي بالبعرة على رأس الحول^(٣).
- ونرى سبعة بنت الحارث الأسلمية تعرف كيف تتحرى لتصل إلى اليقين:

- ... روى أنها كانت تحت سعد بن خولة، وهو من بني عامر بن لؤي وكان ممن شهد بدرا فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته. فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك - رجل من بني عبد الدار - فقال لها: مالي أراك تجملت للخطاب، ترجين النكاح؟ فإنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر. قال سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت على ثيابي

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحيض (٣٣٢) عن إبراهيم بن المهاجر قال: سمعت صفية تحدث عن عائشة: أن

أسماء سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن غسل الخيض فقال: ... به.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٩١/١، والحاكم في المستدرک ٦٢/٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٠٤٢/٥، ومسلم في صحيحه ١١٢٤/٢.

حين أمسيت وأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت هلمي وأمرني بالتزوج إن بدا لي^(١).

قال الحافظ ابن حجر: وفي قصة سبيعة من الفوائد ما كان في سبيعة من الشهامة والفتنة حيث ترددت فيما أفتاها به حتى حملها ذلك على استيضاح الحكم من الشارع، وهكذا ينبغي لمن ارتاب في فتوى المفتي أو الحاكم في مواضع الاجتهاد أن يبحث عن النص في تلك المسألة. وفيها من الفوائد أيضا... مباشرة المرأة السؤال عما يترل بها ولو كان مما يستحي النساء من مثله^(٢).

وبلغ من حرص النساء على العلم أمهن يسألن عن بيت المقدس؛ فيخبرهن الرسول ﷺ عن أهميته الدينية ويدعوهن الرسول ﷺ إلى زيارته والصلاة فيه؛ أي أن المرأة المسلمة عرفت السياحة الروحية والجسدية منذ عصر النبوة، وهذا دليل من دلائل كثيرة على ما وصلت إليه من حرية:

روي عن ميمونة مولاة النبي ﷺ أنها قالت: أنبئنا يا رسول الله عن بيت المقدس، قال: "أرض الحشيش والمنشراثتوه فصلوا فيه، فإن صلاة فيه كآلف صلاة فيما سواه"، قالت: "أرأيت إن لم نطق نأته؟ قال: فمن لم يطق ذلك فليهد إليه زيتا يسرج فيه، فمن أهدى إليه كمن صلى فيه"^(٣).

وشغل الموت والقبور أذهان النساء لركة العاطفة في قلوبهن؛ فكان يسألن عن أحوال الموتى لزيادة اليقين والعلم بأحوال الدار الآخرة التي لا تقل أهمية عن دار الدنيا:

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي (٣٩٩١) عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: أن أباه كتب إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على سبيعة بنت الحارث الأسلمية فيسألها عن حديثها وعما قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته، فكتب عمر بن عبد الله بن الأرقم إلى عبد الله بن عتبة يخبره أن سبيعة بنت الحارث أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خولة وهو من بني عامر بن لؤي وكان ممن شهد بدرًا، فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته فلما تعلت من نفاسها... به.

(٢) فتح الباري ٤٠١/١١، ٤٠٢.

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن ٤٥١/١، وأبو داود في السنن ١٢٥/١، والإمام أحمد في مسنده ٤٦٣/٦.

- وعن أم بشر بن البراء أنها قالت: يا رسول الله! هل يتعارف الموتى؟ قال: "تربت يداك! إن النفس المطمئنة طير خضر في الجنة، فإن كان الطير يتعارفون في رؤوس الشجر فإنهم يتعارفون" (١).

- وعن أم الدرداء أن أبا الدرداء كان إذا رأى الميت قد مات على حالة صالحة قال: هنيئا له، ليتني مثلك! فقالت أم الدرداء له: لم تقول ذلك؟ فقال: هل تعلمين أن الرجل يصبح مؤمنا ويمسي منافقا؟ قالت: وكيف؟ قال: يسلب إيمانه ولا يشعر، لأننا بجهلنا بالموت أغبط مني لهذا بالبقاء في الصلاة والصيام (٢).

- وعن جابر عن أم مبشر قالت: دخل علي النبي ﷺ وأنا في حائط من حوائط بني النجار فيه قبور منهم قد ماتوا في الجاهلية فخرج فسمعتة وهو يقول: "استعينوا بالله من عذاب القبر، قلت: يا رسول الله! للقبر عذاب؟ فقال: إنهم ليعذبون في قبورهم عذابا تسمعه البهائم" (٣).

- وعن بلال قال: قالت سودة: يا رسول الله! مات فلان فاستراح، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما استراح من غفر له (٤).

- وعن أنس أن أم حبيبة قالت: يا رسول الله! المرأة يكون لها في الدنيا زوجان لأيهما تكون في الجنة؟ قال: "تخير فتختار أحسنهما خلقا كان معها في الدنيا، فيكون زوجها في الجنة يا أم حبيبة! ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة" (٥).

- ونرى المرأة الخثعمية - وهي جارية شابة - يشغلها معرفة حكم الحج عن أبيها: - عن عبد الله بن عباس قال: أردف النبي ﷺ الفضل بن عباس يوم النحر خلفه على عجز راحلته... وأقبلت امرأة من خثعم وضيئة تستفتي رسول الله ﷺ... فقالت: يا رسول

(١) أخرجه مسلم في الرضاع (٤، ٨) والزيدي في الإنحاف ١٠/٣٨٧.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ١٣/٢٩٧، والطبراني في الأوسط ٥/٢٩.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٣/٥١.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط ٩/١٤٨.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٣/٢٢٢، والمنذري في الترغيب والترهيب ٣/٢٧٦.

الله: إن فريضة الله في الحج على عباده أدركت أبي شيخا كبيرا لا يستطيع أن يستوي على الرحلة، فهل يقضي عنه أن أحج عنه؟ قال: "نعم" (١).

وهكذا فإن هذه نماذج سريعة لدور النساء المؤمنات في عصر النبوة في الحرص الشديد على السعي بشوق وفاعلية نحو المعرفة المتكاملة من ينابيعها النورانية، مما ندعو إليه المرأة المسلمة في عصرنا الحاضر لتساهم بدورها في يقظة الحضارة الإسلامية وتحطيم القيود والأغلال التي تقيد حركتها في ارتقاء الأمة نتيجة ما ران على الفكر الإسلامي من ظلمات الجهل بأهداف الشرع الحكيم، في إيقاظ ملكات الإنسان الفكرية رجلا كان أو امرأة؛ لينطلق في الكون يستنطق أسرارهِ، ويشيع مبادئ الحق والعدل والرحمة التي تتشوق إليها وتشقى بفقدانها.

والمرأة لها دور كبير في هذا المجال لما تتمتع به من طاقات روحية خلاقة أودعها الله فيها؛ لتقوم بأشرف مهمة في الوجود وهي رعاية الإنسان وإحاطته بكل معاني الحب والحنان، وتلقينه مبادئ الحق والعدل.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان (٦٢٨٢) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: أردف رسول الله ﷺ الفضل بن عباس يوم النحر خلفه على عجز راحلته وكان الفضل رجلا وضينا فوقف النبي ﷺ للناس يفتيهم، وأقبلت امرأة من خثعم وضينة تستقي: ... به.

الفصل الثاني

دور المرأة في إثراء الفكر الإسلامي

قامت المرأة في عصر النبوة بدور فعال في تصحيح المفاهيم الإيمانية، ووضع الخطوط العريضة لسنة الرسول ﷺ، بما يسدّد خطى المؤمنين على النهج القويم الذي يرتقي بالأمّة في جميع مجالات حياتها.

وإن الدارس للدور أمهات المؤمنين في إثراء الفكر الإسلامي ليذهله قوة المرأة المؤمنة في ذلك العصر، وقدرتها على مخاطبة الرجال بروح الإيمان الراقية التي تهدف إلى بيان مراد الحق من الخلق على لسان رسوله الأمين المبعوث رحمة للعالمين ﷺ، كما يذهله تواضع الرجال وهم الصحابة العظام أمام نساء النبي رغبة فيما عندهن من أسمى درجات العلم. ولم يقدّم بهذا الدور العظيم أمهات المؤمنين فقط، بل ساهمت كل امرأة راية في نشر راية العلم في المجال الذي تعرفه بكل أمانة وإخلاص.

وقال الحافظ الذهبي: لم يؤثر عن امرأة أنها كذبت في الحديث^(١).

وقال الشوكاني: لم ينقل عن أحد من العلماء بأنه ردّ خبر امرأة لكونها امرأة.. فكّم من سنة قد تلقّتها الأمّة بالقبول من امرأة واحدة من الصحابات وهذا لا ينكره من له أدنى نصيب من علم السنة^(٢).

ونعرض فيما يلي جانباً من الأحاديث التي تلقّي الضوء على مساهمة المرأة في إثراء الفكر الإسلامي، وهو جانب بسيط لا يمثل الكم الكبير من الأحاديث التي ساهمت في روايتها، ولكننا نعتبره مؤشراً على الدور الفعال للمرأة في إثراء الفكر الإسلامي، مما يكون حافظاً لنساء هذا العصر على استلھام خطاهن ومتابعة جهادهن في بيان مفهوم تلك الأحاديث بروح العصر، كل في مجاها وتخصّصها العلمي، بما يحقق إحياء الثقافة الإسلامية لزيادة رصيد الأمّة الفكري، بما يحقق انطلاقها على مبادئ راسخة تحقّق الأمن والتقدم لشعوبها وشعوب العالم أجمع الذي أمّكته الصراعات المادية، والتجرد من المبادئ الإنسانية.

(١) مقدمة الميزان للذهبي. بتحقيق أبي الفضل إبراهيم - دار الكتب العلمية - ١٩٩٥.

(٢) نيل الأوطار، ج ٨ ص ١٢٢ - دار الجيل - ١٩٧٣.

دور المرأة في الفتوى بصفة عامة

يستنكر البعض في عصرنا الحاضر هذا الانتشار لدور المرأة في الفتوى وخاصة في وسائل الإعلام والقضائيات، والحقيقة أن الإسلام لا يمنع من قيام المرأة بهذا الدور بشرط أن تملك المرأة المقدرة العلمية التي تؤهلها لتلك الأمانة الجسيمة، ولنا في أمهات المؤمنين الأسوة الحسنة، حيث استقين العلم من نبع النبوة الفياض بشغف وشوق كما رأينا فيما سبق، وكذلك تميزن بالفهم العميق والتواضع اللذان يؤهلان للقيام بهذه المهمة خير قيام؛ فعلي المرأة في عصرنا الحاضر إذا أرادت أن تتصدر للفتوى أن تتسلح بالعلم؛ لتكون أهلاً لتلك المهمة الجليلة التي لا ينكرها الشرع.

ونحن نري الصحابة في الحديث التالي يحرصون علي سؤال أمهات المؤمنين لثقتهم في العلم العظيم الذي حصلن عليه من مصادره الأصلية، ويستبعدون أن يسألوا أحداً غيرهن:

— فعن عبد الله بن شداد بن الهاد قال: قال أبو هريرة: الوضوء مما مست النار فقال مروان: كيف يسأل أحد وفينا أزواج نبينا ﷺ وأمهاتنا فأرسلني إلى أم سلمة فسألته فقالت: أتاني رسول الله ﷺ وقد توضأ فناولته عرقاً أو كتفا فأكل ثم قام إلى الصلاة ولم يتوضأ (١).

ونجد كثيراً من الأحاديث تذكر دور المرأة في الفتوى نذكر منها ذلك الحديث الذي يبين أن السيدة عائشة كانت تفقي بتحريم الرضاع بعد الفصال حتى انتقلت إلى الرفيق الأعلى، ومعناه استمراريتها على القيام بدور الفتوى طوال حياتها:

— عن عائشة قالت: جاءت سهلة بنت سهيل بن عمرو إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إن سالماً كان يدعى لأبي حذيفة، وإن الله تعالى قد أنزل في كتابه (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ) وكان يدخل علي وأنا فضل ونحن في منزل ضيق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أرضعي سالماً تحرمي عليه، قال الزهري: وقال بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم: لا ندري لعل هذه كانت رخصة لسالم خاصة، قال الزهري: وكانت عائشة تفقي بأنه يحرم الرضاع بعد الفصال حتى ماتت (٢).

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١/١٦٦.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٧/٤٦٩ - (فضل: أي متبدلة في ثياب مهنّي. النهاية ٣/٤٥٦).

كما نجد ارتفاع مكانة المرأة في هذا المجال، وثقة الرجال في رأيها إذا شكوا في رأي رجل منهم مما نراه في الحديث التالي:

- عن خالد بن معدان عن عبد الله بن بسر أنه سمع أباه يقول: إن النبي ﷺ هي عن صيام يوم السبت وقال: إن لم يجد أحدكم إلا لحاء الشجرة فلا يصوم يومئذ وقال ابن بسر: إذا شككتم فسلوا أختي، فمشى إليها خالد بن معدان فسألها عما ذكر عبد الله فحدثت بذلك (١).

على أن قيام المرأة بهذا الدور لم يمنعها من التواضع وتقدير أهل العلم، حتى لو كانت تلك المرأة هي أقرب الزوجات إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأكثرهن اغترافاً من معينه العذب وهي السيدة عائشة رضي الله عنها ونرى ذلك في الحديث التالي:

- عن جيرة بنت دجاجة قالت: قيل لعائشة: إن علياً أمر بصيام يوم عاشوراء قالت: هو أعلم من بقي بالسنة (٢).

إن مجالات الفتوى التي أثرت بها المرأة الفكر الإسلامي من الكثرة بمكان حيث أوضحت الحقائق، وأزلت ما علق في الأذهان من لبس في فهم أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم وبينت للمسلمين أحكام الدين، وهذا الدور مفتوح أمام المرأة إلى يوم القيامة حيث تختلف التحديات التي يواجهها المسلمون في كل عصر، والمرأة في عصرنا الحاضر تتلقى العلم في شتى المجالات، وعليها المشاركة في إحياء الفكر الإسلامي بما يتناسب مع لغة العصر، وهي بهذا تساهم في إثراء فلسفة الأمة، بل الإنسانية جمعاء؛ لأن الأمة تملك رصيда ضخما من قواعد الأخلاق والمعاملات، ونعرض فيما يلي قبسا من دور المرأة في إثراء الفكر الإسلامي:

دور المرأة في توضيح أحكام الفقه

سيظل هذا الدور دوماً يحتاج إلى من يقوم به، وهو ما يسمى في عصرنا الحاضر تجديد لغة الخطاب الديني حيث تجدد قضايا فقهية نتيجة التغيرات العصرية، تحتاج إلى من يقوم بتوضيحها من أصول التشريع الإسلامي. ونعرض نماذج لدور المرأة في هذا المجال من نبع الحديث الشريف.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ٦٠١/١، وأبو داود في السنن ٣٢٠/٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٧٠٤/٢، وابن حبان في صحيحه ٣٨٩/٨.

فبالنسبة لتفسير المعاني الإيمانية:

- عن عطاء أنه جاء عائشة مع عبيد بن عمير، فقال عبيد: أي أم المؤمنين، ما قول الله عز وجل (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ) قالت هو الرجل يقول: لا والله، وبلى والله، قال: فمتى الهجرة؟ قالت لا هجرة بعد الفتح، إنما كانت الهجرة قبل الفتح، حين يهاجر الرجل بدينه إلى رسول الله ﷺ، فأما حين كان الفتح فحيث ما شاء رجل عبد الله لا يضيع (١).

- وبالنسبة لتجدد الأحكام الفقهية:

فهي الرسول صلي الله عليه وسلم عن تخزين لحوم الأضاحي في وقت ندرة الموارد الاقتصادية واحتياج الوافدين إلى المدينة لتلك اللحوم مما يعني ضرورة توفير الغذاء لهم بعد ذلك بالتخزين في حالة توفر اللحوم من الغنائم في الغزوات.

وكان للمرأة دور في بيان ما تجدد من حكم في هذا الموضوع، وهذا الدور نحتاج أن نقوم به المرأة حالياً، في استنباط الأحكام بما يتناسب مع الظروف التي تمر بها الأمة:

- عن يزيد بن أبي حبيب قال: سألت عائشة عن لحوم الأضاحي، فقالت: لقد كان رسول الله ﷺ يهيئها، ثم رخص فيها، قدم علي بن أبي طالب من سفر فأتته امرأته فاطمة بلحم من ضحاياها، فقال: أو لم ينه عنها رسول الله ﷺ؟ قالت: إنه رخص فيها فدخل علي على رسول الله ﷺ فسأله عن ذلك، فقال له: كلها من ذي الحجة إلى ذي الحجة (٢).

دور المرأة في توضيح الحقائق

هناك أحاديث يساء فهمها، وبالتالي يترتب عليها نظرة خاصة للإسلام؛ مثل أنه ينتقص من حقوق المرأة أو غير ذلك من الاتهامات، وقد قامت المرأة في عصر النبوة بدور فعال في إزالة ذلك اللبس من الأفهام، فاتحة الطريق لمن بعدها في السير على الدرب بما يزيل جميع الشبهات، ويعلي كلمة الحق في كل المجالات.

وفي حالة الحكم الخاطئ على ولد الزنا بينت السيدة عائشة أنه لا ذنب عليه في خطأ أبويه:

- روي عنها أنها كانت إذا قيل لها: ولد الزنا شر الثلاثة عابت ذلك وقالت: ما عليه من وزر أبويه؛ قال الله تعالى: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) (٣).

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٤٧٤/٨، وأبو يعلى في مسنده ٣٩٩/١٠.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٨٢/٦، وابن حجر في الفتح ٢٨/١٠.

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن ٦٥٥/١، وعبد الرزاق في مصنفه ٤٥٤/٧.

وفي حالة الفهم الخاطئ لحديث الرسول ﷺ الذي يسيء إلى مكانة المرأة قامت السيدة عائشة أيضاً ببيان المقصود من قول النبي ﷺ:

- وعن أبي حسان قال: قيل لعائشة: إن رسول الله ﷺ قال: الطيرة في المرأة والفرس والدار فقالت: ما قاله إنما قال: كان أهل الجاهلية يتطيرون من ذلك (١).
وفي حالة خوف النساء من تناول الطعام الذي أكلت منه القطعة خوفاً من النجاسة؛ وضعت السيدة عائشة يدها في المكان الذي أكلت منه الهرة وتناولته في فمها لتضرب لهم المثل أنه ليس نجساً:

- فعن مولى للأنصار أن جدته أخبرته أن مولاتها أرسلتها بجشيش أو أرز إلى عائشة فهديه فجاءت به وعائشة تصلي فوضعت يدها منه هرة فأكلت منه وعند عائشة نساء فلما انصرفت دعت به فرأت النساء يتوقين المكان الذي أكلت منه الهرة، فوضعت عائشة يدها في المكان الذي أكلت منه الهرة وقالت: ليست بنجس (٢).

وفي حالة سوء الفهم الذي شاع حول الوضوء مما مست النار حيث اعتبر المسلمون أن تلك من نواقص الوضوء فاقت أمهات المؤمنين في أحاديث كثيرة بإجلاء الحقيقة وبيان أن الرسول صلى الله عليه وسلم أكل جميع أنواع اللحوم وقام للصلاة بدون أن يتوضأ نذكر من ذلك الأحاديث التالية:

- عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل الهاشمي قال: حدثني صفية قالت: دخل علي رسول الله ﷺ فقربت له كتفا باردة فكنت أسحاه، فأكلها ثم قام فصلى (٣).
- وعن عبد الله بن شداد بن الهاد قال: قال أبو هريرة: الوضوء مما مست النار فقال مروان: كيف يسأل أحد وفينا أزواج نبينا ﷺ وأمهاتنا فأرسلني إلى أم سلمة فسألتها فقالت: أتاني رسول الله ﷺ وقد توضأ فتناولته عرقاً أو كتفا فأكل ثم قام إلى الصلاة ولم يتوضأ (٤).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ٥٢١/٢.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٠١/١ - (بجشيش: وفي الحديث (أولم رسول الله ﷺ على بعض أزواجه بجشيشة) هي أن تطحن الحنطة طحناً جليلاً، ثم تجعل في القدور ويلقى عليها لحم أو تمر وتطبخ، وقد يقال لها دشيشة بالدال. أ هـ النهاية ٢٧٣/١).

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده ٣٣/١٣ - (أسحاه: في حديث أم حكيم (أنته بكتف تسحاه) أي تقشرها وتكشط عنها اللحم. انتهى. النهاية. ٣٤٨/٢).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٦٦/١.

وفي حالة اللبس الذي حدث في الركعتين اللتين صلاهما الرسول ﷺ بعد العصر (مع فهمه عن ذلك) قامت أم سلمة بتوضيح الهدف من ذلك والحديث التالي يبين ما حصلت عليه المرأة في عصر النبوة من سيادة، حيث كان يحتكم الرجال إلى رأيها:

- عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: قدم معاوية المدينة فقال: قم يا كثير بن الصلت إلى أم المؤمنين فاسألها عن الركعتين بعد العصر، فقال أبو سلمة فقمتم معه وأرسل ابن عباس عبد الله بن الحارث فأتيا عائشة، فقالت: لا أدري أسألوا أم سلمة، فأتينا أم سلمة فقالت: دخل رسول الله ﷺ يوما فصلى ركعتين بعد العصر، لم أكن أراه يصليهما، فقلت يا رسول الله ما هاتان الركعتان؟ قال: "قدم وفد من بني تميم أو قال: قدمت صدقة وكنت أصلي ركعتين بعد الظهر فلم أكن صليتهما فهما هاتان" (١).

في حالة اختلاف الرأي على إمكانية الصوم قبل الاغتسال من الجنابة أو الاحتلام؛ قامت السيدة عائشة بتوضيح القول الفصل في تلك القضية: عن عمر بن أبي بكر بن عبد الرحمن عن أبيه عن جده أن عائشة أخبرته أن النبي ﷺ كان يخرج إلى الصبح ورأسه يقطر ماء نكاحا من غير احتلام، ثم يصبح صائما. فذكر ذلك عبد الرحمن لمروان فقال مروان: أقسمت عليك إلا ذهبت إلى أبي هريرة فحدثته هذا، وكان أبو هريرة يقول: من احتلم من الليل أو وقع ثم أدركه الصبح فاغتسل فلا يصوم، فذهب عبد الرحمن فأخبره ذلك قال أبو هريرة: فهي أعلم برسول الله ﷺ منا إنما كان أسامة بن زيد حدثني بذلك (٢).

دور المرأة في توضيح أصول العبادات

قامت أمهات المؤمنين بتوضيح أصول العبادات من صلاة ودعاء وصيام من هج النبوة، ضارين المثل للنساء علي مدي العصور، بالاستقاء من سنة المصطفى صلي الله عليه وسلم لتوضيح أصول العبادات للمسلمين بما يحقق لهم الارتقاء الروحي. ويحقق لهم خيري الدنيا والآخرة. ونعرض فيما يلي بعض الأحاديث التي تبين الدور القيادي للمرأة في عصر النبوة في توضيح أصول العبادات.

بالنسبة للصلاة:

- عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: ما أخبرني أحد أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي الضحى إلا أم هانئ فإنما حدثت أن النبي ﷺ دخل بيتها يوم فتح مكة فاغتسل فصلى ثمان ركعات ما رأيته صلى صلاة أخف منها، غير أنه كان يتم الركوع والسجود (٣).

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٤٣١/٢.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٧٨/٢، والطبراني في الأوسط ٢٣٣/٤.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٣٧/٢٣، وابن خزيمة في صحيحه ٦٦/١.

- وعن عائشة أنها سألتها رجل هل كان رسول الله ﷺ يرفع صوته من الليل إذا قرأ قالت نعم ربما خفض وربما رفع قال: الحمد لله الذي جعل في الدين سعة، قال: فهل كان يوتر من أول الليل؟ قالت: ربما أوتر من أول الليل، وربما أوتر من آخره، قال: الحمد لله الذي جعل في الدين سعة، قال: فهل كان ينام وهو جنب؟ قالت: ربما اغتسل قبل أن ينام، وربما نام قبل أن يغتسل ولكنه يتوضأ قبل أن ينام قال: الحمد لله الذي جعل في الدين سعة (١).

- وعن أبي عطية قال: سألت عائشة عن الإلتفات فقالت: هو اختلاس يختلسه الشيطان من الصلاة (٢).

أحكام خاصة بالصلاة للنساء:

- عن عطاء أنه سأل عائشة هل رخص للنساء أن يصلين على الدواب؟ قالت: لم يرخص لهن في ذلك في شدة ولا رخاء (٣).

وبينت أم سلمة رضي الله عنها حكماً يفتح باب التيسير علي المسلمين في حالة المرض وهو صلاة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو قاعد:

- عنها رضي الله عنها قالت: والذي نفسي بيده ما توفي حتى كان أكثر صلاته قاعداً إلا المكتوبة، وكان أعجب العمل إليه الذي يدوم عليه صاحبه وإن كان يسيراً (٤).

بالنسبة للدعاء:

- عن شهر بن حوشب قال: قلت لأم سلمة: يا أم المؤمنين ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت كان أكثر دعائه "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك"، ثم قال يا أم سلمة إنه ليس من آدمي إلا وقلبه بين أصبع من أصابع الله ما شاء منها أقام وما شاء منها أزاغ (٥).

- وعن عائشة قالت: رأيت رسول الله ﷺ وهو يموت وعنده قدح فيه ماء، فدخل يده في القدح ويمسح وجهه بالماء، ثم يقول: "اللهم أعني على سكرات الموت" (٦).

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٤٩٥/٢.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٣١/٣، وابن أبي شيبة في مصنفه ٣٩٥/١.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن ٩/٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/٢.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٤٦٤/٢.

(٥) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٤، ٣٥٢٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه ٣٦/١٠، ٣٧.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرک ٥٠٥/٢، وابن ماجه في السنن ٥١٩/١، وابن أبي شيبة في مصنفه ٤٢/٦.

بالنسبة للصوم:

- ساهمت أم مسعود في توضيح حكم من أحكام الصيام؛ وهو أنه لا يصح الصوم في الأيام الثلاثة الأولى من عيد الأضحى (أيام التشريق):
- روي عن أم مسعود بن الحكم قالت: لكأني أنظر إلى علي بن أبي طالب وهو على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء حين وقف على شعب الأنصار وهو يقول: يا أيها الناس إن رسول الله ﷺ يقول إن أيام التشريق أيام أكل وشرب ليست بأيام صيام (١).
- وبلغت امرأة بشير ما سمعت من أخيها عن رسول الله ﷺ فيما يختص بصوم يوم الجمعة واستحباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا اليوم:
- عن ليلي امرأة بشير بن الخصاصة ورسول الله ﷺ سمها بشيرا وكان اسمه قبل ذلك زحما قالت: أخبرني بشير أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصوم يوم الجمعة ولا أكلم في ذلك اليوم أحدا؟ قال: لا تصم يوم الجمعة إلا في أيام هو آخرها أو في شهر، وأما أن لا تكلم أحدا فلعمرك لأن تكلم تأمر بمعروف وتنهي عن منكر خير من أن تسكت (٢).
- وبينت السيدة عائشة رضي الله عنها وجوب تشمير ساعد الجد في إحياء الليالي العشر الأواخر من شهر الصوم لالتماس ليلة القدر فيها:
- عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا دخل العشر الأواخر أيقظ أهله وأحيا الليل وشد المتزر (٣).
- كما بينت أن أكثر شهر كان يصومه الرسول صلي الله عليه وسلم هو شهر شعبان... مع الدعوة إلى التكلف من العمل ما يطيق الإنسان حتى لا تؤدي العبادة إلى الكلل والملل:
- روي عن عائشة أن رسول الله ﷺ لم يكن يصوم من شهر من السنة أكثر من صيامه من شعبان فإنه كان يصوم شعبان كله، وكان يقول: خذوا من العمل ما تطيقون، فإن الله تعالى لا يمل حتى تملوا وأنه كان أحب الصلاة إليه ما دووم عليها وإن قلت، فكان إذا صلى داوم عليها (٤).

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٢٩٧/٤، وابن أبي شيبة في مصنفه ٣٤٦/٢.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٤٣/٢.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢٥/٢، وابن خزيمة في صحيحه ٣٤١/٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظه وسنده كتاب الصوم باب صوم شعبان (٥٠/٣).

- وبينت أن الحائض تقض الصوم ولا تقضى الصلاة:

- عن معاذة العدوية قالت: سألت عائشة فقلت: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ قالت: كان يصينا ذلك مع رسول الله ﷺ فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة (١).

دور المرأة في بيان قواعد الطهارة

تعتبر قضية الطهارة من القضايا التي تشغل المسلمين عامة لأنها أساس قبول العبادات، وتشغل النساء بصفة خاصة لما يتعرض له من حيض ونفاس... ولذلك تولت أمهات المؤمنين بيان أصول الطهارة وقواعدها نظراً لأهميتها في أحكام الشريعة؛ فالطهارة من هج النبي الأمين وهي بذلك تضع القواعد الراسخة لدور المرأة المسلمة علي مر الأجيال، حيث يجب أن تقوم المرأة المتفكهة في دينها بتوضيح قواعد الطهارة في مجتمعاتها بما يناسب لغة التخاطب في عصرها. ونري في الأحاديث التالية الدور الذي قامت به المرأة في ذلك الاتجاه:

بالنسبة للوضوء:

- وعن عروة أن رجلاً سأل عائشة عن الرجل يقبل امرأته، أيعيد الوضوء؟ فقالت: قد كان رسول الله ﷺ يقبل بعض نسائه ثم لا يعيد الوضوء، فقلت لها: لئن كان ذلك ما كان إلا منك فسكت (٢).

- وعن يحيى بن معمر قال: سألت عائشة: هل كان رسول الله ﷺ ينام وهو جنب؟ قالت: ربما اغتسل قبل أن ينام، وربما نام قبل أن يغتسل ولكنه يتوضأ (٣).

- عن عائشة أنها قالت: كنت أتوضأ أنا ورسول الله ﷺ من إناء قد أصاب منه الهر قبل ذلك (٤).

- عن عبد الله بن محمد بن عقيل قال: دخلت على الربيع ابنة معوذ بن عفراء في نفر فسألناها عن وضوء رسول الله ﷺ قالت: نعم وضأت رسول الله ﷺ في إناء نحو من هذا الإناء، وهي تشير إلى ركوة تأخذ مداً أو ثلاثاً، قالت: فمضمض واستنثر، ثم غسل وجهه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٦٥/١، وأبو داود في السنن ٦٩/١.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٣٢/١، ومالك في الموطأ ٧١/١.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٢٧٩/١.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٠٢/١.

ويديه ثلاثاً ثلاثاً، ثم مسح رأسه مقدمه ومؤخره ومسح أذنيه مع مؤخر رأسه وغسل رجله ثلاثاً (١).

وبالنسبة للطهارة:

- عن عائشة قالت: مرن أزواجكن أن يغسلوا أثر الغائط والبول فإن رسول الله ﷺ كان يفعله، وفي لفظ: كان يأمر به (٢).

- وعن حرة قالت حدثني عائشة قالت: دخلت على امرأة من اليهود فقالت: إن عذاب القبر من البول، قلت كذبت، قالت: بلى إنه ليقرض منه الجلد والثوب، فخرج رسول الله ﷺ إلى الصلاة وقد ارتفعت أصواتنا فقال: ما هذا؟ فأخبرته فقال: صدقت (٣).

- وعن الحسن عن أمه قالت: رأيت أم سلمة تغسل بول الجارية ما كانت ولا تغسل بول الغلام حتى يطعم تصب عليه الماء صبا (٤).

- وعن عائشة نزل بنا ليلة ضيف فأمرت بملحفة صفراء فاحتلم فيها فاستحي أن يرسل بها وفيها أثر الاحتلام فغمسها في الماء، ثم أرسل بها فقالت عائشة: لما أفسد علينا ثوبنا إنما كان يكفيه أن يفرك بأصبعه ربما فركته من ثوب رسول الله ﷺ بأصبعين (٥).

- وعن ميمونة قالت وضعت للنبي ﷺ غسلا فاغتسل من الجنابة فأكفأ الإناء بشماله عن يمينه فغسل كفه، ثم أفاض على فرجه فغسله، ثم ذلك يده بالأرض، ثم مضمض واستنشق وغسل وجهه وذراعيه ثم أفاض على رأسه، ثم أفاض على سائر جسده الماء، ثم تنحى فغسل رجله فأتيته بثوب فرده وجعل يقول بالماء هكذا ينفض الماء (٦).

- وعن قتادة قال: سألت أم سلمة كم قدر الغسل؟ قالت: صاع للجنب ومد للوضوء (٧).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٧١/١، وابن حبان في صحيحه ٣٣٧/٣، ومسلم في صحيحه ٢٠٥/١.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٤٠/١.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١١٥/١، والبيهقي في السنن الكبرى ٤١٢ / ٢.

(٤) أخرجه أبو داود في السنن ١٠٣/١.

(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن ١٧٩/١، وابن أبي شيبة في مصنفه ٨٣/١.

(٦) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ٧٦/١، وابن ماجه في السنن ١٩٠/١.

(٧) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٦٦/١.

ونعرض في الأحاديث التالية دور المرأة في بيان الأحكام الخاصة بطهارة النساء:

تعتبر طهارة النساء من الموضوعات التي تحتاج إلى تساؤل دائم، نظراً لما يجد عليهن من تقلبات الحيض والنفاس واختلاف ظروف كل واحدة عن الأخرى، وهذا يتطلب فقه النساء في كل عصر للإجابة على هذه التساؤلات؛ حرصاً على ركنين رئيسيين من أركان الإسلام، وهما: الصلاة، والصوم، ولنا في أمهات المؤمنين أسوة حسنة:

- وعن عائشة قالت: كانت إحدانا تحيض فيكون في ثوبها الدم فتحته بالحجر أو بالعود أو بالعظم ثم ترشه وتصلي^(١).

- عن أم ولد لإبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قالت: كنت أطيل ذيلي فأمر بالمكان القذر والمكان الطيب فدخلت على أم سلمة، فسألته فقالت أم سلمة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يطهره ما بعده^(٢) - وعن علقمة بن أبي علقمة قال: أخبرني أمي أن نسوة سألت عائشة عن الحائض تغتسل إذا رأت الصفرة وتصلي؟ فقالت عائشة: لا حتى ترى القصة البيضاء^(٣). وعن عائشة أنها كانت تأمر النساء إذا طهرن من الحيض أن يتبعن أثر الدم بالصفرة يعني بالخلق أو بالذرية الصفراء^(٤). وعن عائشة أنها سئلت عن المستحاضة؟ فقالت: تجلس أيام أقرانها ثم تغتسل غسلاً واحداً وتتوضأ لكل صلاة^(٥).

دور المرأة في بيان أحكام الزواج

سيظل للمرأة الريادة في هذا الدور، لأن العلاقات الزوجية يشوبها الحرج في الحديث عنها، ولن يستطيع القيام بهذا الدور إلا المرأة، وقد وضعت أمهات المؤمنين قاعدة التحدث في هذه المواضيع حيث يحوطها الأدب الإيماني والرقى الأخلاقي. وهو ما نعرضه فيما يلي: - عن عائشة أنها سئلت ما يحل للرجل من امرأته وهي حائض؟ قالت: ليعتزل الرجل امرأته عن فور الحيض، فإذا سكن فوره فليجعل بينه وبينها إزاراً^(٦). وعن مسروق قال: دخلت على عائشة فقلت: يا أم المؤمنين ما يحل للرجل من امرأته حائضاً؟ قالت: ما دون الفرج، قلت: فما يحل لي منها صائماً؟ قالت: كل شيء إلا الجماع^(٧).

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٣/٣٧٦، وابن أبي شيبة في مصنفه ٣/١٧٧.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١/٥٩.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١/٣٠١.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١/٣١٤.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١/٣٠٤.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٦/٣٢٤ - (فور: فور كل شيء: أوله. انتهى. النهاية ٣/٤٧٨).

(٧) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٦/١٨١.

- وعن القاسم بن محمد قال: سألت عائشة عن الرجل يصيب المرأة في الثوب فيعرق فيه فقالت: قد كانت المرأة إذا كان ذلك تعد خرقة فتمسح به ويمسح به الرجل ولم تر به بأسا فتصلي فيه (١).

دور المرأة في إرساء آداب السلوكيات والمعاملات

إن دور المرأة في هذا الشأن لا يقل أهمية عن دور الرجل بل قد يفوقه؛ لأن المرأة هي التي تعد هذا الرجل في مهده، وهي أول مدرسة يتلقى فيها قواعد السلوك والمعاملة. فإذا قامت المرأة بهذا الدور خير قيام، تتحقق للأمة ما ترجوه من رقي في السلوكيات والمعاملات. ونعرض فيما يلي الدور الرائد للمرأة في عصر النبوة، بحيث يكون نبراسا للمرأة في العصر الحديث تهتدي بهديه، وتطور وسائل دعوتها بما يتناسب مع التطورات الحضارية:

بالنسبة لإرساء قواعد الأخلاق الكريمة:

- نرى أم كلثوم بنت عقبة تتحدث عن المجالات الثلاثة فقط التي يرخص فيها بشيء من الكذب وذلك لتحقيق النفع للأمة، أما الكذب كله فهو حرام لأنه يؤدي إلي انعدام الثقة بين أفراد المجتمع وبالتالي تفكك أواصر الأمة:

- حيث قالت: ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث، كان رسول الله ﷺ يقول: لا أعده كذبا: الرجل يصلح بين الناس، يقول القول لا يريد إلا الإصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يحدث امرأته، والمرأة تحدث زوجها (٢). ونرى السيدة عائشة تعرض نموذجا للسلوك الذي كان يتمثل به الرسول صلي الله عليه وسلم: فالشعر كلام يشبه في عصرنا الحاضر كل ما يقال أو يذاع في وسائل الإعلام، ولذلك يجب أن يتفق مع أمانة الكلمة وأثرها في تشكيل وجدان الإنسان:

- فعن المقدم بن شريح عن أبيه قال: قلت لعائشة أكان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان يتمثل بشعر عبد الله بن رواحة يقول: ويأتيك بالأخبار من لم تزود (٣).

(١) أخرجه أبو داود في السنن ٥٩/١، وعبد الرزاق في مصنفه ٣٦٦/١.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٢١).

(٣) أخرجه الترمذي في السنن ١٣٩/٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٢٣٩/١٠.

ترشيده سلوكيات الأفراد والارتقاء بالمفاهيم:

- ففري السيدة عائشة رضي الله عنها تحفز الرجال نحو الرباط في سبيل الله وهذا يعني الاستعداد المادي والمعنوي للقتال حتى تكون الأمة على أهبة الاستعداد لمواجهة كل التحديات:

- روى أمّا قالت: ما أعجز الرجال؟ لو كنت رجلاً ما صنعت شيئاً إلا الرباط في سبيل الله، من رابط في سبيل الله فواق ناقة حرم الله عليه النار، ومن اغبرت قدماه في سبيل الله لم يصبه هب النار^(١).

- وتعلم السيدة عائشة رضي الله عنها المسلمين سلوكيات القول والفعل الذي يتفق مع منهاج السنة الشريفة، فلا يصح السجع في الدعاء، ولا يصح إطلاق اللسان بالأحكام الجزافية والكلمة العوراء، ولا يصح للمرأة أن تمشط شعرها بالمسك حتى لا تجذب الرجال برائحتها:

- عن الشعبي قال: قالت عائشة لابن السائب قاص أهل مكة: اجتنب السجع في الدعاء، فإني عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه وهم لا يفعلون ذلك^(٢).

- وعن عائشة أمّا كانت إذا قيل لها: ولد الزنا شر الثلاثة عابت ذلك وقالت: ما عليه من وزر أبويه؛ قال الله تعالى: (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)^(٣).

وبينت السيدة عائشة أن الإنسان لا يحق له أن يتكلم بالكلمة المشينة لأنها تدنس الروح والوجدان:

- عن عائشة قالت: يتوضأ أحدكم من الطعام الطيب ولا يتوضأ من الكلمة العوراء يقولها^(٤).

- كما تبين السيدة عائشة أدب اليتيم حيث يجب أن يتسم بالوسطية والاعتدال، لا ينجح إلى القوة التي لا تتفق مع رحمة الإسلام: فعن شيمسة قالت: سألت عائشة عن أدب اليتيم؟ فقالت: إن كان أحدهم ليضرب يتيمة حتى ينسبط^(٥).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٣٥/٣، والترمذي في السنن ١٧٠/٤.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٢١/٦، والإمام أحمد في مسنده ٢١٧/٦.

(٣) أخرجه ابن ماجه في السنن ٦٥٥/١، وعبد الرزاق في مصنفه ٤٥٤/٧.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٢٧/١ - (الكلمة العوراء: الكلمة القبيحة الزائفة عن الرشده. النهاية ٣١٩/٣).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٣٤٠/٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٢٨٥/٦ - تنسبط: قال في القاموس بعد ذكر معان البسيط الكيز - وانسبط النهار امتد وطال، والبسطة الفضيلة، وفي العلم التوسط، وفي الجسم الطول والكمال. انتهى. قاموس.

- سلوكيات العفة والاحتشام:

فقد حرص الإسلام على بث هذا السلوك عند نساء المسلمين، وهذا ما توضحه السنة المشرفة؛ حيث تنهي السيدة عائشة رضي الله عنها تمشيط شعرهن بالمسك حتى لا تفوح رائحتهن ويجذبن الرجال:

- فعن الزهري قال: كانت عائشة تنهي أن تمشط المرأة بالمسك (١).

تعليم آداب الاستئذان:

إن تلك الآداب هامة في تحقيق السلام الاجتماعي، و الأمن علي النفس ولذلك شاركت أمهات المؤمنين في إرساء تلك الآداب لتحقيق الرقي الحضاري للأمة:

- حيث طرق طارق على الباب بشدة فقال رسول الله ﷺ لعائشة: اخرجي إليه فإنه لا يحسن الاستئذان فقولي له فليقل: السلام عليكم أأدخل؟ (٢).

آداب تشميت العاطس:

حيث تحقق المودة والتواصل بين المؤمنين وقد وضع قواعدها الرسول صلى الله عليه وسلم، وتعلمتها وتناقلتها أمهات المؤمنين لإرساء آداب السلوكيات والمعاملات:

- عن عائشة قالت: عطس رجل عند رسول الله ﷺ فقال: ما أقول يا رسول الله؟ قال: قل الحمد لله رب العالمين فقالوا: ما نقول له؟ قال: قولوا له يرحمك الله قال: فما أرد عليهم؟ قال: قل يهديكم الله ويصلح بالكم (٣). عن أم سلمة قالت: عطس رجل في جانب بيت النبي ﷺ فقال: الحمد لله، فقال النبي ﷺ: يرحمك الله، ثم عطس آخر في جانب البيت فقال: الحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ارتفع هذا على هذا تسع عشرة درجة (٤).

سلوكيات طهارة الفم والأسنان:

حيث أوجب الإسلام علي المرأة أن تهتم بتلك السلوكيات بالنسبة لأبنائها للحفاظ علي صحة أبنائها، اقتداء بنهج النبوة الرشيد حيث كان النبي ﷺ يهتم بذلك جداً:

- عن شريح قال: سألت عائشة قلت: أخبريني بأي شيء كان يبدأ رسول الله ﷺ إذا دخل عليك؟ قالت: كان يبدأ بالسواك (٥).

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٤١٤/٣.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣٦٩/٥، والهيتمي في مجمع الزوائد ٤٢/١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٢٩٨/٥، وأبو داود في السنن ٣٠٨/٤.

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٣٦١/٢.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٥٥/١.

سلوكيات النوم بعد العشاء:

إن تلك السلوكيات تفتقدها الأمة حالياً، رغم أن الدول الغربية تحرص عليها، لمواجهة أعباء العمل المنتظر في اليوم التالي، مما حقق الحضارة للغرب، والتخلف للأمة الإسلامية.

ولذلك فإن المرأة هي المسئولة عن إرساء تلك السلوكيات في أبنائها منذ نعومة أظفارهم لتجنب ضياع الوقت سدى في سهر لا طائل من ورائه:

- عن عائشة قالت: ما نام رسول الله ﷺ قبل العتمة ولا سمر بعدها (١).

سلوكيات الحفاظ على البيئة والصحة العامة:

ينتظر من المرأة الجهد الأكبر في هذا المجال بتلقين أبنائها سلوكيات الحفاظ على البيئة مما يحقق الحفاظ على الصحة العامة.

ونرى السيدة عائشة تنهي عن التبول في مصادر المياه التي يغتسل منها الإنسان، كسلوك حضاري للإنسان المسلم تحقيق به السبق على كل الحضارات.

- عن عائشة قالت: ما طهر الله أحداً بال في مغتسله (٢).

سلوكيات الانتفاع بموارد الثروة الاقتصادية:

إن قيادة المرأة لهذا الاتجاه مطلوب في عصرنا الحاضر لتوفير مطالب الشعوب، وهي أقدر من الرجل على هذا، لأنها تتولى مسئولية إدارة الأسرة، ودعوتها للاستفادة بكل ما يحيط بها معناه زيادة الإمكانات المتاحة:

- عن أميمة قالت: سمعت عائشة تقول: أتعجز إحداكن أن تأخذ كل عام جلد أضحيتها تجعله سقاء تنبذ فيه، منع نبي الله ﷺ أو قالت فهي رسول الله ﷺ عن الجر أن ينتبذ فيه وعن وعائين آخرين إلا الخل (٣).

- عن عائشة أن النبي ﷺ أمر أن يستمتع بجلود الميتة إذا دبغت (٤).

(١) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه ٢/٢٩٠.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١/٢٥٥، والبيهقي في السنن الكبرى ١/٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/١٥٨٨، وعبد الرزاق في مصنفه ٩/٢١٠.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في ١/٦٣.

سلوكيات البيع والشراء:

إن فهم المرأة لقواعد الحلال والحرام في البيع والشراء معناه تحقيق الخير للأمة، نبعا من قول الحق جل شأنه: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (الأعراف: ٩٦)

ونري دور المرأة في عصر النبوة في هذا المجال فيما يلي:

— عن عائشة لما أنزل الله آيات الربا من آخر سورة البقرة قام رسول الله ﷺ، فقرأها علينا، فحرم التجارة في الخمر(١).

— عن امرأة أبي السفر قالت: سألت عائشة فقالت: بعث: زيد بن أرقم جارية إلى العطاء بشمانمائة درهم، وابتعتها منه بستمائة فقالت عائشة: بئس والله ما اشتريت، وبئس والله ما اشترى، أبلغني زيد بن أرقم أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب، قالت: أفرأيت إن أخذت رأس مالي؟ قالت: لا بأس: (من جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف) (وإن تبتم فلکم رؤوسُ أموالکم) (٢).

وهكذا فإن دور المرأة المرتقب في إثراء الفكر الإسلامي ليس له حدود؛ لأنه يعني فهم قواعد الشريعة الخاصة بكل نواحي الحياة، والسعي لتطبيقها في كل الميادين سواء علي مستوي الأسرة أو المجتمع أو الدولة؛ فالمرأة هي المربية والمعلمة للمجتمع كله، إنها الراعية للإنسان منذ خطواته الأولى في الحياة.

(١) أخرجه عبد الرزاق في معنفة ١٥٠/٨.

(٢) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٦٣٨/١٠.

الفصل الثالث

دور المرأة في تربية الأبناء

يظهر الاحتياج لهذا الدور الفعال للمرأة في عصرنا الحاضر أشد ما يكون حيث تيارات المدنية الحديثة تعرض الأبناء لتزلزل المبادئ والأخلاق. وقد بلغ حرص الإسلام على تربية الأبناء في محراب القيم والمبادئ حرصاً لم تبلغه أية نظريات في التربية، وكيف لا والأبناء هم دعامة الأمة ونهضتها، وهم سواعدها القوية؛ لذلك فلم تقتصر الشريعة على إعطاء القوانين في رعاية الأبناء وتربيتهم؛ بل جعلت قيام الوالدين بذلك - وخاصة الأم - من أعظم القربات إلى الله وفيه رفع الدرجات.

الحوافز الإيمانية للمرأة كزوجة وأم

بين الرسول ﷺ عظم دور الأمهات الإيماني في ميدان الأسرة؛ حيث لن يقدر على الوفاء به إلا الراسخات في إيمان، وهو يحفز همه النساء في كل العصور بوضع حوافز إيمانية عالية للحمل والرضاعة، لتعرف المرأة أن ميدان كفاحها كزوجة وأم هو أشرف الميادين وأقدسها على الإطلاق.

- عن سعيد بن جبير عن ابن عمر أحسبه قد رفعه قال: المرأة في حملها إلى وضعها إلى فصاها كالمرباط في سبيل الله، وإن ماتت فيما بين ذلك فلها أجر شهيد^(١).

- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: خير نساء ركن الإبل صالح نساء؛ قریش أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده^(٢).
ونعرض فيما يلي موجزاً سريعاً للدور المطلوب من المرأة في تربية الأبناء:

دور الأم في تهذيب سلوكيات الأبناء

إن الأم هي المدرسة الأولى التي يتلقى فيها الأبناء مناهج السلوك؛ فعلى المرأة في عصرنا الحاضر أن تقف صلدة في وجه طوفان المادية وتتمسك بالمبادئ الإيمانية حتى تكون قدوة لأبنائها؛ فقد أرسى الرسول ﷺ قواعد الصدق في المعاملة منذ الطفولة المبكرة حتى تكون منهاجاً للمسلم وركيزة في معاملته طوال حياته. وهذا ما نراه في الأحاديث التالية:

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية ٢٩٨/٤، وقال: غريب من حديث سعيد تفرد به قيس وحدث به عبد الله بن المبارك عن قيس.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب إلى من ينكح ونصف النساء خير وما يستحب أن يستخر لنطفه إيجاب (٣٤٣٤) عن أبي هريرة: ... به.

- عن عبد الله بن عامر رضي الله عنه قال: دعيت أمي يوماً ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا فقالت: يا عبد الله تعال حتى أعطيك. فقال لها عليه الصلاة والسلام: ما أردت أن تعطيه؟ قالت: أردت أن أعطيه تمراً. فقال: أما إنك لو لم تُعطه شيئاً، كتبت عليك كذبة (١).

وقد حرم الرسول ﷺ الكذب؛ لأنه يزعزع شخصية الإنسان، ويؤدي إلى تمييعها، وتنفصم معه عرى العلاقات الاجتماعية لانعدام الثقة بين الناس:

- قال ﷺ: إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، ولا أن يعد الرجل ابنه، ثم لا ينجز له، إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار إنه يقال للصادق: صدق وبر، وللكاذب: كذب وفجر، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ويكذب حتى يكتب عند الله كذاباً (٢).

دور المرأة في تلقين الطفل أصول دينه وآدابه

إن معرفة أصول الدين وآدابه هي الركيزة الأساس في بناء شخصية الطفل على مدى عمره كله، وهي حق أصيل له يُعاقب الوالدين على التفريط فيه؛ لأن هذا معناه حرمان الابن من النعيم الأخروي في المستقبل. فيجب تعليم الطفل العبادات وتلقينه أحكام الحلال والحرام: عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله، ومروا أولادكم بامثال الأوامر واجتناب النواهي فذلك وقاية لهم ولكم من النار.

وهكذا حين يتفهم الولد منذ نعومة أظفاره أصول الدين وأحكام الشريعة يكون قد حصل على حقه في حسن التأديب ولا يعرف في شبابه سوى الإسلام تشريعاً ومنهجاً. وأصول الدين عميقة ولها فروع متشعبة نوجزها فيما يلي:

من أصول الدين شهادة أن لا إله إلا الله:

- قال ﷺ: "إذا أفصح أولادكم فاعلموهم لا إله إلا الله، ثم لا تُبالوا متى ماتوا، وإذا اثغروا فمروهم بالصلاة" (٣).

(١) أخرجه أبو داود في (الأدب، باب في التشديد في الكذب / ٤٩٩١) وأحمد في مسنده (٣ / ٤٤٧)

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک ١٢٧/١، والشهاب في مسنده ٢٦٣/٢ عن ابن مسعود مرفوعاً، وأخرجه البيهقي في الشهب ٢٦٣/٤ موقوفاً

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٣٠٥/١ - (اثغروا: الاثغار: سقوط سن الصبي ونباها. والمراد به هنا السقوط يقال إذا روضع الصبي فإذا نبت بعد السقوط قيل اثغر. النهاية ٢١٣/١).

- وعن محمد بن الأسود بن خلف أن أباه حدثه قال: رأيت النبي ﷺ يبايع الناس يوم الفتح فجاء الرجال والنساء والصغار والكبار فبايعوه على الإسلام والشهادة قال عبد الله ابن عثمان بن خثيم: قلت: وما الشهادة؟ فأخبرني محمد بن الأسود قال: الشهادة (كشاً وشهادة) أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله (١).

ومن أصول الدين الصلاة والصوم:

- قال ﷺ: "مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع، وإذا زوج أحدكم خادمه عبده أو أحره فلا ينظر إلى ما دون السرة وفوق الركبة" (٢).

- وعنه ﷺ قال: "إذا بلغ أولادكم سبع سنين ففرقوا بين فرشهم، وإذا بلغوا عشر سنين فاضربوهم على الصلاة" (٣).

- وعن هشام بن سعد حدثني معاذ بن عبد الله بن خبيب الجهني قال: دخلنا عليه فقال لامرأته: متى يصلي الصبي فقالت: كان رجل منا يذكر عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن ذلك فقال: إذا عرف الغلام يمينه من شماله فمروه بالصلاة (٤).

من أصول الدين الحج:

- عن ابن عباس قال: "رفعت امرأة صبياً لها فقالت: يا رسول الله ألهذا حج؟ قال: نعم ولك أجر" (٥).

من أصول الدين بر الوالدين:

- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيَّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: "الصَّلَاةُ عَلَى وَاقْتِهَا"، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: "بِرُّ الْوَالِدَيْنِ"، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: "الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" (٦).

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٣/ ٤١٥، والطبراني في الكبير ١/ ٢٨٠، والحاكم في المستدرک ٣/ ٣٣٥ وعبد الرزاق في مصنفه ٦/ ٥ وقال الضياء في المختارة ٤/ ٢٤٤: إسناده حسن.

(٢) أخرجه أبو داود في (كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة رقم ٤٩٥ ورقم ٤٩٦) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٣) أخرجه أبو داود في (كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة رقم ٤٩٥ ورقم ٤٩٦) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٤) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة رقم ٤٩٥ ورقم ٤٩٦.

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب صحة حج الصبي (١٣٣٦) البيهقي في السنن الكبرى ٢/ ٣٢٦.

(٦) أخرجه البخاري في (الأدب، باب البر والصلة) (٥٩٧٠) ومسلم في (الإيمان، باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال/ ١٣٧).

- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: "أُمُّكَ"، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "أُمُّكَ"، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "أُمُّكَ"، قَالَ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: "أَبُوكَ" (١).

- وَعَنْ أَبِي أُسَيْدٍ مَالِكِ بْنِ رَبِيعَةَ السَّاعِدِ قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ بَقِيَ مِنْ بَرِّ أَبِي شَيْءٍ أَبْرَهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا، قَالَ: نَعَمْ، الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِلْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا (٢).

ونعرض فيما يلي وصية جامعة أوصى بها الرسول ﷺ عبد الله ابن عباس وهو غلام ليعلمه أصول الدين واليقين في عبارات شاملة جامعة تخلق شباباً على درجة عالية من الصمود والتصدى لكل تحديات الحياة.

- عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فيما رواه أنه قال: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ يَوْمًا فَقَالَ: يَا غُلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظْهُنَّ اللَّهُ يَحْفَظْكَ، احْفَظْهُنَّ اللَّهُ تَجِدْهُنَّ جُحَاهُكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَيْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ (٣).

دور الأم في تنشئة الطفل على حب الوطن والدفاع عنه

إن تنشئة الطفل على حب الوطن معناه غرس الانتماء وقيم الرجولة فيه وتحريره من كل مظاهر التسيب والميوعة، وترشدنا الأحاديث الشريفة في تعاملاتها مع الطفولة إلى كيفية صنع الرجال الذين تقوم على سواعدهم الأمة، والأم لها دور كبير في استنهاض همم الغلمان عندما يشبون عن الطوق، وتوجيه طاقاتهم إلى أهداف سامية، تحمى الأمة و تساعد على تقدمها. وكما قال الشاعر:

(١) أخرجه البخاري في الموضوع السالف ذكره (رقم ٥٩٧١) ومسلم في (البر والصلة، باب بر الوالدين

(٢٥٤٨)

(٢) أخرجه أبو داود في (الأدب، باب في بر الوالدين (٥١٤٢) وابن ماجه في (الأدب، باب وصل من كان

أبوك يصل (٣٦٦٤) وأحمد في مسنده (٤٩٧ / ٣)

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة (٢٥١٦) وأحمد في مسنده (٣٠٣ / ١).

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق
والأم لها في رسول ﷺ أسوة حسنة؛ حيث كان يعمل على حفز همم الشباب في تعلم الرماية للتدريب على الدفاع عن الوطن وقت الاحتياج إلى ذلك:
- مر رسول الله ﷺ بنفر من أسلم ينتصلون فقال: "ارموا يا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً، وأنا مع محجن بن الأدرع"، قالوا: من كنت معه غلب، قال: "فارموا وأنا معكم كلكم" (١).

- قال ﷺ: ارموا، من بلغ العدو بسهم رفعه الله به درجة، فقال عبد الرحمن بن النحام: وما الدرجة؟ فقال ﷺ: أما إنها ليست بعتبة أمك، ولكن ما بين الدرجتين مائة عام (٢).

- قال ﷺ: من رمى بسهم في سبيل الله، فقصر أو بلغ، كان ذلك له نورا يوم القيامة (٣). ويمكن للأمم تحويل هو الشباب إلى عمل بناء؛ حيث تتجه الألعاب والرياضات التي يمارسها الشباب نحو أهداف سامية؛ فأهم ما يتميز به الإسلام أنه شريعة تهتم بالنواحي الدنيوية والأخروية في آن واحد. فهي لا تحرم الشباب من اللهو، ولكن توجه هذا اللهو إلى أهداف سامية تحقق النفع للأمة بأسرها. يقول رسول الله ﷺ في ذلك: إن الله يُدخل بالسهم الواحد ثلاثة الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، والممد به، ارموا واركبوا ولأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا، كل ما يلهو به الرجل باطل، إلا رمية بقوسه، أو تأديبه فرسه، أو ملاعبته أهله، فإنهم من الحق، ومن علم الرمي ثم تركه فهي نعمة كفرها (٤). ونهج عمر بن الخطاب وهو أمير المؤمنين فجع الرسول ﷺ في ضرورة تدريب الأولاد تدريباً يؤهلهم للدفاع عن الوطن:

- عن زياد بن جارية أن عمر بن الخطاب كتب إلى أمراء الشام: أن يتعلموا الغرض ويمشوا بين الغرضين حفاة، وعلموا أولادكم الكتابة والسباحة (٥).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٣٢/٧ عن عبيدة بن سلمة، وأخرجه المسعودي في التنبية والاشراف ص ٧١ عن ابن عباس ؓ.

(٢) أخرجه النسائي في (الجهاد، باب ثواب من رمى سهم في سبيل الله ٢٧/٦) وابن أبي شيبة ٢١١/٤ وأحمد ٢٣٥/٤ وابن حبان (موارد ٣٩٦/١) عن كعب بن مرة.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط ٣/ ٢٨٥، والكبير ٣٨١/٢٢ عن أبي عمرو الأنصاري.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب في الرمي ٢٥١٣/١ وابن ماجه في كتاب الجهاد، باب الرمي في سبيل الله (٢٨١١) والترمذي في كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله (١٦٣٧).

(٥) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٩/٩ عن زياد بن جارية، ووقع في بعض الكتب "زيد بن حارثة" وهو خطأ. وقوله "الغرض" هو الهدف الذي يُنصب فيرمى فيه، والجمع أغراض. ينظر النهاية (٣/٣٦٠).

دور المرأة في تربية الأبناء على العدل

يعتبر العدل هو الميزان الذي تستقيم به الأسرة، وهو الذي يحقق الأمن الديني والأخروي. وتبين لنا الأحاديث الشريفة دور المرأة الفذ في الحرص على تطبيق منهاج الشريعة في العدل حرصاً على تربية أبنائها في مناخ تشيع فيه قيم الإيمان وتحرراً من الطمع الذي يبعد أبنائها عن تقوى الله التي تحقق رقي المجتمعات، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (المائدة: ٨). ونرى نموذجاً رائعاً لنهج المرأة في تحقيق العدل القائم على التقوى حيث نرى امرأة في عصر النبوة ترفض أن يستأثر ابنها بعطية دون باقي أولاد زوجها من نساء أخريات، وهذا يوضح مدى سمو النفس البشرية عن كل مغريات الحياة تنفيذاً لأوامر الحق سبحانه وتعالى، وأوامر رسوله الأمين ﷺ، وهذا ما نراه فيما يلي:

- عن يحيى بن أبي كثير قال رسول الله ﷺ: سوا بين أولادكم في العطية، فإني لو كنت مؤثراً أحداً على أحد لآثرت النساء على الرجال^(١). ووصل العدل بين الأبناء إلى درجة لم يسبق لها مثيل في أي عصر من العصور؛ مما جعل للأمة الإسلامية مكانة متميزة بين الأمم؛ فهي المرأة رغم أنها مسكينة معدمة، ومع ذلك تعدل في قسمة التمرة التي تجدها: عن أم سلمة قالت: قلت يا رسول الله ألي أجر إن أنفق على بني أبي سلمة، إنما هم بني، قال: أنفق عليهم فلك أجر ما أنفقت عليهم^(٢). وعن عائشة قالت: جاءني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما ثمرة، ورفعت إلى فيها ثمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتها فشقت التمرة بينهما، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ قال: إن الله تعالى قد أوجب لها الجنة وأعتقها بها من النار^(٣). عن عامر قال: سمعت النعمان بن بشير رضي الله عنهما وهو على المنبر يقول: أعطاني أبي عطية فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد النبي ﷺ، فأتى النبي ﷺ فقال: إني أعطيت ابني من عمرة عطية فأمرتني أن أشهدك، فقال ﷺ: أعطيت كل ولدك مثل هذا؟ قال: لا، قال: "فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم لا أشهد على جور"^(٤).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٣٥٤/١١، والهيتمي في مجمع الزوائد ١٥٣/٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٥١/٢، وعبد الرزاق في مصنفه (١٩٦٢٨).

(٣) أخرجه مسلم كتاب البر رقم ٢٦٣٠.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الهبة، باب الإهداء في الهبة (٢٥٨٧) عن عامر قال سمعت النعمان بن بشير رضي الله عنهما وهو على المنبر يقول: ... به، وابن حبان في صحيحه ٥٠٣/١١، وابن أبي شيبة في مصنفه ٢٣٤/٦.

الفصل الرابع

دور المرأة في المساهمة الفعالة في الحياة الاجتماعية

يسجل التاريخ بأحرف من نور هذا السبق للإسلام في فتح مجالات واسعة للمرأة في ممارسة النشاط الاجتماعي، حيث قدر فيها العقل والروح والعاطفة الإنسانية المتدفقة في العطاء من إطعام الطعام وإغاثة اللهفان ونصرة خير الأنام ﷺ بما يتوافق مع طبيعة المرأة المرفقة بالحس، والتي سما بها الإسلام إلى مدارج عالية من الرقي المعنوي حيث فجر كل الطاقات الكامنة فيها للمشاركة الإيجابية مع مجتمعاتها، وهي تؤمن بوعده الحق جل شأنه: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل: من الآية ٩٧)^(١).

ونظرا لأن المرأة إحدى الدعامات الأساس التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية، فقد فتح لها الإسلام المجال واسعا للمشاركة بفاعلية في إعمار تلك الحياة، وإضفاء كل المعاني الإيمانية على تلك الحياة بما يحقق السلام الاجتماعي في الأمة، ويفجر طاقات الحب والرحمة في القلوب، مما يجعل أبناء الأمة كالبنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضا، ويقدر على مواجهة كل أعاصير المادية التي تواجهها من المجتمعات الخارجية.

وقد ضربت المرأة المسلمة في عصر النبوة المثل الأعلى في تلك المساهمة، بما جعلها تمشي في طريقها واثقة الخطى بمبادئ دينها، راضية عن ربها ورسولها، تلفت أنظار نساء العالم إليها بإعجاب، ويتمنن أن يكن مثلها، ويوم تخلت المرأة المسلمة تدريجيا عن تلك المشاركة الفعالة في مجتمعاتها، أصبحت تواجه بالطعنات والاهتمامات في دينها، مما جعلها مزعزعة العقيدة، سقيمة الوجدان. ولكي يكون كلامنا مدعما بالأدلة والبرهان نعرض دور المرأة الفعال فيما يلي:

١ - دورها في مواجهة تحديات الدعوة

إن هذا الدور للمرأة لن ينتهي حتى قيام الساعة، حيث تتنوع التحديات التي تواجهها الدعوة، فالصراع بين الحق والباطل مستمر، ويحتاج يقظة ومثابرة وصبر ومرابطة نابعين

(١) موسوعة أصول الفكر، الباحثة خديجة النبراوي (مرجع سابق). موسوعة تحرير المرأة في عصر الرسالة، عبد

الحليم أبو شقة (مرجع سابق).

من قوة العقيدة وجلاء البصيرة، ولقد ضربت السيدة خديجة بنت خويلد أروع الأمثلة في الوقوف بجوار زوجها المصطفى ﷺ أثناء حصار شعب أبي طالب، فكانت هي الزوجة الحجة تنصره وتشد أزره وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى والاضطهاد سنين عددا؛ فعندما قضى على بني هاشم وعبد المطلب أن يخرجوا من مكة إلى شعب أبي طالب بعد أن أعلنت قريش حربا مدنية لا ترحم، وسجلن مقاطعتها لهم في الصحيفة التي علقته في الكعبة، لم تتردد الزوجة المخلصة في الخروج مع زوجها، وظلت بجواره في الشعب تعاني مما يعاني منه المسلمون على الرغم من كبر سنهما وشيخوختها^(١).

وبين الحديث التالي كيف شاركت السيدة خديجة رضي الله عنها الرجال في اجتماعهم وعبادتهم، وكيف واجهت الخوف معهم، وكيف كانت تملك الشجاعة الكافية في مواجهة المواقف الصعبة:

- عن ابن عمر قال: اجتمعت قريش فقالوا: من يدخل على هذا الصابي فيرده عما هو عليه فيقتله؟ فقال عمر بن الخطاب: أنا، فأتى العين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله! إن عمر بن الخطاب يأتيك فكن منه على حذر! فلما أن صلى رسول الله ﷺ صلاة المغرب قرع عمر الباب وقال: افتحي يا خديجة فلما أن دنت قالت: من هذا؟ قال: عمر، قالت: يا نبي الله! هذا عمر، فقال من عنده من المهاجرين وهم تسعة صيام وخديجة عاشرهم: ألا نشتفي يا رسول الله فنضرب عنقه؟ قال: لا، ثم قال: اللهم أعز الدين بعمر بن الخطاب! فلما دخل قال: ما تقول يا محمد! قال: أقول أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وتؤمن بالجنة والنار والبعث بعد الموت فبايعه وقبل الإسلام، وصبوا عليه من الماء حتى اغتسل، ثم تعشى مع رسول الله ﷺ، وبات يصلي معه، فلما أصبح اشتمل على سيفه ورسول الله ﷺ يتلوه والمهاجرون خلفه حتى وقف على قريش وقد اجتمعوا فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر؛ ففرقت حينئذ قريش^(٢).

(١) تراجم سيدات بيت النبوة، أ. د. عائشة عبد الرحمن، ص ١٨٢ - ط دار الحديث.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٣٠٦/١٥.

وبين الحديث التالي كيف تحملت المرأة أعباء الدعوة في حمل الطعام إلى رسول الله ﷺ سرّاً عندما كان في غار ثور مع أبي بكر الصديق؛ فراراً من اضطهاد الكفار في مكة، وهجرته إلى المدينة المنورة علاء كلمة الحق وبناء أمة الإسلام:

- عن أسماء بنت أبي بكر قالت: كنت أحمل الطعام إلى رسول الله ﷺ وأبي وهما في الغار، فجاء عثمان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إني أسمع من المشركين من الأذى فيك ما لا صبر عليه، فوجهني وجهاً أتوجه فلأهجرهم في ذات الله! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أزعمت يدك يا عثمان؟ قال: نعم، قال: فليكن وجهك إلى هذا الرجل بالحبشة - يعني النجاشي، فإنه ذو وفاء، واحمل معك رقية فلا تخلفها، ومن رأي معك من المسلمين مثل رأيك فليتوجهوا هناك، وليحملوا معهم نساءهم، ولا يخلفوهم، فودع عثمان نبي الله ﷺ وقبل يديه، فبلغ عثمان رسالة رسول الله ﷺ وقال لهم: إني خارج من تحت ليلتي، ونقيم لكم بجدة ليلة أو ليلتين، فإن أبطأتم فوجهي إلى باضع - جزيرة في البحر - قالت: فحملت إلى رسول الله ﷺ فقال لي: ما فعل عثمان ورقية؟ قلت: قد سارا فذهبا، فقال: قد سارا فذهبا؟ قلت: نعم، فالتفت إلى أبي بكر فقال: زعمت أسماء أن عثمان ورقية قد سارا فذهبا، والذي نفسي بيده إنه لأول من هاجر بعد إبراهيم ولوط^(١).

وبين الحديث التالي كيف شاركت النساء الرجال في الهجرة فراراً من اضطهاد المشركين، وكيف سبقت فاطمة بنت الخطاب أحباها عمر في الإيمان بالدين الجديد، وكيف كانت تستخفي بإسلامها من عمر، وتتشارك مع المؤمنين في اجتماعاتهم السرية، وكيف كانت قوية في مواجهة بطش عمر وشدته؛ حتى أن الدماء سالت من وجهها، ولكن لها الفخر أن تلك الدماء كانت سبباً في رقة قلب عمر، ثم اهتدائه إلى الإسلام على يديها:

- فعن أم عبد الله بنت أبي حنثة قالت: والله إنا لنتحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا إذ أقبل عمر حتى وقف علي وهو على شركه، قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشراً علينا، فقالت: فقال: إنه لانطلاق يا أم عبد الله قالت: قلت: نعم والله لنخرجن في أرض الله آذيتونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً، قالت: فقال: صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا، قالت فجاء عامر من حاجتنا تلك فقلت له: يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه

(١) انظر تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٩٧/١.

علينا، قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قالت: لا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب - قالت يأسا لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام - وكان إسلام عمر بن الخطاب فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل كانت قد أسلمت وأسلم زوجها سعيد بن زيد معها وهم يستخفون بإسلامهم من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحام - رجلا من قومه من بني عدي بن كعب قد أسلم وكان أيضا يستخفي بإسلامه فرقا من قومه، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن، فخرج عمر يوما متوشحا سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطا من أصحابه، فذكر له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين من رجال ونساء ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق بن أبي قحافة في رجال من المسلمين ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقى نعيم بن عبد الله فقال له: أين تريد؟ قال: أريد محمدا هذا الصائب الذي قد فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله، فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: ونصف أهل بيتي، قال: خنتك وابن عمك سعيد بن زيد واختك فاطمة بنت الخطاب فقد أسلما وتابعا محمد ﷺ على دينه، فعليك بهما، فرجع عمر عامدا لختنه وأخته وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها (طه) يقرئها إياها فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب بن الأرت في مخدع لعمر أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها وقد سمع عمر حين دنا من البيت قراءته عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينة التي سمعتها؟ قالوا: ما سمعت شيئا، قال: بلى والله لقد أخبرت عما تابعتما محمدا على دينه وبطش بختنه سعيد بن زيد وقامت إليه فاطمة أخته لتكفه عن زوجها فضر بها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك، ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأن آفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي وحلف لها بآلهته ليردنها إليها إذا قرأها، فلما قال لها ذلك طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي إنك نجس على شركك وإنه لا يمسه إلا المطهرون، فقام عمر فاغتسل ثم أعطته الصحيفة وفيها (طه) فقرأها فلما قرأ صدرها منها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه، فلما سمع خباب ذلك خرج إليه،

فقال له: يا عمر والله أني لأرجو ان يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ﷺ فإني سمعته وهو يقول: "اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب فالله الله يا عمر فقال له ثم ذلك فادلني عليه يا خباب حتى آتبه الراوي فقال له خباب هو في بيت ثم الصفا معه فئة يعني من أصحابه فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد الى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب فرآه متوشحا السيف فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال: يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له فإن كان يريد خيرا بذلنا له وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: أئذن له فأئذن له الرجل ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بحجزته أو بجمع رداءه ثم جذه جبذة شديدة، وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ والله ما أرى أن تنتهي حتى يترل الله بك قارعة، فقال له عمر: يا رسول الله جئتك أو من بالله وبرسوله وبما جئت به من عند الله، قال: فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمرا قد اسلم، ففترق أصحاب رسول الله ﷺ من مكائهم ذلك وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة بن عبد المطلب، وعرفوا أنهمما سيمنعان رسول الله ﷺ ويتصفون بهما من عدوهم فهذا حديث الرواة من أهل المدينة عن إسلام عمر بن الخطاب حين اسلم رضي الله عنه^(١). ويبين الحديث التالي شجاعة المرأة المسلمة وإصرارها على الهجرة إلى رسول الله ﷺ رغم المخاطر التي يمكن أن تتعرض لها، وقدرتها على تقييم الرجل الذي صاحبها في تلك الهجرة، وشهادتها بذلك في حضرة الرسول ﷺ: عن قيلة أنها خرجت تبغي الصحبة إلى رسول الله ﷺ في أول الإسلام، قالت: فمضيت إلى أخت لي ناكح في بني شيبان إذ جاء زوجها من السامر فقال: وجدت لقيلة صاحبا صاحب صدق، فقالت أختي: من هو؟ فقال: هو حريث بن حسان الشيباني غاديا وافد بكر بن وائل إلى رسول الله ﷺ ذا صباح، قالت: فخرجت معه صاحب صدق حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو يصلي بالناس صلاة الغداة قد أقيمت حين شق الفجر والنجوم شابكة في السماء والرجال لا تكاد تعارف مع ظلمة الليل، فقلت له بحضرة رسول الله ﷺ: والله ما علمت أن كنت لدليلا في الظلماء جوادا بذى الرحل، عفيفا عن الرفيقة، حتى قدمنا على رسول الله ﷺ، فقال: إني لا جرم أني أشهد رسول الله ﷺ أني لا أزال لك أخوا ما حييت إذا أثبت علي هذا عنده، فقلت: أما إذ بدأتما فلن أضيعها^(٢).

(١) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة ١ / ٢٧٩.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٩/٢٥، وانظر شرح معاني الآثار ١٧٧/١.

- وبين الحديث التالي أن أم كلثوم بنت أبي معيط -وهي شابة صغيرة- تفارق أهلها جميعاً وتهاجر فراراً بدينها، وأثبتت عمق يقينها مع غيرها اللوائي نزل فيهن سورة الممتحنة لصدق إخلاصهن مع الله وتحملهن المخاطر في سبيل ذلك الدين القيم الذي تغلغل في نفوسهن، وفجر فيهن كل طاقات الإنسانية المبدعة والقادرة على مواجهة كل التحديات:

- عن عروة بن الزبير أنه سمع مروان والمصور بن مخزومة رضي الله عنهما يخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ قال: لما كاتب سهيل بن عمرو يومئذ كان فيما اشترط سهيل بن عمرو على النبي ﷺ: أنه لا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا وخليت بيننا وبينه، فكره المؤمنون ذلك وامتنعوا منه وأبى سهيل إلا ذلك، فكتبه النبي ﷺ على ذلك، فرد يومئذ أبا جندل إلى أبيه سهيل ابن عمرو ولم يأت أحد من الرجال إلا رده في تلك المدة وإن كان مسلماً، وجاءت المؤمنات مهاجرات وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ يومئذ وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يرجعها إليهم فلم يرجعها إليهم لما أنزل الله فيهن (إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ...) إلى قوله (وَلَا هُمْ يَحْلُونَ لَهُنَّ) قال عروة: فأخبرتني عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمتحنهن بهذه الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ) إلى (غَفُورٌ رَحِيمٌ) قال عروة: قالت عائشة: فمن أقر بهذا الشرط منهن قال لها رسول الله ﷺ: قد بايعتك. كلاماً يكلمها به، والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة وما بايعهن إلا بقوله^(١).

٢ - دورها في الإنفاق في سبيل الله

إن دور المرأة في هذا المجال لا يقل أهمية وخطورة عن دور الرجل، وهو دور هام في وقت السلم والحرب وفي الكوارث؛ لأنه يعني قوة الأمة المادية والمعنوية التي ترهب الأعداء، والأمة الإسلامية حالياً تحتاج إلى بعث هذا الدور للمرأة لمواجهة الجوع الذي تواجهه كثير من الشعوب، علاوة على الكوارث والأمراض. والأحاديث الشريفة تبين كيف ساهمت المرأة في دعم مسيرة الدعوة وإعلاء راية الحق؛ حيث آمنت المرأة برسالتها فتخلت عن زينة الدنيا ومتاعها لتحقيق بناء الأمة الإسلامية ورفقها ومواجهة كل التحديات التي تعوقها:

- فعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خرج يوم الفطر فصلى ركعتين لم يصل قبلهما ولا بعدهما، ثم أتى النساء ومعه بلال فأمرهم بالصدقة فجعلت المرأة تلقي خرصها وسخاها^(٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط، باب ما يجوز من الشروط في الإسلام والأحكام والمبايعة (٢٧١٣) عن عروة بن الزبير أنه سمع مروان والمصور بن مخزومة رضي الله عنهما يخبران عن أصحاب رسول الله ﷺ قال: ... به .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٣٢٧/١، سخاها: هو خيط ينظم فيه خرز ويلبسه الصبيان والجواري. انتهى. النهاية [٣٤٩/٢].

- عن أسماء أن رسول الله ﷺ قال: أنفقي ولا تحصي فيحصى الله عليك ولا تسوعي فيوعي الله عليك (١).

ولقد سار الخلفاء الراشدون على نهج الرسول ﷺ في حفز النساء على المشاركة بحليهن في الأزمات:

- وعن شعيب بن يسار قال: كتب عمر إلى أبي موسى أن مر من قبلك من نساء المسلمين أن يتصدقن من حليهن (٢).

٣ - دور المرأة في المشاركة في العبادات والمناسبات الدينية

إن هذا الدور يعني المساواة بين المرأة والرجل في أجلى صورها، ويعني المظهر الحضاري للأمة التي يشترك أبنائها جميعاً في مناسباتها ويعني التوحد في الصفوف والمشاعر بأدب الشرع وحرصه على كرامة النساء، ويعني قوة الأمة بتوحد شعبها (رجالاً ونساءً) كالبنين المرصوص؛ ولذلك فإن مشاركة النساء في عصرنا الحالي في العبادات والمناسبات الدينية يعتبر إحياء لعصر النهضة الإسلامية، وإحياء لمعاني التضامن والأخوة الإيمانية، ونرى ضرورة تلك المشاركة في الأحاديث التالية:

- عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يأمر بناته ونساءه أن يخرجن في العيدين (٣).

- عن حفصة قالت: كنا نمنع عواتقنا أن يخرجن فقدمت امرأة فترلت قصر بني خلف، فحدثت أن أختها كانت تحت رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قد غزا مع رسول الله ﷺ اثنتي عشرة غزوة وكانت أختي معه في ست غزوات، قالت: كنا نداوي الكلى ونقوم على المرضى، فسألت أختي رسول الله ﷺ فقالت: هل على إحدانا بأس إن لم يكن لها جلباب أن لا تخرج؟ قال: لتلبسها صاحبها من جلبابها ولتشهد الخير ودعوة المؤمنين، فلما قدمت أم عطية رضي الله عنها سألنها أو قالت سألناها فقالت - وكانت لا تذكر رسول الله ﷺ إلا قالت - بأبي فقلنا أسمع رسول الله ﷺ يقول كذا وكذا - قالت: نعم بأبي، فقال: لتخرج العواتق وذوات الخدور والحیض، وليشهدن الخير، ودعوة المؤمنين، وتعتزل الحيض المصلی (٤).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة باب الحث في الإنفاق رقم (١٠٢٩).

(٢) ذكره البيهقي في السنن الكبرى ٣/٣٠٠.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/٢٣١.

(٤) أخرجه البخاري كتاب العيد باب إذا لم يكن لها جلباب (١٦٥٢).

- وعن علي قال: من السنة أن يمشى الرجل إلى المصلى قال: والخروج يوم العيد من السنة ، ولا يخرج إلى المسجد إلا ضعيف أو مريض لكن أخرجوا إلى الجبل ولا تحبسوا النساء(١).
- وعن عرفة قال: كان علي بن أبي طالب يأمر الناس بقيام شهر رمضان، ويجعل للرجال إماما، وللنساء إماما، قال عرفة: فكنت أنا إمام النساء(٢).
- وبين الحديث التالي المشاركة الفعلية للنساء؛ عندما لبين الدعوة إلى اجتماع عام بالمسجد:**
- عن الشعبي قال: دخلنا على فاطمة بنت قيس فأتحفتنا برطب يقال له: رطب بن طاب، وأسقتنا سويقا، فسألته عن المطلقة ثلاثا أين تعتد؟ قالت: طلقني بعلي ثلاثا فأذن لي النبي ﷺ أن أعتد في أهلي، قالت: فنودي في الناس: إن الصلاة جامعة، قالت: فانطلقت فيمن أنطلق من الناس، قالت: فكنت في الصف المقدم من النساء وهو يلي المؤخر من الرجال، قالت: فسمعت النبي ﷺ وهو على المنبر يخطب فقال: إن بني عم تميم الداري ركبوا في البحر وساق الحديث وزاد فيه، قالت: فكأنما أنظر إلى النبي ﷺ وأهوى بمخصرته إلى الأرض وقال هذه طيبة يعني المدينة (٣).
- ونرى من إيجابية النساء عاتكة بنت زيد تتمسك بحقها في شهود الجماعة:
- عن ابن عمر قال: كانت امرأة لعمر بن الخطاب تشهد صلاة الصبح والعشاء في الجماعة في المسجد فقيل لها: لم تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار؟ قالت: وما يمنع أن ينهاني؟ قال: يمنعه قول رسول الله ﷺ: لا تمنعوا إماء الله مساجد الله (٤).
- قال الحافظ ابن حجر: أخرج عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال: ... فلقد طعن عمر وإمها لفي المسجد (٥).
- ولقد شاركت النساء في الصلاة على رسولها وإمامها ﷺ وهو يودع الدار الدنيا وينتقل إلى الدار الآخرة:

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٣/٣١١.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٣/١٥٢.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفتن (٢٩٤٢) عن الشعبي قال: ... به.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة (٩٠٠) عن ابن عمر قال: كانت امرأة لعمر تشهد صلاة الصبح

والعشاء في الجماعة في المسجد فقيل لها: ... به

(٥) فتح الباري ٣/٣٤.

- وعن علي قال: لما وضع رسول الله ﷺ على السرير قال: لا يقوم عليه أحد هو إمامكم حياً وميتاً، فكان يدخل الناس رسلاً رسلاً فيصلون عليه صفّاً صفّاً ليس لهم إمام ويكبرون، وعلي قائم بحيال رسول الله ﷺ يقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته اللهم إنا نشهد أن قد بلغ ما نزل إليه، ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله حتى أعز الله دينه، وتمت كلمته، اللهم فاجعلنا ممن يتبع ما أنزل إليه وثبتنا بعده، واجمع بيننا وبينه، فيقول الناس آمين، حتى صلى عليه الرجال، ثم النساء، ثم الصبيان (١).

٤ - دورها في أداء واجب الضيافة

إن هذا الدور يعبر عن الرحمة الإيمانية التي تملأ قلب المرأة، وكان له أثر كبير في تحقيق التكافل الاجتماعي، ومساندة الرسول ﷺ في أوقات شدته وجوعه هو والصحابة فهذا الواجب إن كان يقوم به الناس حالياً على سبيل المفاخرة، فإن المرأة كانت تقوم به من نبع إيمانها وبرها وكانت تحقق بهذا الدور رسالة إيمانية هادفة ترسي بها مبادئ الحق في أسمى صورها، ونحن نحب بالمرأة المسلمة أن تحيي تلك المعاني السامية لإحياء الأمة بأسرها؛ حيث تتبع الهدي النبوي الشريف في إنزال الناس منازلهم، وهذا ما يوضحه النهج النبوي في الحديث التالي:

- عن عطاء بن أبي رباح قال دخل حسان بن ثابت على عائشة بعد ما عمى فوضعت له وسادة، فدخل عبد الرحمن بن أبي بكر فقال: أجلسنيه على وسادة وقد قال ما قال! فقالت إنه: كان يجيب عن رسول الله ﷺ ويشفي صدره من أعدائه وقد عمى وإني لأرجو أن لا يعذب في الآخرة (٢).

وبين الحديث التالي إيجابية المرأة في الإسراع إلى كرم الضيف الذي جاءها في الظهيرة وقدرت حاجته إلى الارتواء، ثم بادلتها الحوار الإيجابي البناء الذي يدل على سعة الأفق وسعي المرأة إلى المعرفة من خلال ممارسة الحياة الاجتماعية:

- عن حبة بنت أبي حية قالت: دخل على رجل بالظهيرة فقلت ما حاجتك يا عبد الله؟ قال: أقبلت أنا وصاحب لي في بغاء إبل لنا؛ فانطلق صاحبي يبغي ودخلت في الظل أستظل وأشرب من الشراب، قالت: فقممت إلى لبنية لنا حامضة فسقيته منها وتوسمته وقلت: يا عبد الله من أنت؟ قال: أبو بكر، قلت: أبو بكر صاحب رسول الله ﷺ الذي

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/٦.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ٥١٤/٢.

سمعت به؟ قال: نعم فذكرت له غزونا خثعم في الجاهلية وغزو بعضنا بعضا وما جاء الله به من الإلف، فقلت: يا عبد الله حتى متى أمر الناس هذا؟ قال: ما استقامت الأئمة، قال: ألم ترى السيد يكون في الحي أيتبعونه ويطيعونه فهم أولئك ما استقاموا (١).

وهاهي امرأة بحسن ضيافتها للرسول ﷺ تزيل شكوك المسلمين حول صيامه في هذا اليوم رغم أنه نهاهم عن صومه:

- عن ميمونة قالت: إن الناس شكوا في صيام رسول الله ﷺ يوم عرفة فأرسلت إليه أم الفضل بحلاب وهو واقف في الموقف فشرب منه والناس ينظرون (٢).

ونرى امرأة تستضيف الرسول ﷺ في رشد وإيجابية إيمانية عجيبة، حيث لم ترد السلام طمعا في المزيد من تسليم الرسول ﷺ. ثم أعدت الطعام بممة لا تقل عن همة الرجال لأنها من نبع الحب والإيمان. ثم طلبت من الرسول ﷺ بشجاعة الرأي أن يدعو لهم جميعا:

- عن ابن عباس أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: خرج رسول الله ﷺ عند الظهر فوجد أبا بكر في المسجد، فقال: ما أخرجك في هذه الساعة؟ فقال: أخرجني الذي أخرجك يا رسول الله، وجاء عمر بن الخطاب فقال: ما أخرجك يا ابن الخطاب؟ قال: أخرجني الذي أخرجكما فقع عمر، وأقبل رسول الله ﷺ يحدثهما، ثم قال: هل بكما قوة تنطلقان إلى هذا النخل، فتصبيان طعاما وشرابا وظلا؟ قلنا نعم، قال: سيروا بنا إلى منزل أبي الهيثم بن التيهان الأنصاري فتقدم رسول الله ﷺ بين أيدينا فسلم، فاستأذن ثلاث مرات، وأم الهيثم وراء الباب تسمع الكلام وتريد أن يزيد لها رسول الله ﷺ، فلما أراد أن ينصرف خرجت أم الهيثم خلفه فقالت: يا رسول الله قد سمعت والله تسليمتك، ولكن أردت أن تزيدنا من صلاتك، فقال لها رسول الله ﷺ خيرا، وقال لها: أين أبو الهيثم ما أراه؟ قالت هو قريب ذهب يستعذب لنا الماء، ادخلوا فإنه يأتي الساعة إن شاء الله فبسطت لنا بساطا تحت شجرة فجاء أبو الهيثم وفرح بهم وقرت عينه بهم، وصعد على نخلة فصرم عذقا، فقال رسول الله ﷺ: حسبك يا أبا الهيثم، قال: يا رسول الله تأكلون من رطبه ومن بسره ومن تذنبه، ثم أتاهم بماء فشربوا عليه، فقال رسول الله ﷺ: هذا من النعيم الذي تسألون عنه، وقام أبو الهيثم ليذبح لهم شاة، فقال رسول الله ﷺ: إياك

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ٤/٤٩٨، والدارمی فی سنن ١/٨١ - (بغاء: بغيته أبغيه بغيا طلبته وابتغيته وتبغيته مثله، والاسم البغاء وزان غراب. المصباح المنير ١/٧٩).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٤/٢٨٣، والطبراني في المعجم الكبير ٢٣/٢٦.

واللبون، وقامت أم الهيثم تعجن لهم وتخبز، ووضع رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رؤوسهم للقائلة، فانتبهوا وقد أدرك طعامهم، فوضع الطعام بين أيديهم فأكلوا وشبعوا وحمدوا الله، وردت عليهم أم الهيثم بقية العذق، فأكلوا من رطبه ومن تذنبه، فسلم عليهم رسول الله ﷺ ودعا لهم بخير، ثم قال لأبي الهيثم: إذا بلغك أن قد أتانا رقيق فأتنا، وقالت له أم الهيثم: لو دعوت لنا؟ قال: أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة، قال أبو الهيثم: فلما بلغني أنه أتى رسول الله ﷺ رقيق أتته فأعطاني رأساً فكاتبته على أربعين ألف درهم، فما رأيت رأساً كان أعظم بركة منه^(١).

وتبين الأحاديث التالية مشاعر المرأة الفياضة في إطعام الطعام وإفشاء السلام والتجاوب مع خير الأنام ﷺ قلباً وقالباً تشريعاً ومنهجاً، مما حقق للأمة السلام الاجتماعي والوحدة السياسية وكل معاني الحضارة الإنسانية:

- عن أنس أن جدته مليكة دعت النبي ﷺ بطعام صنعت له فأكل منه، ثم قال: قوموا فلنصل لكم فقمتم إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس فنضحته بماء، فقام رسول الله ﷺ وصفت أنا واليتيم من ورائه والعجوز من ورائنا، فصلى لنا ركعتين، ثم انصرف^(٢).

- وعن جابر قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاء رسول من عند امرأة من الأنصار فقال إن فلانة تدعوك، فقام رسول الله ﷺ وقمنا معه حتى انتهينا فبسطت لنا في صورة وهو النخل الملتف فأتت بشاة مشوية وذلك قبيل الظهر، فأكل رسول الله ﷺ وأكلنا معه، ثم قام رسول الله ﷺ فتوضأ وصلى الظهر، ثم إنها بعثت فقالت: يا رسول الله ألا أبعث لك ببقية أو بفضلة بقيت من الشاة؟ قال: بلى فأتي به فأكل رسول الله ﷺ وأكلنا معه، ثم قام فصلى ولم يتوضأ^(٣).

- وأتى النبي ﷺ بسراً وهو راكب على بغلة، فقال: عبد الله بن بسر كنا ندعوها حمارة شامية، فدخل رسول الله ﷺ وأصحابه، فقامت أمي فوضعت لرسول الله ﷺ قطيفة على حصير في البيت جعلت توترها له، فلما جلس عليها رسول الله ﷺ لطئت بالحصير (فقدم لهم أبي تمرا أشغلهم به، وأمر أمي فصنعت لهم جشيشاً وكنت أنا الخادم فيما بين أبي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١٦٠٩/٣، والحاكم في المستدرک ٣٢٤/٣، وأبو يعلى في مسنده ٨٠/١ -

(صرم: يصرم النخل أي حين يقطع ثمر النخل. النهاية ٢٦/٣).

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ كتاب قصر الصلاة في السفر باب جامع سبعة الضحى رقم (٣٤).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٩١/٣.

وأمي، وكان أبي القائم على رسول الله ﷺ وأصحابه، فلما فرغت أمي من الجشيش جئت أحمله حتى وضعته بين أيديهم فأكلوا، ثم سقاهم فضيخا فشرب ﷺ وسقى الذي عن يمينه، ثم أخذت القدح حين نفذ ما فيه فملأته فجئت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أعط الذي انتهى إليه القدح، فلما فرغ رسول الله ﷺ من الطعام دعا لنا فقال: اللهم ارحمهم واغفر لهم وبارك لهم في رزقهم! فما زلنا نتعرف من الله عز وجل السعة في الرزق (١). وعن عبد الله بن بسر قال: قال أبي لأمي: لو صنعت طعاما لرسول الله ﷺ! فصنعت ثريدة، فانطلق أبي فدعا رسول الله ﷺ، فوضع النبي ﷺ يده على ذروهما وقال: خذوا بسم الله! فأخذوا من نواحيها، فلما طعموا قال النبي ﷺ: اللهم اغفر لهم وارحمهم وبارك لهم في رزقهم (٢).

وبلغ من فعالية المرأة المسلمة في عصر النبوة أنها كانت تنفق من أموالها في سبيل الله ما وسعها الجهد، فتوفر المسكن والمأكل للوفود التي تأتي لتعلن إسلامها:

— عن عامر بن شراحيل الشعبي - شعب همدان - أنه سأل فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس وكانت من المهاجرات الأول فقال: حديثي حديثا سمعته من رسول الله ﷺ لا تسنديه إلى أحد غيره: فقالت: لئن شئت لأفعلن، فقال لها: أجل حديثي: فقالت: نكحت بن المغيرة وهو من خيار شباب قريش يومئذ فأصيب في أول الجهاد مع رسول الله ﷺ، فلما تأيمت خطبني عبد الرحمن بن عوف في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ وخطبني رسول الله ﷺ على مولاه أسامة بن زيد، وكنت قد حدثت أن رسول الله ﷺ قال: من أحبني فليحب أسامة، فلما كلمني رسول الله ﷺ قلت: أمري بيدك فألكحني من شئت، فقال: انتقلي إلى أم شريك - وأم شريك امرأة غنية من الأنصار عظيمة النفقة في سبيل الله يترل عليها الضيفان - فقلت: سأفعل، فقال: لا تفعلي إن أم شريك امرأة كثيرة الضيفان فإني أكره أن يسقط عنك خمارك أو ينكشف الثوب عن ساقيك فيرى القوم منك بعض ما تكرهين، ولكن انتقلي إلى بن عمك عبد الله بن عمرو بن أم مكتوم وهو رجل من بني فهر (٣).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٣١/٢، وابن حجر في فتح الباري ٥٧٤/٩ - (لطئت: لطيت بالأرض يلطأ مهموز مثل لصق وزنا ومعنى. المصباح المنير ٧٦٠/٢ - (فضيخا: الفضيخ: شراب يتخذ من البسر وحده من غير أن تمسه النار. المختار ٣٩٧.

(٢) أخرجه الدرامي في السنن ١٣٠/٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٢٨٣/٧.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب قصة الجساسة (٢٩٤٢) عامر بن شراحيل الشعبي شعب همدان أنه سأل فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس وكانت من المهاجرات الأول فقال: ... به

٥ - دورها في التكافل الاجتماعي

إن دور المرأة في هذا المجال يبين أنها رحم الأمة ومصدر الرحمة والحنان فيها، ويوم تحرم الأمة من هذا الدور الإيجابي للمرأة فإن معناه نضوب المشاعر وجفاف العواطف، وحرمان الإنسانية من أغلى معاني الحب والعطاء. وقد استنهض الرسول ﷺ هممة النساء في فعل الخيرات في كل المجالات، وهو ما نراه في الأحاديث التالية:

فمن ناحية التكافل مع الفقراء والمحتاجين:

بين الرسول ﷺ أن المرأة لها أجر في التصدق حتى ولو كان من مال زوجها؛ طالما يحكم هذا التصدق ضوابط الشرع وصدق النية:

- فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الله تعالى يدخل بلقمة الخبز وقبضة التمر ومثله مما ينفع المسكين ثلاثة الجنة صاحب البيت الأمر به، والزوجة المصلحة والخدام الذي يناول المسكين^(١).

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال النبي ﷺ: إذا تصدقت المرأة من بيت زوجها غير مفسدة فلها أجرها، ولزوجها أجر ما اكتسب، ولها أجر ما نوت، وللخازن مثل ذلك^(٢).

من ناحية التكافل مع الأهل والأقارب:

يدعو الرسول ﷺ المرأة إلى التفاعل الإيجابي مع الأهل والأقارب لتوطيد صلات المحبة والترابط في المجتمعات الإيمانية، وفي نفس الوقت رفع شأن المرأة المعنوي في الأمة؛ لمساهمتها المادية مع كل من يحتاج إليها:

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى ثم انصرف فوعظ الناس وأمرهم بالصدقة فقال: أيها الناس تصدقوا، فمر على النساء، فقال: يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار، فقلن وبم ذلك يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن يا معشر النساء ثم انصرف، فلما صار إلى منزله جاءت زينب امرأة بن مسعود تستأذن عليه فقيل: يا رسول الله هذه زينب، فقال: أي الزيناب؟

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ١٤٩/٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٤١/٢، ١٤٢، والترمذي في السنن (٦٧١)، والإمام أحمد في مسنده

فقيل: امرأة بن مسعود، قال: نعم ائذنوا لها، فأذن لها، قالت: يا نبي الله إنك أمرت اليوم بالصدقة وكان عندي حلي لي فأردت أن أتصدق به، فزعم بن مسعود أنه وولده أحق من تصدقت به عليهم، فقال النبي ﷺ: صدق ابن مسعود؛ زوجك وولدك أحق من تصدقت به عليهم^(١).

- وعن ميمونة قالت: كانت لي جارية فأعتقتها، فدخل على النبي ﷺ فأخبرته، فقال: أجرك الله أما إنك لو كنت أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك^(٢).

- وعن الهلالية أمها قالت: يا رسول الله إني أردت أن أعتق هذه قال: أفلا تفدين بها بنت أختك أو بنت أخيك من رعاية الغنم^(٣).

ومن ناحية التكافل مع الجيران بالهدايا والكلم الطيب:

يعتبر التكافل مع الجيران سواء المادي أو المعنوي من أساسيات تحقيق السلام الاجتماعي في الأمة وتحقيق وحدتها السياسية والمعنوية:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يا نساء المسلمين لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة^(٤).

- عن أبي هريرة ؓ قال: قيل للنبي ﷺ إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار وتفعل الخيرات وتصدق وتؤذي جيرانها بلسانها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا خير فيها هي من أهل النار، وفلانة تصلي المكتوبة وتصدق بالأنوار من الأقط ولا تؤذي أحدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هي من أهل الجنة^(٥).

وبين الحديث التالي رقة مشاعر المرأة وإحساسها باحتياج الرسول ﷺ إلى كساء فصنعت بيديها تكافلا ووفاء لصاحب الفضل في الهدايا، وهذا معناه مساهمتها في إعلاء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٤٩/٢، والحاكم في المستدرک ٤٦٠/٣.

(٢) أخرجه أبو داود في السنن ١٣٢/٢.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٤٣٨/٢٣.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها (٢٠١/٣). ومسلم كتاب البر باب الوصية بالجار رقم (١٤٣) - (فرسن: الفرسن: عظم قليل اللحم، وهو خف البعير، كالحافر للذابة، وقد يستعار للشاة فيقال فرسن شاة، والذي للشاة هو الظلف. والنون زائدة، وقيل أصلية. النهاية [٤٢٩/٣]).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرک ١٨٣/٤، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٢٤٢/٣ - (بالأنوار من الأقط: الأنوار جمع نور وهي قطعة من الأقط، وهو لبن جامد مستحجر ومنه الحديث (توضأوا مما مست النار ولو من نور أقط) يريد غسل اليد والقدم منه. النهاية [٢٢٨/١] وتصدق أي تصدق).

راية الحق بمساندة قائد الدعوة، ووضع منارات هدى لكل النساء على مدى العصور في تحقيق التكافل بكل ما تملك المرأة من جهد مادي ومعنوي:

- عن سهل بن سعد قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ ببردة، قال سهل: هي شملة منسوجة فيها حاشيتها، فقالت: يا رسول الله جئتك أكسوك هذه، فأخذها رسول الله ﷺ وكان محتاجا إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من أصحابه فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه أكسنيها، فقال: نعم، فلما قام رسول الله ﷺ لأمه أصحابه وقالوا: ما أحسنت حين رأيت رسول الله ﷺ أخذها محتاجا إليها، ثم سألته إياها وقد عرفت أنه لا يسأل شيئا فيمنعه، قال: والله ما حملني على ذلك إلا رجوت بركتها حين لبسها رسول الله ﷺ لعلي أكفن فيها (١).

ومن ناحية الاشتراك في تقديم الخدمات للمسلمين:

نرى امرأة مخلصه لا تملك إلا ابنها لتقدمه هدية غالية إلى الرسول ﷺ وهذا يدل على إيجابية المرأة مع متطلبات الدعوة؛ بصرف النظر عن مواردها المالية حيث روى أنس ابنها فقال:

- قدم رسول الله ﷺ المدينة وأنا يومئذ ابن ثمان سنين فذهبت بي أمي إليه فقالت: يا رسول الله! إن رجال الأنصار ونساءهم قد أتخفوك غيري، وإني لم أجد ما أتخفك به إلا ابني هذا فتقبله مني بخدمك ما بدا لك! فخدمت رسول الله ﷺ عشر سنين لم يضرني قط ولم يسبني ولم يعبس في وجهي (٢).

ونرى امرأة أخرى لا تملك إلا بيتها؛ فتضعه تحت خدمة رجال الدعوة؛ حيث يؤذن بلال عليه الفجر؛ نظراً لطول المتزل، مما يساعد على وصول الصوت إلى أقصى مدى ممكن:

- وعن عروة عن امرأة من بني النجار قالت: كان بيتي من أطول بيت حول المسجد وكان بلال يؤذن عليه الفجر كل غداة فيأتي بسحر فيجلس على البيت ينتظر الفجر، فإذا رآه تمطى ثم يؤذن (٣).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٣٣/٦.

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير ١٠١/٢، والأوسط ١٢٣/٦.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن ١٤٣/١، والبيهقي في السنن الكبرى ٤٢٥/١.

٦ - دورها نحو المرضى

ساهمت المرأة في هذا المجال بكل جهدها سواء عيادة المرضى أو علاجهم؛ لأنها تملك من الحنان والرحمة ما يخفف عن المريض معاناة المرض وعليها من المسؤوليات الإيمانية ما يدفعها إلى هذا الدور حبا في الخيرات ومساعدة في مرضاة الحق اتباعا لقول الرسول ﷺ: - عن أبي هريرة قال قال رسول ﷺ: من زار مريضا أو أخا في الله ناداه مناد أن طبت وطاب ممشاك وتبأت من الجنة منزلا (١).

- عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: عائد المريض يخوض في الرحمة فإذا جلس عنده غمرته الرحمة ومن تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده على وجهه أو على يده فيسأله كيف هو وتمام تحيتكم بينكم المصافحة (٢).

وإن هذا الدور تزداد أهميته في عصرنا الحاضر نتيجة زيادة السكان وتلوث البيئة، وما يتبعه من زيادة الأمراض وعدد المرضى، وهذا يستلزم دوراً أكثر إيجابية من المرأة سواء في عيادة المرضى والتخفيف من آلامهم أو المشاركة في علاجهم أو التبرع للمستشفيات، أو المساهمة في تقديم الخدمات لتلك المستشفيات، إلى آخر وجوه المشاركة الفعالة نحو المرضى. وتسجل الأحاديث كيف أسهمت المرأة في عيادة المرضى بأدب الإيمان وإيجابية الإسلام، حيث ذهبت جماعة من النساء لعيادة الرسول ﷺ. وكانت المرأة تملك شجاعة الرأي أن تخاطب الرسول ﷺ وتطلب منه أن يدعو الله أن يشفيه. واستفدنا من شجاعة رأي تلك المرأة خبرة إيمانية تزيد في رضانا بقضاء الله، حيث إن أشد الناس ابتلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم: فعن أبي عبيدة بن حذيفة عن عمته فاطمة، قالت: أتينا رسول الله ﷺ في نساء نعوده، وقد حم فأمر بسقاء فعلق على شجرة ثم اضطجع تحته، فجعل يقطر على فواقه من شدة ما يجد من الحمى، فقلت يا رسول الله لو دعوت الله أن يكشف عنك، فقال: إن أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٣).

(١) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في زيارة الإخوان (٢٠٠٨) عن أبي هريرة قال قال

رسول الله ﷺ: ... به، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب وأبو سنان اسمه عيسى بن سنان وقاله حماد بن سلمة عن ثابت عن أبي رافع عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم شيئا من هذا.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥ / ٢٦٨) عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم: ... به.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤٦، ٢٤٦.

- وعن عائشة قالت: دخلت أم بشر بن البراء بن معرور على رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه فمسته فقالت: ما وجدت مثل وعك عليك على أحد قال: كما يضاعف لنا الأجر كذلك يضاعف علينا البلاء، ما يقول الناس؟ قالت: زعموا أن برسول الله ﷺ ذات الجنب، قال: ما كان الله ليسلطها علي إنما هي همزة من الشيطان ولكنه من الأكلة التي أكلت أنا وابنك يوم خير، ما زال يصيبني منها عداد حتى كان هذا أو انقطاع أمهري^(١).

وهذه أحاديث تبين دور المرأة في علاج المرضى؛ حيث عالجت ابنة هشام بن المغيرة عمار بن ياسر في مرضه: عن خالد بن الوليد عن ابنة هشام بن الوليد بن المغيرة وكانت ترض عمارا قالت: جاء معاوية إلى عمار يعوده فلما خرج من عنده قال: اللهم لا تجعل منيته بأيدينا! فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقتل عمارا الفئة الباغية^(٢).

كما عالجت أم العلاء عثمان بن مظعون في مرضه: فعن خاتمة بن زيد بن ثابت أن أم العلاء امرأة من نسائهم بايعت النبي ﷺ أخبرته: أن عثمان بن مظعون طار لهم في السكينة حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين قالت أم العلاء: فاشتكى عثمان عندنا فمرضته حتى توفي وجعلناه في أثوابه فدخل علينا النبي ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال النبي ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه؟ قالت: قلت: لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله فمن، قال: أما هو فقد جاءه والله اليقين والله إني لأرجو له الخير وما أدري والله وأنا رسول الله ما يفعل بي، قالت: فوالله لا أركي أحدا بعده، قالت: فأحزني ذلك، فمنت فأريت لعثمان بن مظعون عينا تجري فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: ذلك عمله^(٣). وبلغت المرأة حدا لا يبارى في الفاعلية والتكريم؛ حيث أقام الرسول ﷺ خيمة في المسجد لسعد بن معاذ، وكانت تشرف على مداواته السيدة ربيعة؛ نظراً لمهارتها في هذا المجال: روى عن عائشة رضي الله عنها قالت: أصيب سعد يوم الخندق... فضرب النبي ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب. قال الحافظ بن حجر:... وأن رسول الله ﷺ جعل سعدا في خيمة ربيعة عند مسجده وكانت امرأة تدوي الجرحى فقال: اجعلوه في خيمتها لأعوده من قريب^(٤).

(١) أخرجه ابن حجر في الفتح ٣١/٨ - (عداد: العداد: وجع اللديغ، وذلك إذا تمت له سنة من يوم لدغ هاج به الأمل. النهاية ١٨٩/٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٣٥/٣، والترمذي في السنن ٦٦٩/٥.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المناقب (٣٩٢٩) عن خاتمة بن زيد بن ثابت أن أم العلاء امرأة من نسائهم بايعت النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته:... به

(٤) فتح الباري ٧ / ٤١٢.

٧ - دورها في رفع الظلم عن المظلومين

إن هذا الدور يبين مدى الإيجابية التي منحها الإسلام للمرأة، حيث تنبع تلك الإيجابية من ينباع الإسلام العذبة التي تدعو إلى تفاعل المسلم مع أخيه في كل المواقف. ونعرض أحاديث تبين إلى أي مدى ارتفع الإسلام بمكانة المرأة، وإلى أي مدى أعطاه حرية التصرف والتنقل والتعبير عن الرأي مما جعلها تمارس دوراً فعالاً في الحياة، مخاطبة أعلى سلطة في الدولة:

- عن قتادة عن أبي حرب بن الأسود الدؤلي عن أبيه، قال: رفع إلى عمر امرأة ولدت لستة أشهر فأراد عمر أن يرجعها فجاءت أختها إلى علي بن أبي طالب فقالت: إن عمر يرمي أختي فأنشدك الله إن كنت تعلم أن لها عذراً لما أخبرني به فقال علي: إن لها عذراً فكبرت تكبيرة سمعها عمر ومن عنده، فانطلقت إلى عمر فقالت: إن علياً زعم أن لأختي عذراً، فأرسل عمر إلى علي ما عذرها؟ قال: إن الله عز وجل يقول: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ)، فقال: (حَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) فالحمل ستة أشهر والفصل أربعة وعشرون شهراً فخلى عمر سبيلها، قال: ثم إنها ولدت بعد ذلك لستة أشهر^(١).

- عن أبي بكر أحمد بن يحيى البلاذري قال: كان ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهري بالسراة فوثبت دوس عليه ليقتلوه، فسعى حتى دخل بيت امرأة يقال لها أم جميل، واتبعه رجل لضربه فوقع ذباب السيف على الباب، وقامت في وجوههم فذبتهم، ونادت قومها فمنعوه لها، فلما استخلف عمر بن الخطاب ظنت أنه أخوه فأنت المدينة، فلما كلمته عرف القصة فقال: لست بأخيه إلا في الإسلام وهو غاز بالشام وقد عرفت منتك عليه، فأعطاهما علي أهما ابنة السبيل^(٢).

٨ - دورها في إقامة حدود الله والشهادة

لقد حصلت المرأة في عصر النبوة على امتيازات لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية؛ حيث تولت ما يشبه وظيفة القضاء؛ حيث نجد السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها تقوم بتنفيذ الحكم على أمة لها زنت؛ فتقوم بجلدها بنفسها؛ ونجد الرسول ﷺ يميز شهادتها في النكاح:

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٣٥٠/٧.

(٢) انظر السيرة النبوية ٢٦٣/٢.

- عن الحسن بن محمد أن فاطمة بنت محمد ﷺ جلدت أمة لها الحد لأنها زنت^(١).
- ونجد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجيز شهادة امرأة واحدة في الاستهلال -أي استقبال المولود- وهذا يدل على كمال الأهلية للمرأة والاعتماد على أقوالها في الحالات التي لا يستطيع عليها غيرها:
- فعن عمر قال: أجاز رسول الله ﷺ شهادة رجل وامرأتين في النكاح^(٢).
- وعن ابن شهاب أن عمر بن الخطاب أجاز شهادة امرأة في الاستهلال^(٣).

٩ - دورها في الإصلاح بين الناس

إن هذا الدور يبين أيضا إيجابية المرأة المسلمة ونضجها، وقدرتها على تحقيق السلام الاجتماعي في الأمة؛ مما يستنهض همة النساء في عصرنا الحاضر لممارسة دورهن في تحقيق السلام الاجتماعي والوحدة الإيمانية في الأمة، ونعرض فيما يلي بعض الأحاديث التي توضح دور المرأة في هذا المجال في عصر النبوة:

فنرى السيدة عائشة رضي الله عنها تقوم بدور القاضي الذي يقضي بين المتنازعين لحل الخلاف بينهما سواء كان معنوياً أو مادياً:

- عن إسحاق بن طلحة قال: دخلت على أم المؤمنين عائشة وعندها عائشة بنت طلحة وهي تقول لأُمها أم كلثوم بنت أبي بكر: أنا خير منك وأبي خير من أبيك، فجعلت أمها تسبها فقالت عائشة: ألا أقضي بينكما؟ قالت: بلى! قالت: فإن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ فقال له يا أبا بكر! أنت عتيق الله من النار، فمن يومئذ سمي عتيقا، ودخل طلحة بن عبيد الله فقال: أنت يا طلحة ممن قضى نحبه^(٤).

ونرى زينب بنت أم سلمة يستعينون بها في الإصلاح بين الرجل وزوجته؛ لفقهها وتنفيذاً لقول الحق جل شأنه: (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) (النساء: ١١٤)

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ١٦٦/٨.

(٢) أخرجه الدارقطني في سنن ١٥٦/٢.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٤٨٥/٧، وابن أبي شيبة في مصنفه ٣٢٩/٤.

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢٧٩/١٥، والحاكم في المستدرک ٤٥٠/٢.

- عن أبي رافع قال: قالت لي مولاتي نبلة ابنة العجماء: كل مملوك لها حر وكل مال لها هدى وهي يهودية ونصرانية إن لم تطلق امرأتك وتفرق بينك وبين امرأتك، فأتيته زينب بنت أم سلمة - وكان إذا ذكرت امرأة بفقه ذكرت زينب - فجاءت معي إليها فقالت: أفي البيت هاروت وماروت؟ فقال: يا زينب! جعلني الله فداك! إنها قالت: كل مملوك لها حر وهي يهودية ونصرانية، فقالت زينب: يهودية ونصرانية! خلي بين الرجل وامرأته، فكأنها لم تقبل ذلك؛ فلقيت حفصة فأرسلت معي إليها، فقال: يا أم المؤمنين! جعلني الله فداك! قالت: كل مملوك لها حر وكل مال لها هدى وهي يهودية ونصرانية، فقالت حفصة: يهودية ونصرانية! خلي بين الرجل وبين امرأته، فكأنها أبت؛ فأتيته عبد الله بن عمر فانطلق معي إليها، فلما سلم عرفت صوته فقالت: بأبي أنت وبأمي أبوك! فقال: أمن حجارة أنت أم من حديد أم من أي شيء أنت! أفتتكت زينب وأفتتكت أم المؤمنين فلم تقبلي منهما، قالت: يا أبا عبد الرحمن! جعلني الله فداك! إنها قالت: كل مملوك لها حر وكل مال لها هدى وهي يهودية ونصرانية، قال: يهودية ونصرانية! كفرني عن يمينك، وخلي بين الرجل وامرأته (١).

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٤٨٧/٨.

الفصل الخامس

دور المرأة في النقد الإيجابي البناء

لن نكون مبالغين إذا قلنا إن المرأة حصلت في عهد النبوة وعصر الخلفاء الراشدين على حقوق لم تكن تحلم بها أية امرأة في التاريخ من قبل.. ويمكن القول أن حق التعبير عن الرأي في مقدمة تلك الحقوق، حيث اهتم الإسلام بفتح مجالات الرشد العقلي والقولي للمرأة وذلك بهدف خلق جيل رشيد من المسلمين، حيث المرأة هي المدرسة الأولى التي تتأهل فيها مدارك الأبناء لكيفية التعامل في الحياة^(١).

إن النقد البناء معناه ارتفاع ببيان الفكر الإسلامي في أرجاء الأمة؛ فهو يهدف إلى تصحيح المسار وتدعيم أركان الحق والعدل، وهو مواءمة دائمة بين عقيدة المسلم، وبين ما يجد من مشكلات العصر واحتياجاته ومتغيراته؛ ولذلك فالنقد البناء يعتبر الشريان الرئيس الذي يعد الأمة الإسلامية بنبع الحياة المتجددة والفكر المتدفق، وإذا توقف هذا الشريان جفت ينابيع الفكر في الأمة وأصابها الموت^(٢).

ونحن نعرض فيما يلي الأحاديث التي تبين نماذج متعددة من توفر المناخ الاجتماعي للمرأة في التعبير عن رأيها بطريقة قد يحسدها عليها نساء العصر الحديث إذا تعرفنا على الأبعاد الحقيقية التي وصلت إليها المرأة المسلمة في عصر النبوة؛ وذلك لاستنهاض همة المرأة المسلمة لإحياء التراث الإسلامي العريق واستلهاهم خطى من سبقنها في عصر النبوة؛ حيث تحققت الحرية والمساواة في أجلى صورها.

فهنالك أحاديث تبين قوة شخصية المرأة في مواجهة الحاكم . فبعد أن كانت المرأة في ظلمات الجاهلية ، مهضومة الحقوق ، منبوذة اجتماعياً ، أصبحت بنور الإسلام تواجه أعلى سلطة في الدولة لا تخشى في الحق لومة لائم، حيث نرى امرأة من قريش تعترض على أمي المؤمنين وتوجهه إلى الطريق القويم باتباع أوامر الحق فيما يخص مهور النساء؛ وبذلك تكون المرأة المسلمة قد سبقت المرأة الغربية في كل مجالات الديمقراطية التي يتشدقون بها:

(١) المرأة والعمل السياسي. رؤية إسلامية-هبة رؤوف عزت. المعهد العالي للفكر الإسلامي.

(٢) موسوعة أصول الفكر السياسي والاجتماعي والاقتصادي من نبع السنة الشريفة وهدي الخلفاء الراشدين.

خديجة البراوي. الناشر: دار السلام للطباعة والنشر.

- فعن الشعبي قال: خطب عمر بن الخطاب فحمد الله وأثنى عليه وقال: ألا لا تغالوا في صداق النساء ، وأنه لا يبلغني عن أحد ساق أكثر من شيء ساقه رسول الله ﷺ أو سيق إليه إلا جعلت فضل ذلك في بيت المال - ثم نزل ، فعرضت له امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين! لكتاب الله أحق أن يتبع أم قولك؟ قال: كتاب الله ، فما ذاك؟ قالت: نهيت الناس أنفا أن يتغالوا في صداق النساء ، والله تعالى يقول في كتابه (وَأَتَيْتُمُ إِخْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا) فقال عمر: كل أحد أفقه من عمر - مرتين أو ثلاثا! ثم رجع إلى المنبر فقال للناس: إني كنت نهيتكم أن تغالوا في صداق النساء ، فليفعل رجل في ماله ما بدا له^(١) .

- وعن دور المرأة الريادي في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يحقق إعلاء راية الحق ورقى المجتمع الإسلامي نذكر تلك الأحاديث التي تبين إلى أي مدى حصلت المرأة على حقها في التعبير عن رأيها:

- روي عن عائشة أنها سمعت عروة بعد العتمة فقالت: ما هذا الحديث بعد العتمة؟ ما رأيت رسول الله ﷺ راقدا قط قبلها ولا متحدثا بعدها إما مصليا فيغتم أو راقدا فيسلم^(٢).

- وعن أبي الأسود قال: دخل معاوية على عائشة فقالت: ما حملك على قتل أهل عذراء حجر وأصحابه؟ فقال: يا أم المؤمنين! إني رأيت قتلهم صلاحا للأمة وبقاءهم فسادا للأمة ، فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: سيقتل بعذراء ناس يغضب الله لهم وأهل السماء^(٣) .

- وتصحح السيدة عائشة رضي الله عنها فتوى الصحابة للنساء، وتضع أصول السنة الشريفة في التيسير على النساء:

- عن عبيد بن عمير قال: بلغ عائشة أن عبد الله بن عمرو يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن فقالت: يا عجباً لابن عمرو هذا يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن! أفلا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهن؟ قد كنت أنا ورسول الله ﷺ نغتسل من إناء واحد فلا أزيد أن أفرغ على رأسي ثلاث إفراغات^(٤).

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، باب لا وقت في الصداق كثر أو قل قال الشافعي رحمه الله لتركه النهي عن القنطار وهو كثير وتركه حد القليل ٢٣٣/٧ .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٥٦٢/١ ، (ح ٢١٣٧) .

(٣) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية ٥٥/٨ ، والشوكاني في فيض القدير ٤ / ١٢٦ .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الحيض باب حكم ضفائر المغتسلة رقم/٣٣١ .

- وتوجه السيدة عائشة رضي الله عنها النقد البناء إلى الصحابة بحيث تهديهم إلى الطريق القويم الذي يتفق مع مواصفات الرجولة الحقة ورسالة الإسلام الهادفة:

- فعن جابر بن عبد الله قال: قيل لعائشة: إن ناسا يتناولون أصحاب رسول الله ﷺ حتى إنهم يتناولون أبا بكر وعمر، فقالت: أتعجبون من هذا؟ إنما قطع عنهم العمل فأحب الله أن لا يقطع عنهم الأجر^(١).

- فعن أنس قال: بينا عائشة في بيتها إذ سمعت صوتا رجت منه المدينة فقالت: ما هذا؟ فقالوا: غير قدمت لعبد الرحمن بن عوف من الشام وكانت سبعمائة فقالت عائشة: أما! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبوا، فبلغ ذلك عبد الرحمن فأتاها فسأها عما بلغه فحشته، قال: فإني أشهدك أنها بأحماها وأفتابها وأحلاسها في سبيل الله^(٢).

- فعن عائشة قالت: قدمنا من حج أو عمرة فتلقينا بذي الحليفة وكان غلمان الأنصار يتلقون أهليهم فلقوا أسيد بن حضير فنعوا له امرأته فتقع وجعل يبكي، فقلت: غفر الله لك! أنت صاحب رسول الله ﷺ ولك من السابقة والقدم مالك وأنت تبكي على امرأة! قالت: فكشف رأسه وقال: صدقت، لعمرى ليحق أن لا أبكي على أحد بعد سعد بن معاذ وقد قال له رسول الله ﷺ ما قال: قلت: وما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: قال: لقد اهتز العرش لوفاة سعد بن معاذ، قالت: وهو يسير بيني وبين رسول الله ﷺ^(٣).

- وهامي السيدة أم سلمة رضي الله عنها ترشد سلوك المسلمين في الصلاة وتعلمهم آداب الرسول ﷺ في الخشوع والحفاظ على قدسية السجود أمام الله:

- فعن أبي صالح مولى لطلحة بن عبيد الله قال: كنت عند أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فأتاها ذو قرابة لها فقام يصلي، فلما ذهب يسجد نفخ فقالت: لا تفعل فإن رسول الله ﷺ كان يقول لغلام أسود يا رياح ترب وجهك^(٤).

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ٥٣٠/١.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٧٥/٤، والترمذي في السنن ٦٢٥/٥ - حبوا: الحبو: أن يمشي على يديه وركبتيه، أو إسته. النهاية ٣٣١/١.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٣٧٦/٧، والإمام أحمد في مسنده ٣٥٢/٤.

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢٤١/٥، والحاكم في المستدرک ٤٠٤/١، وعبد الرزاق في مصنفه ٦٧/٢.

- وتستنهض السيدة أم سلمة رضي الله عنها غيرة الصحابة على رسول الله ﷺ بمنع سب من يحبه:

- روى عن أبي عبد الله الجدلي قال: قالت لي أم سلمة: يا أبا عبد الله! أيسب رسول الله ﷺ فيكم ثم لا تغيرون؟ قلت: ومن يسب رسول الله ﷺ؟ قالت: يسب علي ومن يحبه وقد كان رسول الله ﷺ يحبه (١).

- ونرى السيدة ميمونة رضي الله عنها توجه أحد الصحابة الكبار وتعلمه كيف أن الحيضة عند المرأة لا تمنع التواصل النفسي بين الزوجين وقيام المرأة بكل واجباتها نحو الزوج إلا الجماع:

- عن مسور عن أبيه دخل ابن عباس على ميمونة فقالت: أي بني ما لي أراك شعثا رأسك؟ قال: إن أم عمار مرجلتني حائض؛ قالت: أي بني وأين الحيضة من اليد، كان رسول الله ﷺ يضع رأسه في حجر إحدانا وهي مضطجعة حائضا قد علم ذلك، فيتكى عليها فيتلو القرآن وهو متكئ عليها، ويدخل عليها قاعدة وهي حائض فيتكى في حجرها فيتلو القرآن وتقوم وهي حائض فتبسط الخمرة في مصلاه فيصلي عليها وأين الحيضة من اليد (٢).

- والسيدة حفصة رضي الله عنها تشترك مع الصحابة في دعوة أبيها عمر بن الخطاب إلى الاعتدال في الزهد الشديد الذي ألزم به نفسه، وقد طلبوا اشتراكها لجرأتها في مخاطبة الخليفة الذي يرهبونه رهبة شديدة:

- روى عن عكرمة بن خالد أن حفصة وابن مطيع وعبد الله ابن عمر كلموا عمر بن الخطاب فقالوا: لو أكلت طعاما طيبا كان أقوى لك على الحق، فقال: قد علمت أنه ليس منكم إلا ناصح ولكني تركت صاحبي - يعني رسول الله ﷺ وأبا بكر - على جادة، فإن تركت جادتهما لم أدركهما في المنزل (٣).

ولم يقتصر الأمر في النقد البناء على أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، بل امتد وسرى في النساء كلهن اقتداءً بهن؛ فنرى زينب بنت أبي سلمة توجه الصحابة إلى حسن اختيار الاسم اتباعاً لنهج النبوة:

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ١٣٠/٣، وابن أبي شيبه في مصنفه ٣٧١/٦، والإمام أحمد في مسنده ٣٢٣/٦.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣٣٤/٦.

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٤٢/٩، وابن كثير في البداية والنهاية ١٣٤/٧.

- فعن محمد بن عمرو بن عطاء أن زينب بنت أبي سلمة سألته: ما سميت ابنتك؟ قال: سميتها برة، قالت: إن رسول الله ﷺ قد نهي عن هذا الاسم، سميت برة، فقال رسول الله ﷺ: لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البر منكم، فقالوا: ما نسميها؟ قال: سموها زينب (١).

- ونرى أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنها تستدرك على أخيها عبد الله بن عمر وتلقنه بالنقد البناء فقه الإسلام، وكيفية العمل بقول الحق جل شأنه: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) (الفرقان: ٦٣):
- فعن نافع قال: لقي ابن عمر ابن صائد في بعض طرق المدينة فقال له قولاً أغضبه فانتفخ حتى ملأ السكة. فدخل ابن عمر على حفصة وقد بلغها فقالت له: رحك الله ما أردت من ابن صائد! أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: إنما يخرج من غصبة يغضبها؟ (٢).
- ونرى أم يعقوب تحاور عبد الله بن مسعود بما يدل على مدى ما كانت تتمتع به المرأة من حرية في النقد الإيجابي البناء، وهذا لا ينتج إلا عن فقه يسمح بالقدرة على النقد:
- عن عبد الله بن مسعود: قال: لعن الله الواشيات والمتوشحات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله. فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها أم يعقوب - وكانت تقرأ القرآن - فجاءت فقالت: إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت فقال: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ومن هو في كتاب الله؟ فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول. قال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه. أما قرأت: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) قالت: بلى. قال: فإنه قد نهي عنه. قال: فإني أرى أهلك يفعلونه. قال: فاذهي فانظري فذهبت فنظرت فلم تر من حاجتها شيئاً فقال: لو كانت كذلك ما جامعتها (٣).

- قال الحافظ ابن حجر: ... وقيل: كانت المرأة رأت ذلك حقيقة وإنما ابن مسعود أنكر (على زوجه) فأزالته فلهذا لما دخلت المرأة لم تر ما كانت رأت قبل ذلك... وقال أيضاً: ومراجعة أم يعقوب لابن مسعود تدل على أن لها إدراكاً (٤).

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن ٢/١٢٣٠، وأبو داود في السنن ٤/٢٨٨.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراف الساعة (٢٩٣٢) عن نافع قال: لقي ابن عمر بن صائد في بعض طرق المدينة: ... به.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب وما آتاكم الرسول فخذوه (٤٨٨٦) عن عبد الله قال: ... به.

(٤) فتح الباري ١٢/٤٩٦.

- ونرى أم الدرداء تنكر على عبد الملك بن مروان بعض سلوكه بما يعطي مزيداً من الإيضاح حول قدرة المرأة المسلمة على النقد الإيجابي الذي يصحح مسار الأمة ويعلم أبناءها كيف يعيشون الإسلام واقعاً حياً؛ أي منهاجاً تطبيقياً، وليس شريعة تعبدية في الوجدان؛ فإذا تفقّهت المرأة في العصر الحديث الفقه الواعي المستنير؛ استطاعت أن تقوم بدور كبير في ترشيد المواطنين والارتقاء بسلوكياتهم الإيمانية:

- فعن زيد بن أسلم أن عبد الملك بن مروان بعث إلى أم الدرداء بأنجاد من عنده فلما أن كان ذات ليلة قام عبد الملك من الليل فدعا خادمه فكأنه أبطأ عليه فلعنه فلما صبح قالت له أم الدرداء: سمعتك الليلة لعنت خادمك حين دعوته فقالت: سمعت أبا الدرداء يقول: قال رسول الله ﷺ: "لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة" (١).

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة (٢٥٩٨) عن زيد بن أسلم أن عبد الملك بن مروان بعث إلى أم الدرداء... به.

الفصل السادس

دور المرأة في دفع عجلة التنمية

إن التنمية تعني زيادة الإنتاج في جميع المجالات، وهي قبل هذا وذاك تعني تنمية الإنسان الذي يقود حركة دفع الإنتاج، وهذا ما قام به الإسلام على جميع المستويات؛ يحفز همة الإنسان ذكراً كان أو أنثى إلى الاستثمار. فالشريعة تجعل عملية المشاركة في التنمية الاقتصادية واجب مقدس على جميع أبناء الأمة؛ كل بحسب قدراته ومهاراته، على أن يتم ذلك الواجب في حدود مبادئ شريفة تحقق الصالح العام للأمة.

إن التنمية تعني زيادة الطاقة الإنتاجية للبلاد في مجالات الزراعة وتربية الحيوان والصناعة والحرف المختلفة والتجارة، وبذلك يزيد الناتج القومي زيادة حقيقية تكون درعاً حصيناً للأمة في حالة مواجهة الاعتداءات الخارجية؛ ولذلك فإن دور المرأة في دفع عملية التنمية ينبع من حقها في حرية التملك والتصرف؛ ذلك الحق الذي يعتبر من الحقوق التي سبقت فيها المرأة المسلمة كل نساء العالم بما يزيد عن قرن من الزمان وينبع من المساواة بينها وبين الرجل في شئون المسؤولية والجزاء^(١).

ونعرض فيما يلي المنهاج التطبيقي للسنة الشريفة بما يؤكد قولنا هذا:

- اهتم الرسول ﷺ بدعوة النساء إلى تربية الحيوانات للمساهمة في زيادة الثروة الحيوانية:

- قال رسول الله ﷺ: "يا أم هانئ اتخذي غنماً؛ فإنها تغدو وتروح بخير"^(٢).

وبين لنا الحديث التالي كيف مارست المرأة مهمة الرعي؛ لأن هذا يتناسب مع صبرها وقوة جلدتها، وبما يجعلها أداة فعالة في زيادة الثروة الحيوانية، وبالتالي الناتج القومي:

- روى عن ابن عمر أن أباه أخبره أن جارية لهم كانت ترعى غنماً بسلع فأبصرت بشاة من غنمها موتاً، فكسرت حجراً فذبحتها، فقال لأهلها: لا تأكلوا حتى آتي النبي ﷺ فأسأله أو حتى أرسل إليه من يسأله، فأتى النبي ﷺ أو بعث إليه فأمر النبي ﷺ بأكملها^(٣).

(١) الحلال والحرام في الإسلام، دكتور يوسف القرضاوى - مكتبة وهبة.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢١٠٠٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الذبائح والصيد، باب ما أقر الدم من القصب والمروة والحديد (٥٥٠١) عن ابن عمر أن أباه أخبره أن جارية لهم كانت ترعى غنماً بسلع ... به.

دور المرأة في ممارسة التجارة لزيادة الناتج القومي من السلع والخدمات

تبين الأحاديث الشريفة أن المرأة في عصر النبوة كانت تمارس التجارة بحرية تامة لا يعوقها العادات والتقاليد، ولكنها في نفس الوقت تسعى لمعرفة ضوابط الشرع في البيع والشراء:

- فعن قيلة أم بنى أنمار، قالت: أتيت رسول الله ﷺ في بعض عمره عند المروة فقلت: يا رسول الله إني امرأة أبيع وأشتري فإذا أردت أن ابتاع الشيء سميت به أقل مما أريد ثم زدت، ثم زدت حتى أبلغ الذي أريد، وإذا أردت أن أبيع الشيء سميت به أكثر من الذي أريد ثم وضعت حتى أبلغ الذي أريد، فقال رسول الله ﷺ: لا تفعلين هكذا يا قيلة، ولكن إذا أردت أن تبتاعي شيئا فأعطي به الذي تريدين أن تأخذه به أعطيت أو منعت، وإذا أردت أن تبيعي شيئا فاستامي به الذي تريدين أن تبيعيه به أعطيت أو منعت^(١).

و اعتبر الرسول ﷺ أن الاهتمام بمتابعة الناتج الزراعي من الضروريات التي تخرج إليها المرأة في فترة العدة؛ لأن زيادة هذا الناتج ضرورة لتوفير الغذاء لعامة الشعب:

- فعن جابر بن عبد الله يقول: طلقت خالتي فأرادت أن تجد نخلها فزجرها رجل أن تخرج، فأنت النبي ﷺ فقال: بلى فجدي نخلك؛ فإنك عسى أن تصدقي أو تفعلني معروفا^(٢).

ومارست المرأة فعاليتها في زيادة الناتج الزراعي حتى لو استأجرت أحداً ليساعدها في مباشرة نشاطها الاقتصادي:

- روى عن علي قال: جعت مرة بالمدينة فإذا أنا بامرأة قد جمعت مدرا (أي طينا ميابسا) فظننتها تريد بله، فأتيها فقاطعتها كل ذنوب (أي دلوًا مملوًا) على قمره، فمددت ستة عشر ذنوبا حتى مجلت (مجلت: يقال: مجلت يده تمجل مجلا، ومجلت تمجل الحشنة. ٣٠/٤ النهاية) يداي: ثم أتيت الماء فأصب مني ثم أتيتها فقلت بكفي هكذا بين

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٢٢٨/٨، والبخاري في تاريخه ٤١٨/٨.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الطلاق، باب جواز خروج المعتدة البائن والمتوفي عنها زوجها في النهار لحاجتها (١٤٨٣) عن جابر بن عبد الله يقول: ... به. (فجدي: الجداد بالفتح والكسر: صرام النخل وهو قطع ثمرها. يقال جد الثمرة يجدها جدا. انتهى. النهاية ٢٤٤/١).

يديها - وبسط إسماعيل يديه وجعهما فعدت لي ستة عشر تمرة ، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك ، فأكل معي منها^(١)..

وشجعت الشريعة النساء على الاستثمار في الأراضي الزراعية لدفع عملية التنمية الاقتصادية:

- فعن طارق بن شهاب قال: أسلمت امرأة من أهل فھر الملك ، فكتب عمر: إن اختارت أرضها وأدت ما على أرضها فخلوا بينها وبين أرضها ، وإلا خلوا بين المسلمين وبين أرضهم^(٢).

ونجد المرأة المسلمة تمارس بعض الحرف لكسب المال؛ رغبة في العمل، وحباً للإنفاق في سبيل الله، مما يساعد على تحقيق الرخاء في أمة الإسلام:

- فهذه أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها تعمل بيدها وتصدق، وهي بذلك تساهم في زيادة الناتج القومي، ورفع مستوى الفقراء بإشباع حاجاتهم الأساس:

- فعن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت: قال رسول الله ﷺ: أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً، قالت: فكن يتناولن أيتهن أطول يداً، قالت: فكانت أطولنا يداً زينب لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق^(٣).

وهذه زينب امرأة عبد الله بن مسعود وكانت تملك المقدرة المالية أكثر من زوجها، وتسأل هل يكفيها الإنفاق على زوجها وأيتام في حجرها عن التصديق؟ فيوافقها الرسول ﷺ على ذلك كنوع من ترشيد الإنفاق وعدالة توزيع الثروات، وهما أهم ما تدور حولهما الدراسات الاقتصادية:

- فعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كنت في المسجد فرأيت النبي ﷺ فقال: تصدقن ولو من حليكن وكانت زينب تنفق على عبد الله وأيتام في حجرها فقالت: فانطلقت إلى النبي ﷺ فوجدت امرأة من الأنصار على الباب حاجتها مثل

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/١٣٥.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن ٩/١٤١، وعبد الرزاق في مصنفه ٦/١٠٢، وابن أبي شيبة في مصنفه ٦/٤٦٣.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل زينب أم المؤمنين رضي الله عنها (٢٤٥٢) عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين قالت: قال رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم: ... به.

حاجتي. فمر علينا بلال فقلنا: سل النبي ﷺ: أيجزئ عني أن أنفق على زوجي وأيتام في حجري؟... فدخل فسأله، فقال: نعم ولها أجران: أجر القرابة وأجر الصدقة^(١).

وكفل الإسلام الحرية للمرأة في ممارسة النشاط ليفتح لها المجال واسعا بدون قيود تحد من حركتها مما يعرقل عملية التنمية الاقتصادية، ومن مظاهر تلك الحرية:

حرية البناء والاستثمار:

- عن أم سلمة أنها كانت تفلّي رأس رسول الله ﷺ، فجاءت زينب امرأة عبد الله بن مسعود فجعلت تكلمني وأكلمها ورفعت بصري إليها، فقال رسول الله ﷺ: أقبلي على فلايتك فإنك لست تكلميها بعينيك، قالت زينب: فجعلت أشكو ضيق المسكن، فقال هذا كما صنعت امرأة عثمان بن مظعون لم يسعها ما نزلت حتى نزل على رأسها، فقال رسول الله ﷺ: كذاك من اختط خطة بالمدينة من المهاجرات؛ فلها خطتها، فورثت نصيبها من دار عبد الله، وأحرزت دارها بالمدينة^(٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب الزكاة على الزوج والأيتام في الحجر (١٤٦٦) عن زينب امرأة

عبد الله رضي الله عنهما قالت: كنت في المسجد فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ... به.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٣ / ٣٢١) عن أم سلمة أنها كانت تفلّي رأس رسول الله صلى الله

عليه وسلم، فجاءت زينب امرأة عبد الله بن مسعود فجعلت تكلمني وأكلمها ورفعت بصري إليها، فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: ... به.

الفصل السابع

دور المرأة في المشاركة في الحياة السياسية

بلغت المرأة في صدر الإسلام سبقاً في ممارسة النشاط السياسي، في حين كانت المرأة في أوروبا تزرع تحت نير عصور الظلمات، فشعرت المرأة المسلمة بكيانها ودورها الفعّال في مجتمعاتها؛ فعمل المرأة السياسي في دائرة الأمة هو تكليف شرعي وأمانة في التصور الإسلامي في حين أنه في المجتمعات الغربية حق تطالب به المرأة، وهدف تسعى إليه، ومكانة اجتماعية تتطلع للحصول عليها.

وتختلف النظرة الإسلامية للعمل السياسي للمرأة عن النظرة الغربية؛ حيث تجعل الرؤية الإسلامية والمصلحة الشرعية مناهج الحركة السياسية؛ ولذا فإن العمل السياسي يدور مع الشريعة وأحكامها ومصلحة الأمة، وتلك هي أهداف البيعة والولايات، والشورى، والجهاد، إلى آخر أدوات تحقيق تلك المصلحة^(١).

ويستلزم دور المرأة في العصر الحديث اجتهاداً في ضبط حركتها ومقاصدها، ودوائرها؛ كي تخدم حركتها من منطلق إسلامي^(٢)، خاصة في العصر الذي تتسم فيه بعض الدول الإسلامية بالتبعية للدول الأجنبية. ومن هذا المنطلق نبين الدور الفعّال الذي قامت به المرأة في المشاركة في الحياة السياسية في عصر النبوة.

وقد أعطى الإسلام للمرأة حق الإجارة والأمان وهو ما يسمى في عصرنا الحاضر حق اللجوء السياسي، وهذا يعتبر سبق عظيم للإسلام فيما أعطاه للمرأة من حقوق. ويظهر ذلك السبق وعظمتها ومدى الحرية وقوة الشخصية التي تمتعت بها المرأة المسلمة في ظل الإسلام إذا درسنا الظروف التي حصلت فيها المرأة على تلك الحقوق؛ أي وضع المرأة في العالم كله؛ فضلاً عن وضعها في الجاهلية قبل ظهور الإسلام:

— روى عن أنس أن زينب بنت رسول الله ﷺ أجارت أبا العاص بن عبد شمس فأجاز رسول الله ﷺ جوارها، وأن أم هانئ ابنة أبي طالب أجارت أخاها عقيلاً بن أبي طالب يوم الفتح فأجاز رسول الله ﷺ جوارها (٣).

(١) المرأة والعمل السياسي — رؤية إسلامية جديدة، هبة رؤوف عزة. ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي. سلسلة الرسائل الجامعية (٨) قضايا الفكر الإسلامي.

(٢) المرأة والعمل السياسي — رؤية إسلامية جديدة، هبة رؤوف عزة (مرجع سابق).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک ٤/٤٨.

وفي فتح مكة أيضاً: استجار رجلان بأُم هانئ بنت أبي طالب، وفرا إليها خوفاً من أخيها علي، فأجارتهما، وذهبت إلى رسول الله ﷺ فقال لها: قد أجرنا من أجرت وأمنا من أمّنت (١).

وبعد غزوة تبوك، عندما أمر رسول الله ﷺ بمقاطعة هلال بن أمية الواقفي، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع العمري، وأمر نساءهم بمقاطعتهم أيضاً، جاءته خولة بنت عاصم تستأذنه في خدمة زوجها، هلال بن أمية والإقامة معه، فأذن لها على ألا تسمح له بمقاربتها (٢). وهو خبر يدل على حرية المرأة وقدرتها على اتخاذ القرار، والتوسط لزوجها عند الرسول ﷺ كما تدل عليه أخبار أخرى مشابهة: فقبيل الفتح خرج أبو العاص بن الربيع - زوج زينب بنت رسول الله ﷺ - وهو مقيم على شركه بمكة - في تجارة إلى الشام، فأسرته سرية من المسلمين وأتت به إلى المدينة، فاستجار بزوجه زينب فأجارتها، فقال الرسول: إنه يجبر على المسلمين أدناهم. ثم انصرف إلى بيته فقال لها: أي بنية أكرمي مثواه، ولا يخلص إليك، فإنك لا تحلين له (٣).

- وقال رسول الله ﷺ: ليس للعبد في الغنيمة إلا خرثى المتاع وأمانه جائز، وأمان المرأة جائز إذا هي أعطت القوم الأمان (٤).

وأعطى الإسلام للمرأة حق مقابلة أعلى سلطة في الدولة في الوقت والمكان الذي تحدده، وهي حرية وفعالية لا تتمتع بها أية امرأة في العصر الحديث؛ حيث مقابلة رئيس الدولة تتطلب إجراءات معقدة كثيرة:

- قال رسول الله ﷺ: يا أم فلان! اجلسي في أي نواحي السكك شئت اجلس إليك (٥).

كما أعطى الإسلام للمرأة حق الشورى في الأمور المهمة في الدولة، وهذا أيضاً سبق للإسلام في مجال الحقوق التي أعطاها للمرأة:

- فعن ابن سيرين قال: إن كان عمر بن الخطاب يستشير في الأمر، حتى إن كان يستشير المرأة فربما أبصر في قولها الشيء يستحسنه فيأخذ به (٦).

(١) سيرة ابن هشام: ج ٤ (٣٩-٤٠).

(٢) أبو عبد الله إسماعيل البخاري: صحيح البخاري. كتاب الغزوات باب غزوة تبوك. حديث كعب بن مالك.

(٣) سيرة ابن هشام. مكتبة صبيح. القاهرة ١٣٨٣/١٩٦٣ (٢ / ٤٨٢-٤٨٣).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٢٣/٥، وعبد الرزاق في مصنفه ٢٢٨/٥.

(٥) أخرجه مسلم كتاب الفضائل باب قرب النبي ﷺ من الناس رقم (٢٣٢٦).

(٦) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١١٣/١٠.

- وعن أسلم أنه حين بويح لأبي بكر بعد رسول الله ﷺ كان علي والزبير يدخلون على فاطمة بنت رسول الله ﷺ ويشاورونها ويرجعون في أمرهم؛ فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب خرج حتى دخل على فاطمة، فقال: يا بنت رسول الله ما من الخلق أحد أحب إلى من أبيك، وما من أحد أحب إلينا بعد أبيك منك، وإيم الله ما ذاك بما نعى إن اجتمع هؤلاء النفر عندك أن أمر بهم أن يحرق عليهم الباب، فلما خرج عليهم عمر جاؤوها قالت: تعلمون أن عمر قد جاءني وقد حلف بالله لئن عدتم ليحرقن عليكم الباب، وإيم الله ليمضين ما حلف عليه: فانصرفوا راشدين فروا رأيكم ولا ترجعوا إلي، فانصرفوا عنها ولم يرجعوا إليها حتى بايعوا لأبي بكر^(١).

ففي صلح الحديبية: استشار الرسول ﷺ زوجته أم سلمة، في أمر أصحابه الذين ترددوا في تنفيذ ما أمرهم به، من إحلال وحلق ونحر، ثم اتبع رأيها كما هو معروف^(٢). وقد ساهمت أم سلمة في إبداء الرأي للرسول ﷺ في صلح الحديبية، وعمل الرسول بمشورتها؛ مما حمى المسلمين من فتنة كبرى تمثل في عدم طاعتهم لرسولهم:

وهكذا استطاعت امرأة برأيها السديد، أن تنقذ الأمة الإسلامية من فتنة كبيرة، يمكن أن تودي برجالها الصالحين، بغير ذنب اقترفوه، سوى اعتزازهم الشديد بعقيدتهم، ورفضهم أن يرضوا بالدنية في دينهم.

وأعطى الإسلام للمرأة حق المباينة وهو ما يسمى في العصر الحديث — حق الانتخاب وذلك في وقت لم يكن للمرأة فيه أية حقوق سياسية.. فكل ما تفخر به الحضارة الغربية من حقوق أعطتها للإنسان فهي بفضل الإسلام.

مفهوم البيعة في الإسلام:

البيعة من أبرز جوانب العمل السياسي الذي تمارسه الأمة، إذ إنها في الرؤية الإسلامية هي التي تضيف الشريعة علي نظام الحكم بل وتسبق في الخبرة الإسلامية في عهد رسول الله

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٤٣٢/٧، والنووي في شرح مسلم ٩٧/١ - (فروا أفرته أفره: فعلت به ما يفر منه ويهرب. يقال: فر يفر فرا فهو فار إذا هرب. النهاية ٤٢٧/٣).

(٢) تطور النظرية التربوية. الأستاذ صالح عبد العزيز.

إنشاء الدولة، فهي أساس المجتمع السياسي الإسلامي وأداة إعلانه التزامه بالمنهج والشرعية.

والبيعة هي: " ميثاق الولاء للنظام السياسي الإسلامي أو الخلافة الإسلامية والالتزام بجماعة المسلمين والطاعة لإمامهم "^(١)، فهي ميثاق إنساني يتضمن ثلاثة أطراف هي الخليفة نفسه، والقائمون بالبيعة أي الأمة، والمبايع عليه وهو الشرعية. ولا تنتهي مسئولية الأمة بعقد البيعة بل تستمر في تحمل تبعة حفظ الدين وتطبيق الشرعية من خلال الشورى، والرقابة علي الحاكم، ونصحه إذا حاد، وعزله إذا لزم الأمر ^(٢).

وإذا كان الكثير من الكتابات القديمة والحديثة قد ركز عند دراسة البيعة علي بعد (الطاعة)، أو الالتزام السياسي من جانب الرعية، وفصلت في شروط الخليفة وكيفية توليته وصلاحياته^(٣)، فإن هناك رأياً يري أن البيعة ((حق لكل مسلم، رجلاً كان أو امرأة، لأنها الطريقة الشرعية الوحيدة لتنصيب رئيس الدولة، ولأن الأمة هي صاحبة السلطة والشأن في توليته وعزله ^(٤)، واقترح بعض أنصار هذا الرأي صيغة لبيعة الخليفة للأمة تقوم علي الالتزام بالشرعية والعدل والشورى، وهي البيعة التي تمثل الوجه الآخر للالتزام السياسي، وهو التزام الحاكم، في مقابل الالتزام السياسي للأمة (٥).

وقد سجل القرآن الكريم قواعد مبايعة النساء للرسول ﷺ في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بَبْهَتَانِ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعَصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (المتحنة: ١٢).

(١) أحمد صديق عبد الرحمن، البيعة في النظام السياسي الإسلامي: وتطبيقاً في الحياة السياسية المعاصرة، ط١، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٨٨، ص ٣٥.

(٢) د. مصطفى حلمي، نظام الخلافة في الفكر الإسلامي، القاهرة، دار الأنصار، ١٩٧٧، ص ص ١٥-١٦.

(٣) انظر علي سبيل المثال: أحمد صديق عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ص ٢٧، ٣٢-٣٣. د. يحيى إسماعيل،

منهج السنة في العلاقة بين الحاكم والحكوم، ط١. المنصورة: دار الوفاء، ١٩٨٦، ص ص ١٥٩-١٤٦.

(٤) انظر: د. محمود الخالي، البيعة في الفكر السياسي الإسلامي، عمان: مكتبة الرسالة الحديثة، ١٩٨٥، ص ص ٤٩-٥٣.

(٥) أحمد صديق عبد الرحمن، مرجع سابق، ص ٤٠.

ويزداد الأمر أهمية إذا عرفنا أن بيعة النساء قد سبقت بيعة الرجال؛ وهذا ما نعرفه من السنة النبوية؛ حيث قال رسول الله ﷺ: ألا تباعون على ما بايع عليه النساء لا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف. فمن أصاب بعد ذلك ذنباً فنالته به عقوبة فهي له كفارة ومن لم تنله فأمره إلى الله إن شاء غفر له وإن شاء عاقبه به (١) .

نساء مبايعات شاهدات على حرية المرأة ودورها السياسي في الإسلام:

تبين لنا السنة المطهرة الدور الفعلي الذي قامت به النساء في ممارسة العمل السياسي بمبايعة الرسول ﷺ: فعن أم جنوب بنت تميلة عن أمها سويدة بنت جابر عن أمها عقيلة بنت أسمر بن مضر عن أبيها أسمر بن مضر قال: أتيت النبي ﷺ فبايعته، فقال: من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم فهو له، قال فخرج الناس يتعادون يتخاطون (٢). وعن موسى بن عبيدة عن زيد بن عبد الرحمن عن أمه حجة بنت قرط عن أمها عقيلة بنت عتيك بن الحارث عن أمها أم قريرة بنت الحارث قالت: جئنا رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وهو نازل بالأبطح وقد ضربت عليه قبة حمراء فبايعناه واشترط علينا، قالت: فبينما نحن كذلك إذ أقبل سهيل بن عمرو أحد بني عامر بن لؤي كأنه جمل أورق فلقيه خالد بن رباح أخو بلال بن رباح وذلك بعد ما طلعت الشمس فقال: ما منعك أن تعجل الغدو على رسول الله ﷺ إلا النفاق! والذي بعثه بالحق أن لولا شيء لضربت بهذا السيف فاحتك! وكان رجلاً أعلم، فانطلق سهيل إلى رسول الله ﷺ فقال: ألا ترى ما يقول لي هذا العبد؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: دعه فعسى أن يكون خيراً منك فتلتمسه فلا تجده، فكانت هذه عليه أشد من الأولى (٣).

نظرة الإسلام في ولاية المرأة:

- أعطى الإسلام المرأة الولاية في بعض الميادين؛ حيث ولى عمر بن الخطاب امرأة تسمى الشفاء حسبة السوق (٤).

وقد أجاز ابن جرير الطبري للمرأة أن تكون حاكمًا على الإطلاق في كل شيء وهو

(١) أخرجه النسائي في البيعة ب (٩)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/٨).

(٢) أخرجه أبو داود في السنن ١٧٧/٣، والبيهقي في السنن الكبرى ١٤٢/٦.

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢٥٧/٧ - فاحتك: أي موضع الفلح: وهو الشق في الشفة السفلى ٦٩/٣٠ النهاية.

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره (١٣ / ١٨٣).

ما أورده عنه الكثيرون كابن رشد وابن قدامة وابن حزم والشوكاني (١).
 - ويؤيد هذا الرأي ما عرضناه للدكتور القرضاوي في الفصل السابق أن الحكم أصبح يدار بالمجالس النيابية؛ أي أنه لا يمكن انفراد الحاكم بالرأي؛ وبالتالي فولاية المرأة لا تعني انفرادها بحكم المسلمين، بل يشترك معها الرجال عن طريق المجالس التشريعية (٢).

(١) الحقوق المعنوية للمرأة. كامل عبود موسى. طبعة مؤسسة الرسالة. ١٩٨٧.

(٢) فقه الدولة في الإسلام. د يوسف القرضاوي - ط. دار الشروق.

الفصل الثامن

دور المرأة في الدفاع عن الوطن

لقد اتخذ الجهاد بظهور الإسلام مظهراً حضارياً جديداً، فهو لم يعد القتال في ساحة الوغى لتحقيق مصالح دنيوية استعمارية، بل الجهاد في الإسلام اتخذ معنى واسعاً يمتد ليشمل كل جهد يبذل لإصلاح المجتمعات والأمم في أي ميدان من ميادين المجتمع، ولأية شريحة من شرائح المجتمع.. وهو على سعته وشموله قد يكون كلمة واحدة أو سكوتاً أو صمتاً أو تبسماً أو طلاقة وجه، أو امتعاضاً ونفوراً، أو تركاً لمجلس أو مشاركة فيه، متضمناً الحب في الله والبغض لله في هذا السبيل^(١).

ولذلك نجد الأحاديث الشريفة تعدد أنواع الجهاد لتعدد أهداف الأمة وسمو مقصدها كدوائر متداخلة واسعة سعة الأرض كلها.. فما يؤدي في ميدان العائلة والمجتمع والأمة سواء بالجهد المادى أو المعنوى في سبيل إعلاء كلمة الحق وإرساء كل المبادئ الشريفة والمبادئ السامية، فهو من أنواع الجهاد التي يثاب المرء عليها وينال بها أجر المجاهدين الذين يجاهدون على ما جاء به الرسل لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور.

ولا شك أن هذا المعنى للجهاد يبرهن على سبق الإسلام في عالميته وحضارته، فهو لا يحرم المؤمنين من ممارسة الجهاد حتى مع اتساع وسائل الاتصال في العالم توسعاً هائلاً يحول الدنيا إلى ما يشبه قرية عالمية.. فالمطلوب الآن جهاد فكر وروح في المقام الأول، حيث سيطرت الفلسفات المادية على عقول وأرواح الناس، فأضفت عليهم مزيداً من العذاب ببعدهم عن منطق الحق وأنواره التي تغمر النفوس بالسكينة والاطمئنان.

إن أنواع الجهاد التي يعددها ﷺ في أحاديثه الشريفة لتبرهن بالدليل القطعي على رقى الفكر الإسلامي في جميع الميادين.. فالمطلوب من جميع المسلمين بذل الجهد لإحقاق الحق بين شعوب الإنسانية جمعاء، حتى إذا تطلب الأمر القتال لردع قوى الشر بعد استنفاد الوسائل الدبلوماسية، فالقتال هنا يكون فريضة واجبة لأنه لا فائدة من سلام يؤدي إلى الخور والوهن، وانتشار الظلم والبعد عن مبادئ الحق الكريمة النبيلة التي تؤدي إلى انتشال البشرية من ظلمات الأطماع المادية.

(١) الأستاذ فتح الله كولن. إعلاء كلمة الله أو الجهاد - ترجمة إحسان قاسم الصالحى - دار النيل للطباعة

ولقد ساوى الإسلام بين الرجل والمرأة في معظم الأمور حتى حرية الجهاد فلم تُحرم منها المرأة في صدر الإسلام.

وتسجل الأحاديث الشريفة كيف أن الإسلام سمح للمرأة أن تقوم بالدفاع عن وطنها في حدود قدراتها وفي حدود ما تسمح به المواصفات الشخصية للمرأة من الخوف من خوض القتال وفي حدود تسمح لها باحفاظة على عرضها وأنوثتها فترك لها المجال مفتوحاً من ناحية مداواة المرضى والجرحى ، وإعداد الطعام والغذاء والشراب، فإذا وجدت بعض النساء لديهن القدرة في مقاتلة الأعداء فلا يمنعها الإسلام من ذلك؛ وخاصة إذا احتد الأمر وداهم العدو البلاد؛ فعندئذ يصبح الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة^(١):

ونعرض فيما يلي الأحاديث التي تبين دور المرأة فيما يسمى بلغة العصر: الإمداد والتموين والهلل الأجر:

- فعن أم عطية الأنصارية قالت: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات فكنت أصنع لهم طعامهم، وأخلفهم في رحلهم، وأداوى الجرحى، وأقوم على المرضى^(٢).

- فعن حشرج بن زياد الأشجعي عن جدته أم أبيه أنها غزت مع النبي ﷺ عام خيبر وهي سادسة ست نسوة، فبلغ رسول الله ﷺ، فبعث إلينا، فقال: بأمر من خرجت؟ ورأينا فيه الغضب، فقلنا: خرجنا ومعنا دواء نداوى به، وناول السهام ونسقى السويق ونغزل الشعر نعين به في سبيل الله، فقال لنا: أقمن، قالت: فكنا نداوى الجرحى، ونصلح لهم الطعام، ونرد لهم السهام، ونصلح لهم الدواء ونصيب منهم، فلما فتح الله عليه خيبر قسم لنا كما قسم للرجال، قلت: يا جدة وما كان ذلك؟ قالت: تمرا^(٣).

(١) كشف القناع ٣ / ٧٣، روضة الطالبين ١٠ / ٢١٤، حواشي الشرواني ٩ / ٢٣٥.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير (١٨١٢) عن أم عطية الأنصارية قالت: غزوت مع رسول الله ﷺ ... به.

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى في كتاب قسم الفيء والغنيمة باب المملوك والمرأة يرضخ لهما ولا يسهم

(٦/٣٣٣). ورواه أبو داود في كتاب الجهاد باب المرأة والعبد يجذيان من الغنيمة رقم (٢٧١٢). وقال

المنذري: أخرجه النسائي وإسناده ضعيف لا تقوم به الحجة. وفي التلخيص: في إسناده حشرج وهو مجهول.

عون المعبود شرح سنن أبي داود (٤٠١/٧).

- وعن ثعلبة بن مالك أن عمر بن الخطاب قسم مروطا بين نساء أهل المدينة فبقى منها مرط جيد ، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين! أعط هذا بنت رسول الله ﷺ التي عندك -يريدون أم كلثوم بنت علي- فقال عمر: أم سليط أحق به وأم سليط من نساء الأنصار ممن يعن رسول الله ﷺ ، قال عمر: فإنها قد كانت تزفر لنا القرب يوم أحد (١) . وعن الوليد بن عبد الله بن جميع قال حدثني جدتي عن أم ورقة ابنت عبد الله بن الحارث الأنصاري وكان رسول الله ﷺ يزورها ويسميتها الشهيذة وكانت قد جمعت القرآن أن رسول الله ﷺ حين غزا بدرًا قالت له: أتأذن لي فأخرج معك أداوى جرحاكم وأمراض مرضاكم لعل الله يهدي لي شهادة؟ قال: إن الله مهّد لك شهادة فكان يسميها الشهيذة وكان النبي ﷺ قد أمرها أن تؤم أهل دارها وكان لها مؤذن ، وكانت تؤم أهل دارها حتى غمها غلام لها وجارية كانت دبرتها فقتلها في إمارة عمر ، وقال عمر: صدق رسول الله ﷺ! كان يقول: انطلقوا بنا نزور الشهيذة (٢) .

و لكن إذا احتد الخطب وأصبحت الأمة كلها معرضة للقتال فلا مانع أن تباشر المرأة المهام القتالية بما يحفظ أعراض النساء:

- فعن ضمرة بن سعيد قال: أتى عمر بن الخطاب بمروط وكان فيها مرط جيد واسع فقال بعضهم: إن هذا المرط لثمن كذا وكذا ، فلو أرسلت به إلى زوجة عبد الله بن صفية بنت أبي عبيد! قال وذلك حدثان ما دخلت على ابن عمر ، فقال: أبعث به إلى من هو أحق به منها أم عمارة نسيبة بنت كعب ، سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم أحد: ما التفت يمينا ولا شمالا إلا وأنا أراها تقتل دوي (٣) وعن أم عروة عن جدها الزبير قال: لما خلف رسول الله ﷺ نساءه يوم أحد بالمدينة خلفهن في فارع فيهن صفية بنت عبد المطلب وخلف فيهن حسان بن ثابت ، وأقبل رجل من المشركين فيدخل عليهن فقالت صفية لحسان: عندك الرجل! فجن حسان عنه وأبى عليها ، فتناولت صفية السيف فضربت به المشرك حتى قتله ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فضرب لصفية بسهم كما يضرب للرجال (٤) .

(١) أخرجه البخارى في صحيحه كتاب المغازى باب ذكر أم سليط ١٢/٥ - تزفر: وفيه وكان النساء يزفون القرب يسقين الناس في الغزو - أى يحملنها مملوءة ماء. زفر وازفر إذا حمل. والزفر: القرية. النهاية ٣٠٤/٢.

(٢) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة باب إمامة النساء رقم (٥٩١) - دبرتها: يقال: دبرت العبد إذا علقت عنقه بموتك، وهو التدبير. النهاية ٩٨/٢.

(٣) انظر تاريخ بغداد ١٨٢/٦.

(٤) أخرجه أبو يعلى في مبلنده ٤٣/٢.

وقد اعتبر الإسلام المرأة فرداً مهماً في المجتمع يحق له ويجب عليه التعبئة المعنوية للقتال لشحن طاقات الأمة بجميع صورها ولرهب صدور الأعداء:

- فعن أم حرام قالت: أنا رسول الله ﷺ، فقال: أين أبو الوليد؟ فقلت الساعة يأتيك، فألقيت له وسادة فجلس عليها فضحك، فقلت ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: رأيت أول جيش من أمي يركبون البحر قد أوجبوا، فقلت يا رسول الله أدع الله لي أن أكون منهم، فقال: اللهم اجعلها منهم، ثم ضحك، فقلت ما الذي أضحكك؟ قال: أول جيش من أمي يرابطون مدينة قيصر مغفور لهم (١).

- وعن أنس قال: جاء أبو طلحة يوم حنين يضحك إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألم تر إلى أم سليم معها خنجر؟ فقال لها رسول الله ﷺ: يا أم سليم ما أردت إليه؟ قالت: أردت إن دنا إلى أحد منهم طعنته به (٢).

وهكذا فإن الاطلاع على نهج النبي ﷺ ونهج الخلفاء الراشدين من بعده، يبين بالدليل القاطع أن ما يدعيه الغرب على الإسلام من أنه سبب تخلف المسلمين، وبوجه خاص المرأة؛ هو بهتان صريح على تشريع عظيم علم البشرية كلها (رجالاً ونساء) كيف تدفع حركة الحياة في كل المجالات على أساس مبادئ سامية وتنظيمات رائعة، أما تخلف المسلمين عامة؛ فناتج عن جهلهم بتعاليم الدين وصراعاتهم التي تذهب مواردهم الاقتصادية والإنسانية هباء، أما تخلف المرأة خاصة؛ فناتج عن بعدها عن إحياء كبوتها وتحقيق نهضتها؛ ليلها إلى الدعة من جهة، وانغماسها في تيار المدنية من جهة أخرى؛ مما أطفأ جذوة نورانيتها التي تشعل حماسها لإحياء أمتها والمشاركة في تقدمها وإخراجها من حلقة الفقر المفرغة. ونحن نناشد المرأة المسلمة أن تستعيد حيويتها اللاتقة بما لتساهم بجدارة في إحياء الثقافة الإسلامية، بما يحقق للأمة قوتها وعزتها التي اندثرت تحت تراكمات السنين، ولا غرو في ذلك؛ فإن المرأة هي صانعة الحياة؛ لأنها مربية الأجيال، ومصدر الفعالية والرحمة في الأمة؛ فهي التي تستطيع أن تدفع زوجها وأبناءها وكل أهلها إلى معارج الرقي بالإيمان والثابرة. وهذا هو الدور المنتظر حقاً للمرأة المسلمة، وهذا هو السر في كل التحديات التي تحوطها.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٦٩/٣، والحاكم في المستدرک ٥٩٩/٤.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٤١٦/٧، والإمام أحمد في مسنده ١١٢/٣.

النتائج والتوصيات

تعيش المرأة هذا الزمان ازدواجية رهيبة تنزل كيانها وتحرمها من ثبات خطواتها وأمن نفسها. وتلك الازدواجية نابعة من الصراعات التي تواجهها حيث تتنازعها التقاليد الشرقية من جهة، وزيف المدنية الحديثة من جهة ثانية، والاتهامات التي توجه لديها من جهة ثالثة؛ فتجد المرأة نفسها في تيه الصراعات لا تعرف كيف تحدد ملامح نفسياتها بملامح واضحة، وكيف تعيش حياتها بخطوات ثابتة.

وبعد جولتنا خلال بحثنا هذا، واستعراضنا مآثر الإسلام في تحرير المرأة والأخذ بيدها إلى معارج السمو العقلي واليقين القلبي مما جعلها تندفع في الحياة بشوق وفاعلية ترسي قواعد بناء الأمة الإسلامية.. إن هناك عدة أسئلة تثور بإلحاح وهي: ما الذي وصل بحال المرأة المسلمة إلى ذلك التردّي من الوهن والخوف بعد ما ارتفع بها الإسلام إلى تلك القمم العالية من استنهاض طاقاتها وفاعليتها، وصقل جوهرها الإنساني بأنوار سامية جعلتها تزهر على جميع النساء في عصورها؟

- ولماذا المرأة بالذات التي يوجه إليها أصعب الاتهام بأن الإسلام أزرى بمكانتها وهو

سبب تخلفها؟

ولماذا لم توجه تلك الزلزلة العقائدية إلى الرجل بنفس القوة التي توجه للمرأة؟

- ولماذا استسلمت المرأة المسلمة لتلك الأوهام واستراح معها المجتمع كله لهذا

الاستسلام؟

هل لأن في ذلك راحة للرجل في قيادتها حيث تصبح أكثر استكانة وخضوعاً؟

- أم أن المجتمع كله أصبح يميل إلى الخمول والاستكانة فلم يعد استسلام المرأة أمراً

يثير الانتباه؟

- إلى متى سنظل في موقف المتلقين لسهام الأعداء واتهاماتهم لدينا نحاول رد تلك

الاتهامات على استحياء مما يستنفد جهدنا؟

- ولماذا لا نتحول إلى موقف الناقدين لتصرفاتهم، المعتزين بدينهم، ومستعدين به على

كل نظريات عصرنا، فحقّق الفلاح المقصود في قوله تعالى: (وَقَدْ أَقْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى).

هناك أسئلة عديدة تضيق بها الصدور ولا يتسع المجال هنا لسدها، ولم يعد لدى الأمة

وقت للتساؤلات، ولكن يجب أن تحول طاقاتها إلى إيجابيات.

وبالنسبة لقضية المرأة فإننا يمكن أن نسجل النقاط التالية:

- إن المرأة المسلمة هي حصن الأمة الذي يريد كل أعداء تلك الأمة بأن يوجهوا السهام إلى ذلك لالحصن الهام للنفوذ منه إلى قلب الأمة لإشاعة الفساد وعوامل الهدم التي تغشى صدورهم لتلك الأزمة؛ فهي تحتاج اهتمام خاص يجعلها قوية مستعصية على كل محاولات الهدم

- يجب أن تتغير نظرتنا الداخلية إلى المرأة حتى لا نعرضها إلى السهام الداخلية والخارجية مما يضعف مقاومتها ويؤدي إلى انهيارها؛ فالمرأة هي مصدر الحنان والشفقة والرحمة ودفع العواطف في الأمة، وهي الشجرة المثمرة التي يستظل الأبناء بظلها، وهي قناديل البيوت وضئائها، وهي المدرسة الأولى التي يتعلم فيها الرجال أصول الدين والحياة.. ولذلك فهي تستحق كل تقدير واحترام تنفيذاً لشريعة الإسلام.

- إن المرأة في حاجة إلى رعاية اجتماعية متكاملة تمكنها من القيام بدورها البطولي في الأمة على أفضل وجه؛ فهي تجاهد في كل الميادين المعنوية والاجتماعية بكل ما تملك من جهد وإخلاص، ولذلك فهي تحتاج إلى رعاية خاصة سواء على مستوى الأسرة أو مستوى العمل. وقد استعرضنا سمو القوانين التشريعية في تلك الرعاية وندعو إلى تطبيقها لتكون واقعاً حياً يوفر للمرأة المناخ اللازم لانطلاقها بأمر ربها تشارك في بناء الرجال وبناء الحضارة و تفجير ينابيع الرحمة والحنان لتسري في أوصال الأمة، فتزيل كل تشققات الجذب المعنوي، وترأب الصدع الناتج عن صراعات الحرمان من أنوار الإيمان.

والمرأة المسلمة في حاجة إلى استعادة هويتها الإيمانية ومعلم شخصيتها الإسلامية التي تتسم بالقناعة التامة بدينها، والثبات في خطواتها، وقتها لن يجرو مدع أن يتهم الإسلام بأنه سبب تخلف المرأة طالما يراها الجميع قوية صاحبة إرادة وعزيمة في صنع الحياة، تتفق مع ما تؤمن به من مبادئ سامية.

- نحن بحاجة ماسة إلى استنهاض الطاقات الكامنة في المرأة المسلمة لتواجه تحديات العصر، وتستعيد أصالتها، حيث لم تكن الطريق ممهدة ومفروشة بالورود في عصر النبوة أمام النساء، ولكنهن جاهدن على محورين رئيسين.

أولهما: جاهدن من موروثات الماضي في نفوس الرجال، حيث تشبثن بالحقوق التي أعطاهن لها الإسلام، كمثال امرأة عمر بن الخطاب التي كانت تسعى إلى المسجد بشوق لتلقي العلم والعبادة رغم غيرة عمر المشهور بها، فهي على يقين أنه لن يستطيع منعها امتثالاً لأوامر الرسول ﷺ.

ثانيهما: جاهدن في كل الميادين الاجتماعية والسياسية حيث شاركن في أزمة الحصار الاقتصادي والغزوات الحربية، بكل ما يمكن من جهد ومال، وحنان المرأة وعواطفها التي تشيع الاطمئنان في النفوس والأمل في القلوب، وتشحذ عزيمته الرجال لمواجهة كل التحديات بقوة الإيمان.

فلتعرف جميع النساء المسلمات أن الإسلام قدم لهن كل أنواع الحريات، وهي الحرية المنضبطة بآداب الشرع، مما يجعل تلك الحرية ترقى بالإنسانية، ولأنها تعني حرية الالتزام. وليست حرية الفوضى التي قهوي بالإنسان إلى مرتبة الحيوان وإنني باستعراض كل تشريعات الإسلام الخاصة بالنساء، شعرت بالفخر والاعتزاز بهذا الدين القيم، الذي ينظر إلى المرأة على أنها أعلى جوهرية في الأمة تحتاج إلى الرعاية الخاصة التي تصونها وتزيد بريقها مما يجعلها تخطف العقول والأبصار، وتساهم في زيادة رصيد الأمة من المبادئ والأفكار، وهذا ما حقق الحضارة الإسلامية بحق؛ لأن المرأة هي صانعة الأجيال.

إن الذي أرى بمكانة المرأة ليس هو الإسلام ولكنها العادات والتقاليد والأهواء التي حاربها الإسلام، ولكنها تمكنت من النفوس عندما ضعفت أنوار الإيمان في القلوب، ووهنت العزيمة في النفوس، فرجعت الأمة كلها القهقري وليست المرأة فقط، فكرامة الرجال وقدرتهم على صنع الحياة، فالرجل الناضج يعرف أن المرأة شريكته في تقرير المصير والارتقاء بالأسرة وبالأمة معاً... ويوم أن يتناسى الرجل تلك الحقيقة العامة، فهو يتناسى دور السيدة خديجة أم المؤمنين في مؤازرة خير الأنام صلي الله عليه وسلم ومساندته بالجهد والمال في الشدائد ولولاها لا ندرت الدعوة في مهدها، وضاع الخير الكبير على البشرية بأسرها

ذلك هو دور المرأة كما رسمه الإسلام وهو يدق أجراس الحرية في أذن التاريخ ليوظ كل الغافلين واليائسين، ليرتقي جوهره الإنساني إلى أعلى عليين، فالمرأة جوهر إنساني يستحق كل تكريم.

توصيات أوجهها إلى النساء المسلمات:

- ليس المهم أن تكوني وزيرة أو رئيسة للجمهورية، فالإسلام لم يمنعك من ذلك، ولكن المهم أن تكوني أهلاً لتلك المسؤولية؛ لأنها أمانة جسيمة، وهي يوم القيامة خزي وندامة لمن لم يقيم بحقوقها.. وفي نفس الوقت يمكن أن يكون قيامك بتلك المهام غير معوق لأداء مهمتك الأساسية في الحياة وهي واجبك نحو زوجك

وأولادك، فالأسرة هي قلعة المرأة الحصينة التي يجب أن تحميها بكل ما تملك من قوة، وهي الحصاد الأعظم والأمانة الكبرى المطلوبة منك في المقام الأول وستسألين عن التقصير فيها يوم القيامة، أما هذا الصراع الوظيفي فليس عليك فيه مسئولية؛ بل على العكس سيكون ذلك في الموازين التي ترجح كفة حسناتك.

● إن الإسلام لا يهتمه موقعك في الحياة سواء كنت أميرة المنزل، أو أميرة الدولة، ولكنه يهتم بمدى الإخلاص الذي يغمر قلبك في أداء مهمتك في الحياة، ومدى السبل إلى إعلان كلمة الحق في ذلك الميدان الذي تسعين فيه " فالأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى " .. ولذلك فلا يكن شغلك الشاغل هو إثبات ذاتك بالعمل الوظيفي والارتقاء في المناصب، وإنما ليكن هدفك الأسمى هو أن تكوني عضوة نافعة ومواطنة لها فعاليتها في المجتمع تأخذين بيد الضعفاء، وتتكافلين مع الجميع في السراء والضراء وتجودين بالمال والجهد في سبيل نشر الحب والوفاء.. بهذا تحقق إنسانيتك الحقة، وتكونين عنواناً صادقاً على ذلك الدين القيم الذي تفهمين إليه وتؤمنين بما وأهدافه إيماناً يقيناً لا يتزعزع أمام عواصف الأهواء والتحديات.

● وأهمس في أذن النساء المسلمات: أرجو أن تتحرر بعض النساء من كل الأوهام والشبهات التي تحيط بشريعة الإسلام، مما يجعلهن يتأرجحن بين الشك واليقين.

● كما أرجو تحرر الأخريات من ذلك الجمود؛ فهم روح الإسلام مما يعوق إلي أيجابيتهم وفاعليتهم في الحياة.. ولكننا جميعاً أمة وسطاً كما أراد الله لنا أن نكون وسطاً بين الجمود والحرية المنفلتة، وسطاً بين التعصب والتسيب، وسطاً بين المادية المتطرفة، وبذلك نحقق الحرية المطلوبة لأمتنا، ونحمي أنفسنا من كل الأعاصير التي تحاول أن تزلزل عقيدتنا وإرادتنا.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ)